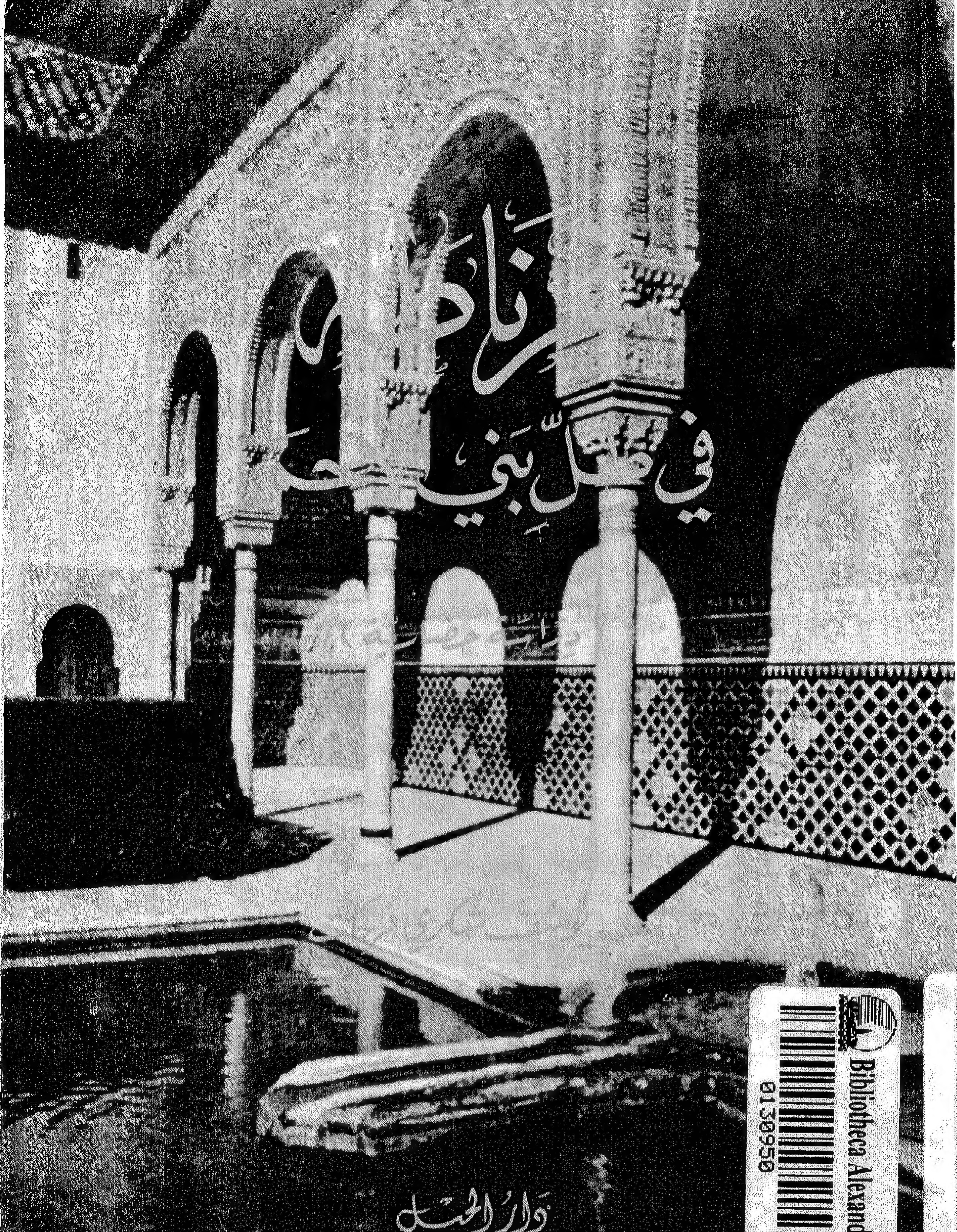
غرناطة في ظل بني الأحمر

دراسة حضارية

يوسف شكري فرحات



دار الجيل

بيروت

غرناطة

في ظل بني الأحمر

غرناطة في ظل بني الأحمر

(دراسة حضارية)

د. يوسف شكري فرحات

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

مقدمة

موضوع هذه الدراسة هو «غرناطة في ظل بني الاحمر»، ويدور البحث فيه حول الحقبة الاخيرة من الوجود العربي في الاندلس، تلك الحقبة التي استمرت اكثر من قرنين ونصف القرن، انطلاقاً من سنة ١٢٣٢م (٦٢٩ هـ) تاريخ تأسيس الدولة النصرية وانتهاء بسنة ١٤٩٢م (٨٩٧ هـ) تاريخ سقوط غرناطة. وهي دراسة مفصّلة عن أحوال الدولة النصرية، أو مملكة بني الاحمر، من النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية.

واعطاء الدراسة هذا العنوان هو من باب تسمية الكل باسم الجزء، علماً بأن البحث يشمل حضارة المملكة النصرية كاملة، ذلك أن العاصمة غرناطة غدت في القرون الثلاثة الاخيرة أكبر المدن الاندلسية، بعد تكاثر الهجرات اليها من المدن التي سقطت بيد الافرنج. كما كانت مركز الثقل للنشاطات السياسية والاقتصادية والفكرية، وفيها ترك المسلمون معالم حضارية لا يزال معظمها كما كان بالامس. والمعروف ان المدن والاقاليم التي كانت تابعة لمملكة بني الاحمر فيها الكثير من آثار الماضي، ولكن تلك الآثار تحوّل معظمها الى أطلال، كما أنّها لا تنعكس بشكل بارز على الحاضر ولا تترك أثرها الواضح في نفوس أبنائها كما هي الحال في غرناطة. فحاضر المدينة يشهد على أمجاد ماضيها، وذلك الماضي تفرقت اخباره في كتب المؤرخين الذين تهافتوا على الاشادة بعظمة العاصمة النصرية. لهذه الاسباب اخترنا لكتابنا هذا العنوان.

والدافع الى اختيار هذا البحث، ذي الطابع الحضاري، هو أن أياً من المصادر والمراجع، العربية منها والاجنبية، لم يخصص، على ما أعلم، لهذه الحقبة من الزمن قسماً يفي الموضوع حقه ويحيطه من كل جوانبه، مع أن تلك الحقبة تمثل

ذراعاً متقدماً في جسم الحضارة الاندلسية. وقد تسنى لي، في أثناء اقامتي هناك بين سنتي ١٩٦٤ و ١٩٦٨، أن انتقل في ربوع الاندلس وأتجول في المدن والمناطق الغرناطية التي ترك فيها العرب بصمات لا تمحى. فرأيت، بعد تسجيل المشاهدات والملاحظات، أن هناك حاجة لوضع دراسة مستقلة متكاملة عن الحضارة النصرية لتبيان مدى اسهام بني الاحمر في البناء الحضاري، بعدما شدّوا الوجود العربي في الاندلس نحوا من ثلاثة قرون.

لقد عمدنا في هذا البحث الى جمع ما تناثر في بطون الكتب من أخبار وما دوّناه من ملاحظات، فكان هذا العمل الذي يضع بين يدي القارىء قصة أرض كانت لحقبة طويلة جزيرة صغيرة في المحيط الاوروبي، ذلك المحيط الذي طمت فيما بعد امواجه وابتلع الارض. وهكذا ضاع شعب كان له بالامس بين ضجيج الحضارات صرخة مدوية وصلت اصداؤها الى مسامعنا، وعلى دروب التاريخ خطوات لا يزال وقعها يتردد في النفوس.

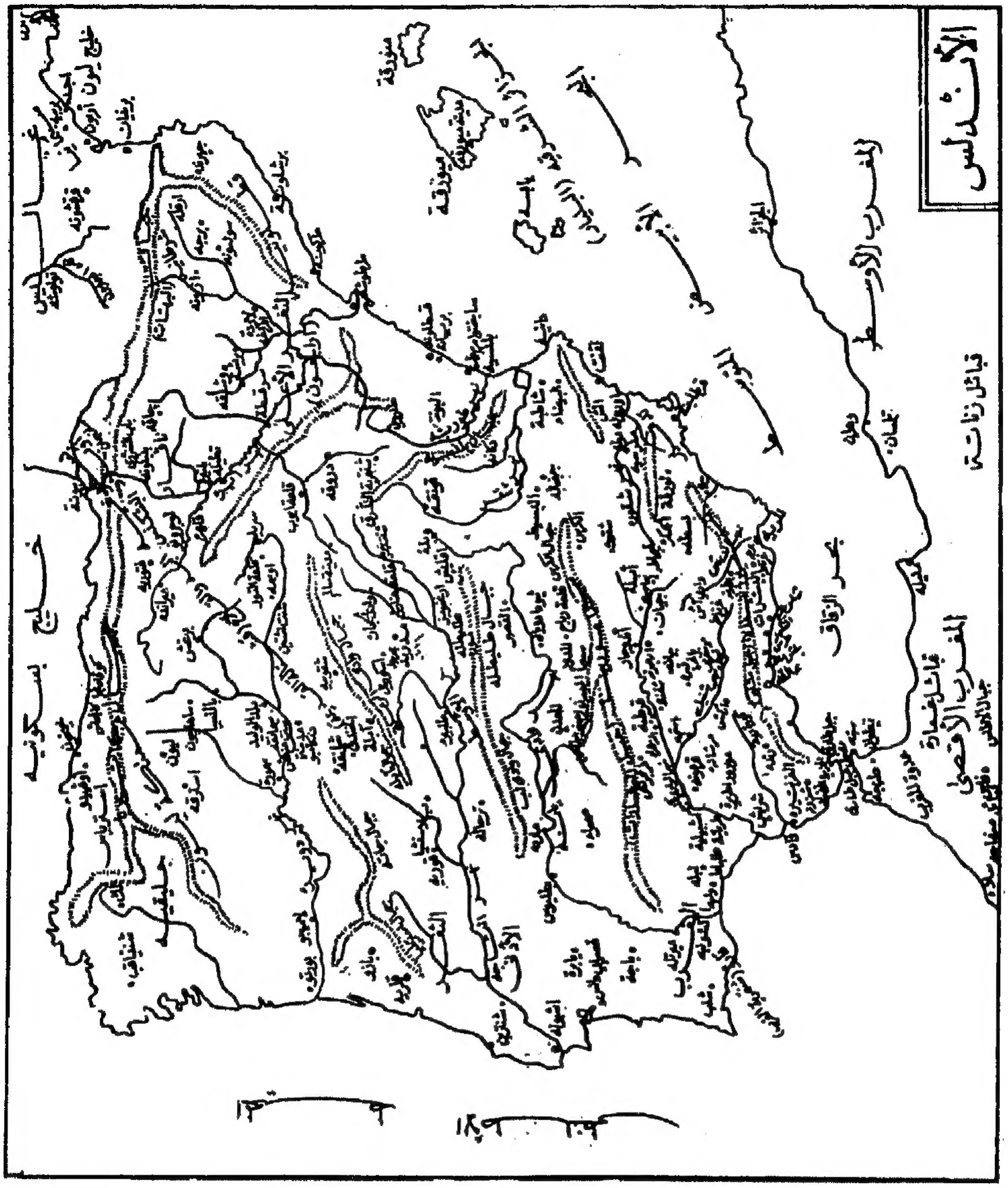
وما كان لهذا البحث ان يستوي على صورته ويأخذ بعده العلمي، وان افتقر الى الكمال الذي هو صفة يستحيل ادراكها، لولا عودتنا الى مراجع متنوعة المنابع. فالمصادر والمراجع العربية، على أهميتها ووفرة الحقائق التي دونتها، قد سكتت عن أمور كثيرة كانت ستبقى طي النسيان لو لم تكشف عنها المراجع الاجنبية. ثم ان الغموض الذي يلف نواحي من تلك الحقبة، والشك في بعض المظاهر والاحداث والحالات، جعلانا لا نرتاح الى منبع واحد وحملانا على اللجوء الى غير ضوء ازالة للغموض وتلمساً للحقيقة.

من هنا كان الاعتماد على مصادر ومراجع عربية وفرنسية واسبانية.

وبعد، فقد حققنا وعداً قطعناه على انفسنا، وقدمنا خدمة، ولو متواضعة، الى العلم، وما هدفنا الا الاسهام في احياء التراث، والله رقيب النيات والقصد.

بيروت، ١٩٩٣.

يوسف شكري فرحات


الأندلس
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل زناتة

مدخل

البيئة الطبيعية

نحاول في هذا القسم من دراستنا عن مملكة غرناطة أن نرسم الاطار الطبيعي الذي خضع لسلطان المسلمين في القرون الثلاثة الاخيرة من الوجود العربي في الاندلس، فنعرّف بالمناطق المهمة، كما هي اليوم وكما كان بعضها بالامس، لان التغييرات الكثيرة لم تشمل طبيعة الارض الا من حيث بعض المسالك وطرق المواصلات التي تبدلت مع تطور وسائل النقل.

كانت مملكة غرناطة تقع جنوبي شرقي الجزيرة الايبيرية وتنفتح حدودها الشرقية على البحر المتوسط. تشمل شمالاً منطقة أَلْمرِيّة وتمتد جنوباً حتى جبل الفتح أو جبل طارق، أما حدودها الغربية فتنتهي عند سفوح الجبل الاسمر (سِييرّا مورينا) والوهاد التابعة لمنطقة نهر الوادي الكبير. ويمكن للمسافر أن يجتاز البلاد سيراً على الاقدام من الشمال الى الجنوب في عشرة أيام ومن الشرق الى الغرب في ثلاثة أيام[(١)]، ويبدأ القسم الشمالي من البلاد عند سفوح الجبل الاسمر حيث تكثر المنحدرات الوعرة والصخور المنضّدة، وهي المنطقة العليا من الوادي الكبير وروافده حيث تقع مدن «جَيّان» و «بِيّاسة» و «أُبّده»، وقد بقيت هذه الرقعة مدّة طويلة من الزمن منطقة نزاع بين المسلمين والنصارى. فمدينة أبّدة، وسكانها اليوم نحو ٣٢٠٠٠ نسمة، تقع على علو ٨٠٠م وطالما تغنى المؤرخون المسلمون بجمال موقعها وسحر مناظرها ووفرة محاصيلها[(٢)]، وقد كانت مركز

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون)، ج٧، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧١. ص ١٧١.

(٢) المقّري التلمساني: نفح الطيب، ج٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨. ص ٢١٧.

دفاع بيد العرب قبل ان يقتحمها ملك قشتالة سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤م ويضمها الى مملكته(١). ومدينة «بِيّاسة» تقع على منحدر واد صغير، وكانت أيام العرب محاطة بأسوار منيعة لا تزال بقاياها الى اليوم، وقد اشتهرت بياسة بزراعة الزعفران. أما «جيّان» المشهورة بمناجم الفضة وغابات الزيتون، فهي المدينة الثانية التي بسط ابن الاحمر عليها سلطانه بعد أن استقل في «أَرْجُونة»، وهي تقع على سفح تلة فوقها قلعة كانت ايام العرب تشارك المدينة اسوارها المنيعة. وقد وقعت في يد فردينانْدُو الثالث عام ٦٤٤ هـ/١٢٤٦م فانقلبت الى حصن منيع في يد النصارى(٢). وتجدر الاشارة الى أن شتاء جيّان ليس قاسياً بينما تصل حرارة صيفها الى أربعين درجة مئوية أحياناً.

في القسم الاوسط يخلق نهر «شَنِيل» مناظر تختلف الى حدّ ما عن تلك التي تقع عليها في الشمال، فالطبيعة تبدو أكثر انفراجاً ولا يُصدم النظر بالصخور الشاهقة او يقع على أودية سحيقة. فمدينة «قَبْرَة» مثلاً تطل قصبتها او قلعتها الكبيرة على سهل شنيل الذي يصل الى مدينة «لُوسِينا» من أعمال قرطبة. وفي المنطقة الوسطى تقع مدينة «وادي آش» (٢٤٠٠٠ نسمة) على نهر ينحدر من جبل «شُلّير» عند السفح الشمالي لجبل الثلج (سييرا نيفادا) على بعد ٣٥ كلم من غرناطة الى الشمال الشرقي منها، وهي مدينة تحدق بها البساتين وتكثر فيها المياه، وفيها حصن «جُلْيَانَه» العربي. ومن وادي آش يمكن الوصول الى غرناطة الواقعة على السفح الشمالي الغربي من سلسلة جبل الثلج، ولنا عودة الى العاصمة غرناطة ومرجها الفسيح في المكان المناسب. وتجدر الاشارة الى ان مدينة «لُوْشَه»، مسقط رأس عبقرية العصر النصري لسان الدين بن الخطيب، تقع غربي عاصمة بني الاحمر على سفح تلة مشرفة على نهر شنيل، وهي غنية بالصنوبر، ولها قلعة عربية تطل على أودية خصبة تكثر فيها الاشجار المثمرة.

---

(١) بعد موقعة العقاب المشهورة (٦١٢ هـ/١٢١٢م) سقطت عدة مدن اندلسية بيد الاسبان منها مدينة أبدة (المقري . نفح الطيب، ج٤، ص ٣٨٣).

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ١٧٠.

وفي القسم الاوسط من البلاد تقع سلسلة جبال «سييرا نيفادا» أو جبل الثلج، وفيها أعلى قمة في اسبانيا هي قمة مولاي حسن (٣٤٨٢م). وتختزن هذه الجبال الثلوج التي تذوب صيفاً فتروي الهضاب والسهول المجاورة، وتقابل جبال الثلج من جهة الشرق سلسلة أخرى تصل أعلى قمة فيها الى ٢٢٤٢م وهي سلسلة جبال البُشُرّات، وقد وجد العرب صعوبة في دخول هذه المناطق الوعرة التي اصبحت، بعد سقوط غرناطة، ملاذهم الاخير وملجأهم المنيع فتحصنوا فيها واعلنوا العصيان والثورة، وبقي سكان البشرّات الذين عرفوا باسم الموريسكيين[١] خارج سلطان الاسبان نحو قرن من الزمن[٢]. وفي البشرات مناطق خصبة تصلح لزراعة القمح والشعير والشوفان، وتربية المواشي، الى جانب اشجار التوت لتربية دودة الحرير. والمعروف أنه بعد القضاء على عصيان الموريسكيين وترحيلهم عن اسبانيا، سكن منطقة البشرات فلاحون من قشتالة اهتموا بزراعة اللوز والزيتون والكرمة.

ننتقل الى جنوبي غربي البلاد حيث تمتاز طبيعة الارض بكثرة الصخور الكلسية الباهتة والمناظر الرتيبة، فلا يقع السائح على تلك الغابات التي يضيع فيها النظر، وانما تعترضه من حين الى آخر اشجار السنديان المنتشرة على التلال وفي السهول. وتُعد مدينة «رُنْدَة» التي تقع على علو ٨٠٠م من المدن التاريخية المعروفة، وفي المدينة واد يجعل منها قسمين: المدينة الحديثة في القسم الشمالي والمدينة القديمة في القسم الجنوبي، وفي «رندة» حصن يعرف باسمها.

يبقى ان نلقي نظرة على القسم الساحلي من المناطق التي كانت تابعة لمملكة غرناطة، فنبدأ من مدينة «أَلْمريَّة» (١٠٠٠٠٠ نسمة) وهي مرفأ على

---

(١) الموريسكوس (أو الموريسقوس) Moriscos هم المسلمون الذين بقوا في الاندلس وعاشوا تحت حكم الاسبان نحوا من قرنين. وقد اعتنق قسم منهم النصرانية ورحل قسم آخر الى المغرب (راجع دائرة المعارف، ادارة ف.أ. البستاني، ج١٢، الاستشراق).

(٢) Luis Del Marmol Carvajal, Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos. Bibl. de Autores Esp., XXI, PP. 189 - 191.

المتوسط. بنى المدينة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥م وعظم شأنها في دولة المنصور بن ابي عامر وولّى عليها مولاه خيران العامري ونسبت قلعتها اليه واصبحت معروفة بقلعة خيران(١). ومن مرفأ المرية كان العرب يصدرون الى الشرق الرصاص والحديد والرخام، كما اشتهرت قديماً بصناعة الحرير وآلات الحديد والنحاس والزجاج(٢).

نترك مدينة ألمرية ونسلك طريقاً موازياً للبحر يشرف على شاطىء رملي يمتد حتى مالقة ويبلغ نحو مئتي كيلومتر، يطلق عليه الاسبان اسم «شاطىء الشمس»، ومن حين الى آخر تطل أبراج مواجهة للشاطىء كان العرب قد بنوها لمراقبة المراكب وحراسة الشاطىء من الغزوات البحرية وأعمال القرصنة. ونمر على قرية «بَرْجَه» من أعمال ألمرية، وهي على واد مبهج يعرف بوادي العذراء، ويسمي العرب برجة بهجة أيضاً لجمال منظرها(٣). كما تستوقفنا مدينة «ألمونيكار» او المنكّب التي بناها الفينيقيون(٤) على تلة صخرية قريبة من الشاطىء، وكانت أيام العرب حصناً قوياً يؤمن سلامة الطريق الساحلية. والمعروف ان عبد الرحمن الاول دخل الاندلس سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥م عن طريق المنكّب التي كانت محطته الاولى(٥).

وندخل مقاطعة مالقة حيث تكثر حقول قصب السكر فنجتاز مدينة «بَلش» Velez Malaga التي كانت قلعتها على الطريق بين مالقة وغرناطة. والمعروف ان منطقة بلش كانت أيام العرب ولا تزال، غنية بكروم العنب والاشجار المثمرة الاخرى. كما تكثر على المرتفعات غابات الصنوبر والسنديان.

---

(١) المقّري التلمساني، نفح الطيب، ج١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٣.

(٣) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ١٥١.

(٤) Antonio R. Olivera, Historia de Espana, La Antiguedad, Ed. Oasis, Mexico, 1974. P. 116.

(٥) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٣٢٨.

نصل مدينة مالقة (٣٥٠٠٠٠) عبر طريق في منطقة وادي المدينة - Gua dalmedina التي تقسم مالقة الى حي شمالي وآخر جنوبي. وهذه المدينة البحرية كان لها دورها التاريخي العظيم ايام الفينيقيين والرومان والعرب(١) وتنتشر منازلها من سفح الجبل حتى الشاطيء وتعلوها القصبة العربية أو القلعة، كما ترسم بقايا الأسوار العربية معالم المدينة القديمة. ومن مرفأ مالقة تصدّر اليوم المنتوجات الزراعية المتنوعة كاللوز والعنب والنبيذ والزيت والزيتون والبرتقال، ويستورد النفط وبعض مواد البناء. وأيام العرب اشتهر التين المالقي الذي ضرب المثل بحسنه ووصل الى الهند والصين، وفيها كان يصنع الفخار المذهب ويباع خارج مملكة غرناطة(٢). ومدينة «الحامة» او الحمة Alahama التابعة لمالقة اشتهرت منذ أيام العرب بينابيعها الحارة ومياهها المعدنية(٣).

من مالقة نتجه جنوباً في محاذاة الشاطيء عبر حقول خصبة فنمر بمدينة «مربله» Marbella ونصل «الجزيرة» (٢٥٠٠٠) وهي مدينة رومانية أضاف العرب اليها مرفأ على جزيرة قريبة وأطلقوا عليها اسم الجزيرة الخضراء(٤). ومن الجزيرة نصل الى جبل طارق المشهور، وهو عبارة عن صخرة كبيرة كلسية كان لها، ولا يزال، دور فريد في الاحداث التاريخية بحكم موقعها الستراتيجي.

وتنتهي رحلتنا في مدينة «طريف» Tarifa عند آخر المضيق، وهي مدينة صغيرة اعطاها القائد البربري طريف اسمه (٧١٠) بعد اجتيازه بحر الزقاق ونزوله الاندلس بأمر من طارق بن زياد مولى موسى بن نصير(٥). وما تزال بقايا الاسوار الضخمة مع القلعة تشهد على مناعة المدينة التي سقطت مع «الجزيرة» و «جبل طارق» بيد الاسبان في أواخر القرن الثالث عشر (الثامن للهجرة).

---

(١) Antonio R. Olivera, Hist. De Espana, La Antiguedad, P 119.

(٢) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ١٥١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٥.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٢٩.

هذه جولة سريعة بين المناطق والمدن الاندلسية المهمة التي كانت تابعة لمملكة غرناطة والتي شهدت الفصول الاخيرة من الوجود العربي في اوروبا. والمعالم الباقية تشهد لحضارة بلغت ذروة عالية أيام سلاطين بني الاحمر الذين أطالوا عمر العرب في الاندلس نحواً من ثلاثة قرون. فما هي حكاية مملكة غرناطة؟

الفصل الأول

سلاطين بني الاحمر

تمهيد

بعد انهيار الخلافة الأموية في الغرب مرّت بلاد الاندلس في حالة نزيف داخلي. فكانت مرحلة انتكاس العظمة في عهد ملوك الطّوائف وقد تحوّلت غرناطة وضواحيها الى مسرح للاقتتال بين طلاب العرش، حتى جاء بنو زيري وحكموا المدينة طوال القرن الحادي عشر. ويتفق المؤرخون على أن بني زيري الصنهاجيين نزلوا الاندلس في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) ودخلوا في خدمة بني عامر المستبدّين بأمر الخلافة. وكان لهم دور بارز في الفتنة التي اندلعت بقرطبة. ثم انتقل زاوي مع قومه الى غرناطة (٤٠٣ هـ) وجعلها مقرّه وفيها أقام ملكه. وفي حدود عام ٤١٠ هـ (١٠١٩م) انتقل الى القيروان بافريقيا واستخلف حبوس بن ماكسن. وبعده ملك ابنه باديس الذي حصّن المدينة وبنى قلعة هُدمت فيما بعد وعلى أنقاضها قام قصر الحمراء. وقد استعان كل من حبوس وباديس بوزراء من اليهود. ثم جاء عبدالله بن بلقين فكان آخر ملوك بني زيري، وقد خلعه المرابطون عام ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م). ويبدو أن عبدالله بن بلقين فتح أبواب المدينة للحكام الجدد بعدما وجد استحالة في الدفاع عنها[1].

---

(١) حول دولة بني زيري يمكن مراجعة المقّري، نفح الطيب، ج١، وتاريخ ابن خلدون، ج٤.

كان عهد المرابطين مليئاً بالفتن. فبعد وفاة يوسف بن تاشفين اضطربت الاحوال في غرناطة التي لم يحسن ولاتها ضبطها، كما اجهدتهم الحروب المتواصلة ضد النصارى. وكان المرابطون يعمدون باستمرار الى تغيير ولاتهم خوفاً من الخيانة أو لعدم قدرتهم على ضبط الامور ومواجهة الاخطار. فالسلطان علي بن يوسف لم يكن يثق الا بأبناء عمه وأولاده فحكم الاندلس على أيامه كل من ابن عمه مزدلي وولديه أبي حفص عمر وتاشفين، ثم ابن اخته علي بن أبي بكر. وهؤلاء الولاة وصل بعضهم الى نهاية محزنة، فبعد أن احرز مزدلي انتصارات (٥٠٦ هـ) عديدة على ملوك النصارى بين سنتي ١١١٣ و ١١١٤م (٥٠٤ هـ)، قتل في احدى المعارك (آذار ١١١٥م). أمّا علي بن بكر فقد قتل في الاضطرابات التي أثارها المدعو ابن أضحى الذي استولى على غرناطة وسلمها الى أحد امراء بني هود الخاضعين في سرقسطة لمملكة قشتالة. الا أن المرابطين استعادوا المدينة بمساعدة أهلها، وقد خرجوا من تلك المعارك منهوكي القوى، ثم شغلوا عن الاندلس بمتاعبهم الداخلية[١].

وعندما قطع المرابطون صلتهم بالاندلس ووجد الغرناطيون أنفسهم معزولين منذ ١١٤٨م (٥٣٨ هـ) عن سائر العالم الاسلامي، اتصلوا بأمراء الموحدين الذين تسلموا السلطة في غرناطة حتى سنة ١٢٣٢ (٦٢٩ هـ). وقد لقيت هذه المدينة أيام الموحدين المتاعب التي واجهتها أيام المرابطين بسبب الحروب المستمرة مع الملوك النصارى، ولم تعرف الراحة والسلام مدة الا بعد وفاة ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون. ولم تطل فترة الراحة طويلاً لأن الوالي أبا سعيد عثمان أقلقته اضطرابات حرّكها اليهود والمستعربون، فاضطر الى الانسحاب نحو مالقة. وهذا ما جعل أمير الموحّدين عبد المؤمن يعبر الى الاندلس على رأس نخبة من الفرسان ويحرر غرناطة ويلاحق فلول المتمردين. وفي عهد أبي يعقوب يوسف

---

(١) La Grande Encyclopedie Larousse, Librairie Larousse, France, 1979 MOURABITOUN.

ابن الخطيب، اعمال الاعلام، تحقيق بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط٢، ١٩٥٦. من ص ٢٤٦ الى ٢٤٩.

استمر اخوه أبو سعيد عثمان في ولايته على المدينة، فعرفت شيئاً من الهدوء قبل أن تقع في يد ابن هود الذي حرك مسلمي الاندلس لمصلحته[1].

بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب ١٢١٢م (٦١٢ هـ) (معركة طولوسا) قام أحد أبناء ملوك سرقسطة البرابرة من بني هود وثاربمرسية ٦١٦ هـ/١٢١٧م وهو ابو عبدالله محمد بن يوسف بن هود، الملقب بسيف الدولة وبالمتوكل على الله والمستعين. ويروى أنه ظهر بطريقة متواضعة بمساعدة زعيم عصابة كانت تقطع الطرقات على النصارى غالباً والمسلمين احياناً، وقد أصاب غنائم من الماشية والاسرى. فكثر جمعه وتوطدت مكانته وجعل مقره حصن الصُخيرات حيث بايعه اتباعه في رمضان ٦٢٥ هـ/آب ١٢٢٥م، فذاع أمره وانضم اليه الكثيرون بعد انهيار دولة الموحدين. ثم دعا للخليفة العباسي المستنصر بالله وكتب اليه ببغداد، فبعث اليه الخليفة بالخلع والمراسيم وسماه مجاهد الدين سيف الدولة أمير الاندلس، وكان ذلك سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١م. ثم أعلن أهل اشبيلية وماردة وجيان وبطليوس انضمامهم الى ابن هود[2].

وهكذا استطاع ابن هود أن يفرض سلطانه في سنوات قليلة على أكثر مناطق الاندلس. الا ان البناء الكبير الذي رفعه بسرعة لم يكن متيناً. والذي جعل التصدع يظهر في ما بنى ما وجّهه ملوك النصارى من ضربات متتالية الى ابن هود، مما مهد الى ضعفه وسقوطه. فقد قام ملك ليون ألفونسو التاسع وضرب الحصار حول بطليوس، فجهز ابن هود جيشاً لمحاربته، ولكنه هزم ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م وارتد الى اشبيلية. كما قام فرديناندو الثالث ملك قشتالة فقصد مدينة جيان في السنة نفسها وحاصرها، ولكنه لم يستطع اقتحامها لمنعتها، وفي السنة التالية عادت جيوشه لتهزم ابن هود في سهول اشبيلية. فاضطر ابن هود الى مهادنته لقاء ضريبة باهظة، خصوصاً بعد تكاثر الخصوم اثر ظهور ابن الاحمر[3].

---

(١) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٥.
(٢) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٤٧.

في هذه الاثناء قام ملك أراغون خايمي الاول بحملة على الجزائر الشرقية (جزر البليار) ودخل ميروقة بعد قتال مرير ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م، ثم سقطت بين ايدي الفاتحين جزيرة يابسة ٦٣٢ هـ/١٢٣٥م. أما جزيرة مينورقة فقد بقيت مدة أطول بأيدي المسلمين بفضل حكمة صاحبها الذي اعترف بطاعة الافرنج وأدى لهم الجزية، وبعد وفاته فتح الأرجونيون جزيرة مينورقة ٦٨٤ هـ/١٢٨٧م وأجلوا عنها المسلمين[١].

قلنا إن ابن هود رفع الراية السوداء ووصلته الخلع والرايات والالقاب وراح يمدّ سلطانه مما جعل الملوك الافرنج يعدون العدة للقضاء عليه، فحاصروا مدنه الى ان كانت هدنته مع ملك قشتالة. على أن ابن هود لم يكن منفرداً برياسة الاندلس، فقد كان له شرقي البلاد منافس آخر هو ابن مردنيش في بلنسيه. الا ان هذا المنافس لم يكن يخشى أمره، انما كان يقلق من زعيم آخر كان نجمه قد بدأ يسطع هو محمد بن يوسف بن الاحمر. وبعد مخاصمات بين ابن هود وابن الاحمر عقد صلح بينهما دخل بموجبه الثاني في طاعة الاول[٢].

ثم علم ابن هود بأن ملك قشتالة فرديناندو الثالث قاصد مدينة جيان ففاوضه ابن هود سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٦م ودفع له مبلغاً ضخماً من المال وتنازل له عن ثلاثين حصناً[٣]، وبناء على ذلك قفل ملك قشتالة عائداً الى بلاده. ثم ارتد ملك قشتالة الى مدينة قرطبة التي سقطت في يد مجموعة من فرسانه ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦م[٤]. وبعد سنتين من وقوع قرطبة قصد ابن هود مدينة ألمرية لاخضاع واليها الثائر، الا أنه استقبل بحفاوة مما خفف من غضبه. لكن والي المدينة نفذ ليلاً مؤامرة كانت قد حيكت وانتهت بمقتل ابن هود في ظروف غامضة سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص ٤٦٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ١٦٨.
(٣) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٨.
(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٥) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ١٦٩.

محمد بن الاحمر الأول: ٦٢٩ - ١٢٣٢/٦٧٢ - ١٢٧٣.

هو الغالب بالله أمير المسلمين الشيخ أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي، من ولد أمير الانصار سعد بن عباده[١]، وهو مؤسس الدولة النصرية. تسلم امارة مدينته أرخونة في رمضان ٦٢٩ هـ/١٢٣٢م، ثم دخلت مدينتا وادي آش وجيّان في طاعته ٦٣٣ هـ/١٢٣٣م، كما فتحت قرطبة أبوابها له. لكن القرطبيين عادوا بعد أشهر قليلة فتنكروا لابن الاحمر واعلنوا انتماءهم الى ابن هود[٢]. ثم ثار باشبيلية أبو مروان الباجي، وصدّ محاولة قام بها ابن هود لاقتحام المدينة. الا ان ابن الاحمر لم يحكم المدينة سوى شهر واحد أعلن بعده ابناء اشبيلية نفورهم منه لقساوته وجددوا عهدهم لابن هود[٣].

بعد فشله في المحافظة على مدينتي قرطبة واشبيلية، وأمام الشهرة والتأييد اللذين تمتع بهما ابن هود، أعلن ابن الاحمر دخوله في طاعته في شوال ٦٣١ هـ/ ١٦٣٤م واكتفى الى حين بامارته على أرخونة وجيان وضواحيهما. لكن التنافس بين الاميرين استمر خفيفاً الى أن دفع فرديناندو الثالث ملك قشتالة بقواته في حوض الوادي الكبير واقتحم مدينة قرطبة في جمادي الاول ٦٣٣ هـ/ك ١٢٣٦م بمساعدة ابن الاحمر[٤] من دون أن يتنبه الزعماء المسلمون الى ذلك بدليل أن أحداً من المشايخ والامراء لم يحرك ساكناً. كما ان ابن هود بقي بعيداً عن مسألة سقوط عاصمة الامبراطورية في الغرب والتي كانت تحت امرته، لاقتناعه ربما بعدم جدوى اي عمل. وهذا ما جعل القوم يبتعدون عنه ويتجهون نحو ابن الاحمر الذي عرف كيف يستغل الموقف.

وكان ابن هود قد ولّى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلي، وكان خصم ابن

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ١٧٠ . المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ض ١٦٩.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٨٤٨.

الاحمر يأمر بسبّه على المنابر، وكان ظلوماً جائراً. لذلك ثار أبناء غرناطة، بتحريض ابن أبي خالد احد اعيان جيّان، واقتحموا القصبة وقتلوا عتبة واعلنوا طاعتهم لابن الاحمر. فدخلها ابن الاحمر في رمضان ٦٣٤ هـ/أيار ١٢٣٧م وهو يرتدي ثياباً وحلة مرقعة، وجعلها حاضرته ومقر حكمه بدلاً من جيان المهددة باستمرار من قبل النصارى، يعاونه في بسط حكمه أصهاره بنو أشقيلولة الاشداء(١).

ولما قتل ابن هود في «ألمرية» دبت الفوضى في المدينة مما سهّل دخول ابن الاحمر الى عاصمة بني صمادح القديمة في شوال ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م. أما مالقة فقد اعلنت ولاءها لابن الاحمر في السنة التالية(٢).

وهكذا ارتسمت حدود مملكة ابن الاحمر التي جمعت في ظلالها اشلاء الاندلس المنهارة بعدما انكمشت اطرافها فيما وراء نهر الوادي الكبير. وكانت مملكة غرناطة تمتد من جيان وبياسه حتى البحر، وشرقاً حتى ألمرية وغرباً حتى مصب الوادي الكبير . ويخترقها في الوسط نهرا شنيل والدارو، وفيها جبال «سييرا نيفادا» وهضبات البشرّات(٣). وقد شاء القدر أن تغدو مملكة غرناطة مستودعاً لعبقرية الاندلسيين وعلومهم وفنونهم، وأن تضطلع بذلك الكفاح القديم ضد اسبانيا الى ان تلقى مصرعها ابية شهيدة.

بعد موت ابن هود قويت اطماع الافرنج بما تبقى لمسلمي الاندلس، فقام خايمي الاول ملك اراغون وحاصر بلنسية وقطع عنها كل اتصال خارجي، ولم تنفع مقاومة قائدها زيان بن مردنيش ولا المعونة البحرية التي أرسلها ابو زكريا

---

(١) لسان الدين ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٣٣ و ٤٧.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة في اخبار غرناطة. تحقيق م. عنان، القاهرة، طبعة ثانية، ١٩٧٣. ج٢، ص ٩٢.

(٣) بقيت بلنسية وأشبيلية ومرسية خارج سلطانه.

الحفصي. فسقطت المدينة سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م، وبعد سنوات سقطت في يد الارجونيين مدينة شاطبة (٦٤٢ هـ/١٢٤٥م)[١].

من ناحية ثانية راح القشتاليون يعيثون في منطقة جيان تخريباً فاستولوا على حصن ارخونة موطن بني نصر (٦٤٢ هـ/١٢٤٥م) ثم زحفوا الى غرناطة ولكنهم خذلوا وارتدوا عنها[٢]. وفي السنة التالية (٦٤٣ هـ/١٢٤٦م) ضربوا الحصار حول مدينة جيان التي دافع أهلها مدة سبعة أشهر ولم يمكنوا فرديناندو الثالث من اقتحام المدينة بالرغم من اتباع العاهل القشتالي سياسة التجويع. وقد حاول ابن الاحمر فك الحصار فلم يفلح، ثم بدأ يدخل المؤن سراً الى المدينة ولكن الطريق قطعت بعد اكتشافها. عندئذ ادرك ابن الاحمر ان قد حان الوقت للبحث عن منفذ خلاص للعرش المهدد بسيول الافرنج، وقرر أن يسلك سبيل المصانعة كي يشتري سلامته وسلامة مملكته. فأقدم على خطوة جعلت النقاد بين مؤيد ومناهض، ولكن الشيء المتفق عليه هو أنه استطاع بفضل موقفه أن يطيل عمر الدولة ووجود العرب في الاندلس اكثر من قرنين. قرر أن يصالح عدو العرب التقليدي وأن يحالفه، مع ادراكه أن خطوته ستكون على حساب كرامته. وهكذا عقد الصلح بين سلطان غرناطة وملك قشتالة (٦٤٣ هـ/١٢٤٦م) وخلاصته أن يتوقف القتال لمدة عشرين سنة شرط أن يتخلى ابن الاحمر عن مدينتي ارخونة وجيان والحصون المجاورة، وأن يخضع لسلطان ملك قشتالة فيؤدي له مائة وخمسين الف ذهبية ويعاونه ضد اعدائه، ويحضر اجتماع البلاط مرة في السنة كسائر النبلاء التابعين للعرش القشتالي[٣]. وعندما قرأ خطيب الجمعة نص الصلح في المسجد الجامع بجيان قرر قسم كبير من أبناء المدينة الرحيل الى المغرب.

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ١٩٠ . المقّري، نفح الطيب، ج٤، ص ٤٥٦ (قصيدة ابن الابار القضاعي أمام سلطان افريقيا ابي زكريا الحفصي).

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص ١٩٠.

(٣) Enrique Sordo, Al-Andalus Puerta del Paraiso, Edic, Argos, 1964, Espana, P. 121.

وبالرغم مما حصل بقي الغرناطيون على ولائهم لأميرهم حتى انهم لقّبوه بالغالب! أما هو فكان يجيب من يدعوه بذلك: ولا غالب الاّ الله[1].

خلال سنوات الهدنة استطاع محمد الاول ان ينظم شؤون المملكة الفتيّة فوطد دعائمها وراقب مداخيل بيت المال وقضى على الفوضى والفساد. وقضت السياسة الخارجية أن يتعاون مع ملك قشتالة، وحافظ على صداقاته مع ملوك المغرب. وعندما حاصر القشتاليون اشبيلية ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م اضطر ابن الاحمر أن يساعد فرديناندو الثالث ضد أبناء جنسه ودينه الذين استماتوا في الدفاع عن مدينتهم التي سقطت بعد حصار دام ستة أشهر (٦٤٦ هـ/١٢٤٨م)[2].

ومن اجل الحفاظ على رضى رعيته أعلن ابن الاحمر مبايعته لخليفة بغداد المستنصر بالله. وعندما استعاد الموحدون بعض البريق أيام الرشيد بن المأمون سارع ابن الاحمر الى اعلان طاعته له، ولما توفي الرشيد التفت الى سيد المغرب الجديد ابي زكريا الحفصي أمير تونس[3].

ثم طلب صاحب غرناطة من ملك قشتالة الجديد الفونس العاشر أن يساعده على احتلال سبته، المرفأ المهم على الشاطىء الغربي، بعدما جدد له العهود التي عقدها لابيه. فقبل ملك قشتالة بمدّ يد العون شرط أن يحصل بالمقابل على مدينتي «طريف» و «الجزيرة»، عندئذ تراجع ابن الاحمر عن طلب العون بحجة ان الفقهاء رفضوا التخلي عن المدينتين المذكورتين. وهاجم السلطان سبته بما عنده من مقاتلين، ولكنه ارتد عنها بعد معارك عنيفة وخسارة عدد من مراكبه (٦٦٠ هـ/١٢٦٢م).

وعندما اقترب أجل الهدنة بين غرناطة وقشتالة عزم ابن الاحمر على تجديدها وقصد ألفونس العاشر من أجل ذلك، الا أنه قفل عائداً الى غرناطة عندما أدرك ان

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٢.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٣.
(٣) المقّري، نفح الطيب، ج٢، ص ١٤٢.

مكيدة قد دبرت للقضاء عليه[1]. ثم استنجد بالمرينيين الذين اقاموا دولتهم على انقاض الموحدين (٦٦٢ هـ/١٢٦٤م) فوصلته دفعة من جيشهم الى طريف حيث استقبلهم ابن الاحمر بحفاوة بالغة[2].

وما ان وصل المغاربة الى الاندلس حتى هب ابناء «شريش» وهاجموا احياء النصارى ثم حاصروا القلعة التي لجأ اليها القائد القشتالي غارسيا غومس كاريلو مع جنوده واقتحموها (٦٢٢ هـ/١٢٦٤م) فقتلوا حاميتها واسروا قائدها. كما اعلن الواثق بن هود أمير مرسيه خروجه عن طاعة القشتاليين ومبايعته لابن الاحمر الذي عين احد اقربائه حاكماً على المدينة[3].

أمام هذه الانتفاضة القوية اضطر ألفونس العاشر الى الاستنجاد بملك اراغون خايمي الاول الذي دخل أراضي مرسيه (٦٢٣ هـ/١٢٦٥م) وسيطر من دون معارك تذكر على القرى والحصون المجاورة. ثم حاصر المدينة فسقطت بعد شهر (٦٢٤ هـ/١٢٦٦م). أما ألفونس العاشر فقد نشر جيوشه في مرج غرناطة منطلقاً من قلعة ابن زيد، ثم حاصر العاصمة النصرية التي امتنعت عليه (٦٢٣ هـ/ ١٢٦٤م) فارتد الى شريش واقتحمها[4].

هذه الخسائر المتتالية جعلت ابن الاحمر في موقف حرج. والذي زاد الوضع صعوبة ان اقرباءه بني أَشْقيلُولَة ثاروا في مالقة ووادي آش مما جعل مملكته على شفير الهاوية بعدما رفع بنيانها بالعرق والدم. والذي حمل اقرباء الامير وأنصار

---

(١) تختلف آراء المؤرخين العرب والاسبان حول أسباب تجدد الخلاف، فالمؤرخون الاسبان يؤكدون ان النصري تآمر مع سكان اشبيلية لاغتيال ملك قشتالة، بينما يذكر ابن خلدون وصاحب البيان أن مكيدة دبرت للقضاء على ابن الاحمر. لكن الواضح أن الفونس العاشر تسلم الملك مع العزم على متابعة حرب الاسترداد التي بدأها اسلافه (تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ١٩١).

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة، ج٢، ص ٩٨.

(٣) ابن عذاري، البيان المقرب، ج٢، ص ١٤٣.

(٤) كان ابن الاحمر قد زوج ابنتيه مؤمنة وشمس على ولدي ابي الحسن ابراهيم وعبدالله، وتسلم ابراهيم قيادة الجيوش وامارة وادي آش وعين علي أميراً على مالقة (تاريخ ابن خلدون ج٤، ص ١٧٢).

الامس على الثورة هو ان ملك غرناطة كان قد وعد عميد بني اشقيلولة علي ابو الحسن بأن يقاسمه الملك ولكنه لم يف بالوعد عندما عقد ولاية العهد لولديه محمد ويوسف. والذي اغضب بني اشقيلولة هو أن ابن الاحمر جعل مشيخة الغزاة (قيادة الجيوش) لواحد يكون من اقارب بني مرين سلاطين المغرب، وكان لهؤلاء مواقف في الجهاد مشهورة[1]، وقيادة الجيوش كانت من قبل لبني اشقيلولة. زد على ذلك ان السلطان النصري زوج احدى بناته على ابن اخيه فرج ابن اسماعيل بعدما عينه أميراً على مالقة، فكان هذا العمل نقطة الماء التي طفح معها الكيل، فكان العصيان في مالقة ووادي آش. وقد طلب المتمردون العون من ألفونس العاشر وأظهروا استعدادهم للدخول في طاعته. ولم يستطع ابن الاحمر اقتحام مالقة بعدما حاصرها ثلاثة أشهر (٦٦٥ هـ/١٢٦٧م) بسبب مساعدة القشتاليين للمتمردين. فعاد الى غرناطة وراح يفكر بوسيلة للخروج من محنته الجديدة.

في نهاية الامر اضطر ابن الاحمر الى التقدم من القشتاليين في سبيل المصالحة (٦٦٥ هـ/١٢٦٧م) وتنازل عن مدينة شريش وعدد من الحصون. هذا الانهيار الجديد حرك مشاعر ابي البقاء الرندي فأطلق قصيدته المشهورة في رثاء الاندلس[2]:

لـكـل شـيء اذا مـا تمّ نـقـصـان فلا يـغـر بـطـيـب الـعـيـش انـسـان

وتجدر الملاحظة الى ان القشتاليين تخلوا عن مساعدة بني اشقيلولة، ولكنهم لم يقطعوا علاقتهم بهم. ثم قام العقلاء بمحاولة اصلاح ذات البين بين الاقرباء المتخاصمين، من دون الوصول الى نتيجة مرضية.

عمّر ابن الاحمر فشارف الثمانين، قيل انه خرج يوماً مع فرسانه لقمع احدى الفتن، وقد أسنّ، فحدث ان كُسر رمح احد الفرسان اثر ارتطامه بعتبة الباب، وعُدّ

(١) نفح الطيب، ج١، ص ٤٢٥.

(٢) نفح الطيب، ص ٤٨٦.

ذلك نذير شؤم. فنصح بعض المقربين الملك بعدم الخروج، ولكنه لم يمتثل للنصيحة(١). ويبدو أن ما تخوف منه المنذرون قد وقع، ففي مساء ذلك اليوم، وبينما كان عائداً من المعركة التي قضى فيها على الفتنة، شعر بألم حاد مفاجىء في رأسه جعله يترنح فوق جواده. فهرع اليه مرافقوه وأنزلوه عن الجواد وأدخلوه خيمة كانت في وسط سهل غرناطة. وهناك لفظ ابن الاحمر انفاسه بعد نزاع مرير(٢) في جمادى الثانية ٦٧٢ هـ/كانون الثاني ١٢٧٣م، توفي وعيناه مسمّرتان على أبراج قصر الحمراء.

كان محمد الاول النصري ينصرف في أوقات السلم الى شؤون مملكته، فكانت له سلسلة أعمال مجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء. فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لاصحاب المطالب لتلقي المظالم، فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل والملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب «كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً القشف بعيداً من التصنع، شديد الحزم، فظا في طلب حقه، مباشراً للحرب بنفسه، يلبس الخشن ويؤثر التبدي»(٣). وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الكآبة ربما لانه اضطر الى محالفة اعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر(٤).

من أعمال ابن الاحمر، الى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان ودارا للعجزة، وبنى مستشفى كبيراً. ونشر المدارس، وأعد المنازل

---

(١) Enrique Sordo, Al-Andalus Puerta del Paraiso, P. 123.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٨.

(٣) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٣.

(٤) Enrique sordo, Al-Andalus Puerta del paraiso, P. 123.

للغرباء من دون تمييز بين الاديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متستراً بعيداً عن مظاهر الابهة وعظمة الملك. «وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل اسبوع ترتفع اليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل اليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة»(١). كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة، «فتوفر ماله وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الاهراء، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة»(٢). ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التي اوصلها كذلك الى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومدّ الى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائماً حتى اليوم.

محمد الثاني الفقيه: (٦٧٢ - ٧٠١ هـ/١٢٧٣ - ١٣٠٢م)

بعد وفاة مؤسس الدولة النصرية خلفه ابنه محمد الشهير بالفقيه لانتحاله طلب العلم ولاهتمامه بقراءة القرآن الكريم(٣). تسلم الملك وهو في الثامنة والثلاثين من عمره وفي اكتمال نضوجه بعدما خبر الحكم طويلاً أيام أبيه. سار على سنن والده من مصانعة الاقوياء ومداراة الاعداء، واستطاع الوقوف في وجه الفتن بفضل ما بذل من ضروب الاحتيال والدهاء والصبر والحزم(٤).

وصله الملك متصدعاً بسبب الحروب الخارجية والاضطرابات الداخلية التي أثارها بنو أشقيلولة فجعل همه الاول القضاء على فتنتهم. ثم اتصل بالعاهل القشتالي وطلب اليه عدم مساندة بني اشقيلولة مقابل تنازلات على الحدود.

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٣) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ١٧٢.
(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ولكن شروط ألفونس الجائرة جعلت السلطان الغرناطي يصرف النظر عن طلب مساعدته. واتجهت انظاره نحو المغرب باحثاً عن سند ملوك زناتة من بني مرين بعد ما زاد الوضع دقة اعلان حاكم «الجزيرة» انفصاله عنه مما جعل مضيق جبل طارق مقفلاً في وجهه. فدعا محمد الثاني السلطان أبا يوسف (٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤م) الى الجهاد في الاندلس واصفاً حالة مسلمي الاندلس اليائسة، وكان بنو أشقيلولة بدورهم قد اتصلوا بسلطان المغرب وقدموا له الطاعة والولاء. وعند الحاح الفريقين أرسل أبو يوسف يعقوب جيشاً بقيادة ولده «أبو زيان» فدخل مدينتي طريف والجزيرة، ثم نزل السلطان نفسه بلاد الاندلس (٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥م). في هذا الوقت هاجم محمد الفقيه مدينة مالقة ولكنه ارتد عنها خائباً، ثم انضم ثوار مالقة الى الجيش المغربي الذي أمن حمايتهم. فغضب محمد الفقيه لتفضيل سلطان المغرب بني اشقلولة وعاد الى غرناطة(1).

ولما توفي ابو محمد بن اشقيلولة تسلم ابنه علي امارة مالقة. ثم ضم بنو أشقيلولة مدينة مالقة الى ملك بني مرين، فعين سلطانهم ابو يوسف عمر بن يحيى ابن المجالي حاكماً للمدينة وعاد الى المغرب. فلما رأى محمد الثاني الفقيه ان قسماً من مملكته اصبح للمغاربة اتصل بأحد اعداء بني مرين الامير يَغْمراسن التلمساني وأغراه بمحاربة ابي يوسف بغية الهاء هذا الاخير عن شؤون الاندلس(2). ثم اتفق مع ألفونسو العاشر على محاصرة «الجزيرة» فكان له ما أراد، وحاصر القشتاليون المدينة براً وبحراً فعُزل مرينيو الاندلس عن المغرب. واغتنمها محمد الفقيه فرصة فاقنع عمر بن المجالي حاكم مالقة بفتح أبواب المدينة لعدم جدوى المقاومة. واستطاع جنوده بذلك دخول المدينة (٦٧٧ هـ/١٢٧٩) واعادتها الى حظيرة بني نصر بعدما بقيت ثلاث عشرة سنة خارج سلطانهم(3).

---

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص ١٨٥ و ١٨٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٢٠٠ . ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٢٨٧ (الخلاف بين ابن نصر وبني اشقيلولة).

(٣) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٢٠١.

عندما حقق محمد الفقيه هدفه وجد ان محاصرة القشتاليين للجزيرة لم تعد تجدي، خصوصاً بعدما عرض عليه بنو مرين ارجاع المدينة اليه اذا غيّر سياسته. وهكذا انتقلت قوات ابن الاحمر من جبهة الى أخرى، فاضطر ألفونسو لفك الحصار. لكن السلطان المريني لم يكتف بعدم ارجاع «الجزيرة» الى بني نصر، بل راح يطالبهم بمدينة مالقة. ثم رجع الى المغرب لاضطراب أحوال مملكته وأمر ولده أبا زيان بمحاربة ابن الاحمر [١].

لم يستطع ألفونسو العاشر تقبل خيانة ابن الاحمر في حصار «الجزيرة»، فاتحد مع بني مرين اعداء الامس وبني اشقيلولة وشنّ المتحالفون هجمات متتالية على غرناطة باءت كلها بالفشل[٢].

وفي غمرة هذه الاخطار حدث ما ساعد محمد الفقيه على استعادة نشاطه، فقد وقعت الاضطرابات داخل مملكة قشتالة مما خفّف ضغط الافرنج على المملكة النصرية. وسبب الاضطرابات خلاف بين أولياء العهد وانقسام المملكة، مما جعل الهدوء يسود الحدود بين مملكة غرناطة وممالك الافرنج. فاهتم ابن الاحمر بالامور الداخلية وقضى على الفتن التي اثارها عمر بن المجالي في مدينة المنكب واقتلعه منها[٣].

ولما توفي ألفونسو العاشر تغلب على الملك ولده «سانْشو الرابع» وحافظ على محالفة ابن الاحمر الذي قرر الانتهاء من مسألة بني اشقيلولة المتمردين في وادي آش وقُمَارش. فحاصر ابن الاحمر قمارش ودخلها من دون مقاومة تذكر (٦٨٣ هـ/١٢٨٤م).

ولما امتنع الافرنج عن مساعدة بني اشقيلولة التفت هؤلاء الى المغرب واستنجدوا ببني مرين الذين ابحروا الى الاندلس مرة اخرى واصطدموا

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.
(٢) اللمحة البدرية، ص ٥٨.
(٣) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٢٠٤.

بالقشتاليين ودحروهم. لكن ابن الاحمر، كان، في الوقت نفسه، قد احرز انتصاراً ساحقاً على أبي زيان ابن السلطان ابي يوسف(١). وقد اضطر المرينيون الى ترك الاندلس لابن الاحمر بسبب الاضطرابات التي وقعت في بلادهم بعد وفاة ابي يوسف، ولم يبق بيدهم سوى مدينتي «طريف» و «الجزيرة». وفي مطلع عام ٦٧٨ هـ/١٢٨٨م، ولاسباب سكت عنها المؤرخون، ترك بنو اشقيلولة وادي آش لابن الاحمر ورحلوا مع عيالهم وجنودهم(٢).

ثم اتفق ابن الاحمر سراً مع القشتاليين على استرجاع مدينة طريف مقابل تنازله عن عدد من الحصون لهم. فحوصرت المدينة (٦٩١ هـ/١٢٩٢م) وسقطت بيد سانشو الرابع الذي احتفظ بها ولم يرجعها الى محمد الفقيه كما اتفق، معتبراً عمله ردة فعل على خيانة الفقيه في حصار «الجزيرة» قبل ثلاث عشرة سنة. فعاد الفقيه مرة ثانية الى بني مرين وانتقل شخصياً الى «طنجة» واقنع السلطان المغربي الجديد بالعودة الى الجهاد. فعبرت الجيوش المغربية بحر الزقاق وضربت الحصار حول مدينة طريف، ولكنها اخفقت في اقتحامها، واتهم السلطان محمد الفقيه بالتقاعس اذ بقي في غرناطة بحجة المرض وكلف ابنه بقيادة الحملة الى طريف، ولكن ولده لم يغادر مالقة(٣).

وفي سنة ٦٩٤ هـ/١٢٩٥م توفي الملك القشتالي سانشو الرابع وخلفه ولده فرديناندو الرابع، وكان قاصراً، مما جعل الفوضى تدب في المملكة. فاغتنم محمد الفقيه الوضع وهاجم جملة من الحصون القشتالية من جهة الوادي الكبير واحتلها. وعظم خطره على القشتاليين حتى أن هؤلاء عرضوا عليه الصلح مقابل التخلي عن طريف، ولكن المفاوضات لم تثمر لاسباب بقيت مجهولة، فتابع الفقيه زحفه حتى وصل الى أبواب اشبيليه. وبالمقابل توغل ملك اراغون خايمي

---

(١) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٢٨٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٣) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٢١٦.

الثاني في الاراضي القشتالية من جهة مرسية بحجة دعم احد ابناء «الفونسو العاشر» الذي ادعى أن سانشو الرابع سلبه حقه في الملك[١].

وفي الثاني من شعبان ٧٠١ هـ/١٣٠٢م توفي محمد الثاني الفقيه فجأة عندما كان في أوج عظمته العسكرية بعدما ملك تسعاً وعشرين سنة[٢]. وبالرغم من حياته المليئة بالاحداث، فقد استطاع أن يوفر للناس رفاه العيش، واهتم بالعمران مضيفاً الى قصر الحمراء ما لم ينجز أيام ابيه، كما نظم الدواوين والجباية، وشجع العلماء والادباء والمنجمين والاطباء[٣].

محمد الثالث المخلوع: (٧٠١ - ٧٠٨ هـ/١٣٠٢ - ١٣٠٩م)

هو ثالث ملوك بني نصر وابن محمد الثاني، يكنى أبا عبدالله ويلقب بالمخلوع، تسلم أيام ابيه مسؤوليات عدة فتمرس بشؤون الحكم. أحب التقرب من ملوك بني مرين في المغرب فأرسل أبا يعقوب الداني على رأس فرقة من الرماة لمساعدة السلطان أبي يعقوب في محاصرة تلمسان، كما استأنف الزحف الذي بدأه أبوه على المعاقل القشتالية فاحتل عدداً من الحصون في ضواحي جيان[٤]. وفي صيف ٧٠٢ هـ/١٣٠٣م كان القشتاليون قد خرجوا من حالة الفوضى الداخلية واستعادوا نشاطهم، وعقدوا مع محمد الثالث هدنة لثلاث سنوات. فلم يرق ذلك العمل لبني مرين فأعادوا الفرقة الغرناطية الى الاندلس بعدما بقيت سنة كاملة تساهم معهم في حصار تلمسان. كما اتصلوا بملك أراغون خايمي الثاني يحرضونه على ابن الاحمر، لكن ملك اراغون الذي اقلقه

---

(١) A. Gimenez Soler, La Corona de Aragon y Granada T.I.B.R.A.B.L, Barcelona 1908 Reed 1979 PP 53 - 54.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية ص ٥٨.

(٣) E. Levi Provencal, Grenade Musulmane el l'Alhambra, Conferences sur l'Espagne musulmane en 1947. Le Caire, 1951.

(٤) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٢٢٨.

التقارب القشتالي الغرناطي لم يشأ أن يعمل برأي المغاربة فحافظ على حسن العلاقة مع النصريين كما عقد معاهدة صلح مع قشتالة[1].

في ربيع سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤م كان السلام مخيماً في ربوع الاندلس. فاتجه الغرناطيون بأنظارهم الى مدينة سبته. وعمد حاكم مالقة الرئيس أبو سعيد فرج النصري ابن عم السلطان وصهره الى تحريض أبناء سبته على التمرد فأعلن هؤلاء ولاءهم لبني الاحمر الذين ضموا المدينة الى مملكتهم سنة ٧٠٥ هـ/١٣٠٦م. ولم تكن خسارة مدينة سبته لتشغل السلطان المريني أبي يعقوب عن حصار مدينة تلمسان، ذلك الحصار الذي استمر ثماني سنوات وانتهى بمعاهدة صلح مع التلمسانيين على يد أبي ثابت المريني الذي خلف أبا يعقوب بعد اغتيال هذا الاخير سنة ٧٠٦ هـ/١٣٠٧م. ثم فاوض أبو ثابت محمد الثالث النصري في أمر استرداد سبته ولكنه توفي فجأة سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨م، قبل أن يصله جواب ابن الاحمر[2].

لم يهنأ محمد الثالث بالملك اذ أصيب بمرض في عينيه لفرط السهر على أنوار الشموع، وهذا ما جعل الفظاظة والقسوة تغلبان على خلقه. ولما رأى كبار الدولة ان ملكهم لم يعد يصلح لادارة شؤون الحكم بسبب زمانة عينيه وحدّة طباعه قرروا خلعه. ففتكوا بوزيره أبي عبدالله محمد بن الحكيم الذي كان قد استبد بالامر، وكبسوا منزل السلطان فأشهدهم بخلع نفسه. ثم نقل الى مدينة المنكب حيث اصيب بسكتة أماتته (٧٠٨ هـ/١٣٠٩م)، وقيل بل إنه اغتيل تغريقاً في بركة القصر بتدبير من اخيه نصر الذي بايعه الناس[3].

---

(١) Ch. E. Dufourcq: L'Espagne Catalane et le Marghreb ay XIIIe et XIIe Siecles Paris, 1966 P 360.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٢١٩ - ٢٢١.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٦٠ - ٦٨. الاحاطة، ج١، ص ٥٥٤. اعمال الاعلام، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

نصر بن محمد: (٧٠٨ - ٧١٣ هـ/١٣٠٩ - ١٣١٤م)

كان نصر دمث الاخلاق مجبولاً على طلب السلام، محبا للخير وأهله، وفياً لاصدقائه، أديباً عالماً، ولوعاً بالأبهة ومظاهر الملوكية، تسلم الحكم وهو ابن ثلاث وعشرين وكني أبا الجيوش. لكن الحظ لم يحالفه فكانت ايامه نحساً مستمراً، فاضطر الى انفاق وقته في محاربة الثائرين في الداخل والطامعين بملكه في الخارج[١].

وللمرة الاولى، منذ تأسيس مملكة غرناطة، تحالفت مملكتا قشتالة وأراغون ضد غرناطة واتفقتا على تقويض أركان المملكة النصرية. وفي ربيع سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٩م اجتاح فرديناندو الرابع القشتالي منطقة الجزيرة الخضراء، كما عبث صاحب برشلونة خايمه الثاني بمنطقة ألمرية[٢].

أمام هذا الواقع عمد نصر الى مصالحة بني مرين فأعاد اليهم مدينة سبته وزوج احدى شقيقاته الى أبي الربيع المريني الذي أرسل العون الى الغرناطيين. وقد اصيب الافرنج بخسائر فادحة فتراجع فرديناندو الرابع عن حصار الجزيرة (شعبان ٧٠٩ هـ/كانون الثاني ١٣١٠م) وعقد صلحاً مع السلطان تعهّد بموجبه بتعويض الخسائر التي تسبب بها، أما خايمه الثاني ملك اراغون فقد هزم في ألمرية وردّ على أعقابه بفضل مساعدة المغاربة للنصريين[٣].

وما كاد السلطان ينتهي من حروبه في الخارج ويتنفس العافية حتى نشبت الفتنة في الداخل عندما ادعى ابن عمه أبو الوليد اسماعيل بن فرج الملك لنفسه في مدينة مالقة. وقصد غرناطة محتلاً الحصون بطريقه، ثم دخل المدينة من

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٣) Ch. E. Dufourcq, L'Espagne Catalane, P 402.

ناحية «البيازين» حيث كثر اتباعه، واحتل القصبة وسائر أحياء العاصمة. ولم يبق سوى الحمراء التي اقتحمها في شوال ٧١٣ هـ/شباط ١٣١٤م، وقبض على نصر ثم عفا عنه واعطاه امارة وادي آش حيث توفي نصر في السنة نفسها[١].

اسماعيل الاول: (٧١٣ - ٧٢٥ هـ/١٣١٤ - ١٣٢٥م)

هو أبو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل النصري، خامس ملوك بني الاحمر، كان عفيف النفس لا يعاقر الخمر ويميل الى الصيد، وقد نشر العدل في رعيته واجتهد في الدفاع عن مملكته. كما اشتد على أهل البدع مختصراً الخوض في أمور الدين، وله القول المعروف: أصول الدين عندي «قل هو الله أحد» وهذا (مشيراً الى سيفه)[٢].

من الاحداث المهمة التي جرت على أيامه حربه مع دون بدرو (ابن بطره) احد الاوصياء على عرش قشتالة عندما كان الفونسو الحادي عشر ما يزال قاصراً. ففي شهر صفر من سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦م دارت معركة بين النصارى والمسلمين في ضواحي وادي آش كان النصر فيها الى جانب القشتاليين بحسب زعم المؤرخين الاسبان[٣]، بينما يؤكد المؤرخون العرب أن المعركة لم تسفر عن نتائج ايجابية لاي من الفريقين[٤]، وكان السلطان النصري قد عين عثمان بن أبي العلاء لمشيخة الغزاة ورئاسة الجند. ثم عاود ابن بطرة الكرة قاصداً مدينة غرناطة بالذات ووصل الى مرجها المعروف بعدما سقطت في يده جملة حصون. وزاد الوضع سوءاً اعتذار سلطان المغرب عن مد يد العون ووصول الامدادات العسكرية الى القشتاليين بقيادة دون خوان احد الاوصياء على عرش قشتالة.

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٣) A. Gimenenz Soler, La corona dè Aragon y Granada T. II, P. 57.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ٢٩٤ (يؤكد ابن الخطيب انه جرت معركتان فخسر العرب واحدة وانتصروا بواحدة).

ودارت معركة حاسمة اعتمد فيها العرب على عنصري السرعة والمباغتة، قتل فيها ابن بطرة ودون خوان وتشتت الجنود القشتاليون وانتصر الغرناطيون (٧١٩ هـ/حزيران ١٣١٩م) بفضل حنكة واستبسال القواد وعلى رأسهم شيخ الغزاة أبو العلاء[١]. ويصف المؤرخون تلك المعركة بكثير من الحماسة فيقول المقّري: «وبعد مدّة ألّب ملوك النصارى على غرناطة وجاءها الطاغية ابن بطرة في جيش لا يحصى ومعه ملوك النصارى، فقلق المسلمون واستنجدوا بأبي عثمان بن ابي العلاء المريني سلطان المغرب فاعتذر، وكان سلطان غرناطة اذ ذاك اسماعيل بن فرج النصري. فصمد الغرناطيون وانهزم الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وهلك الطاغية دون بطرة». ثم زحف اسماعيل الى مدينة مرتوس واستولى عليها (٧٢٥ هـ/١٣٢٥م)[٢].

الا ان أبا الوليد لم يتسن له أن يهنأ طويلاً في ملكه، اذ مات قتلاً. فقد اغتاله ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة الذي حقد على السلطان لانتزاعه جارية ظفر بها في موقعة مرتوس. ولما عاتبه رده بجفاء وانذره بمغادرة البلاط، فتربص به وطعنه بخنجر بين وزرائه وحشمه فقتله (٧٢٥ هـ/١٣٢٥م)[٣].

محمد الرابع: (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ/١٣٢٥ - ١٣٣٣م)

هو محمد بن اسماعيل بن فرج النصري، كنيته أبو عبدالله، كان فارساً شجاعاً الى حد التهور، مغرماً بالصيد، وكان يحب الادب ويرتاح الى الشعر. وقعت على أيامه فتنة بين وزيره محمد بن أحمد المحروق وشيخ الغزاة الامير ابي العلاء وانتهت بمقتل الوزير (٧٢٩ هـ/١٣٢٨م)، وتثبيت ابي العلاء في قيادة الجند[٤].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٧.

(٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٠ . الاحاطة . ج١، ص ٥٣٥.

وكان الفونسو الحادي عشر قد بلغ رشده فتسلم الملك وأنهى الوصاية وبدأ عهده بحملة على مملكة غرناطة (٧٢٨ هـ/١٣٢٧م) فسقط بيده عدد من الحصون. فاستنجد السلطان النصري بملوك المغرب فلباه أبو سعيد المريني بجيش ضخم أبعد خطر قشتالة، فهزم ألفونسو الحادي عشر في عدة معارك برية وبحرية واستعاد بنو الاحمر جبل الفتح بمساعدة المغاربة(١).

أما نهاية محمد الرابع فلم تكن أفضل من نهاية أبيه، ذلك أنه كان سليط اللسان لا يتوانى عن تقريع الكبير والصغير، وهذا ما أوغر صدور رؤساء جنده من المغاربة حقداً عليه. وبينما كان عائداً من حملته على جبل طارق كمن له عدد من المغاربة وقتلوه (٧٣٣ هـ/١٣٣٣م)، ولما فرغ القوم من مبايعة اخيه يوسف نقل القتيل الى مالقة حيث دفن(٢).

يوسف الأول: (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ/١٣٣٣ - ١٣٥٤م)

هو ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل، فيه يقول ابن الخطيب: «هو بدر الملوك وزين الامراء، كان أبيض البشرة مليح القد كثّ اللحية، عذب الكلام وافر العقل، كثير الهيبة، كلفا بالمباني والاثواب، جماعة للحلي والذخيرة، مستميلاً لمعاصريه من الملوك»(٣)، وكان السلطان يوسف يمتاز بقوة بدنية هائلة، وعلى ايامه عاشت دولة بني الاحمر عهدها الذهبي. تولى الملك وهو ابن ست وعشرين فاضطلع بالاعباء واحسن مداراة ذوي الشأن فجاء نسيج وحده، وقد تتبع بني العلاء من المغاربة قتلة اخيه انتقاماً، وتحقيقاً لرغبة ابي الحسن المريني سلطان المغرب، ونفاهم الى تونس(٤).

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٣ و ٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٢.

(٤) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٣٠٤.

قام بتدبير الامور وزير أخيه الحاجب ابو النعيم رضوان الذي كان له دور بارز في تاريخ غرناطة، فأنشأ مدرسة فخمة وأمر ببناء السور حول ربض البيازين وأصلح الحصون. لكن الوزير استبد بالامر واستأثر بالسلطة فنكبه يوسف الاول ونفاه الى ألمريه، ثم رضي عنه وأعاده الى الوزارة(١).

وغزا ملوك الافرنج بقيادة الفونسو الحادي عشر أراضي المسلمين فاستنجد يوسف الاول بالسلطان ابي الحسن المريني الذي أرسل الامداد بقيادة ولده أبي مالك، الا أن الاسبان هزموا أبا مالك وقتلوه (٧٤٠ هـ/١٣٣٩م). فقدم ابو الحسن ليثأر للهزيمة ولقيه يوسف الاول فتسلم قيادة الفرسان، ودارت معركة هائلة في السابع من جمادى الاول عام ٧٤١ هـ/تشرين الاول ١٣٤٠م هُزم فيها المسلمون وفر أبو الحسن الى المغرب وارتد يوسف الى غرناطة، وبعد سنتين استولى القشتاليون على طريف والجزيرة. وكانت تلك الهزيمة محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب، وكان لها أعمق الاثر في المغرب والاندلس(٢). وعقب تلك الحروب فترة سلام، بعد موت ملك قشتالة، انصرف خلالها يوسف الاول الى تنظيم المملكة، فكانت سنواته الاخيرة مليئة بالخير والصلاح.

لكن الله لم يطل بعمر ذلك السلطان فقتل في اكتمال شبابه يوم عيد الفطر (أول شوال ٧٥٥ هـ/١٩ تشرين الاول ١٣٥٤م) بينما كان يؤدي صلاة الشكر في المسجد الجامع بغرناطة. «هجم عليه رجل ممرور وطعنه بخنجر قضى عليه، وأخرج ذلك الممرور للناس الهائجة فمزق وأحرق»(٣).

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٣ و ١٠٩.

(٢) Revista Al-Andalus, XIX, 1954, La Fecha de la batalla Del Salado, P. 228.

ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٦.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١١٠.

محمد الخامس: امارته الاولى (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ/١٣٥٤ - ١٣٥٩م)

هو الغني بالله محمد بن يوسف الاول، ولي الملك بعد أبيه، وكان حسن الصورة، عفيف النفس، ظاهر الشفقة بعيداً عن القسوة، مائلاً الى الخير، فأنست اليه العامة والخاصة. وقد جعل امور الحجابة بيد رضوان حاجب أبيه كما أوكل شؤون الوزارة الى لسان الدين بن الخطيب كاتب أبيه[١].

في السنة الاولى من تسلمه الملك اعلن السلطان ولاءه لملك قشتالة بطرس الاول، وحرص على اقامة علاقة طيبة معه. كما حاول أن يحافظ على صداقة بني مرين، فأرسل ابن الخطيب في سفارة الى فاس (٧٥٥ هـ/١٣٥٤م) حيث استقبل بحفاوة[٢].

وفي عام ٧٥٩ هـ/١٣٥٨م وقع الخلاف بين مملكتي قشتالة وأراغون، فوقف محمد الخامس الى جانب بطرس الاول وأرسل ثلاث فرق لمساعدته ووضع قواعده البحرية بتصرف الاسطول القشتالي، وجهز فرقة من الفرسان لمهاجمة الحدود الاراغونية[٣] لكن السلطان لم يستطع تنفيذ مهمته، فقد خلع في ٢٨ رمضان ٧٦٠ هـ/ (٢١ آب ١٣٥٩م)[٤].

كان قد مضى خمس سنوات على ملكه عندما وقعت الفتنة التي ابعدته عن الحكم زهاء سنة. ومفاد ذلك أن أبا الحجاج يوسف الاول كان قد رشح للامر بعده ابنه اسماعيل، ثم عدل عنه فرشّح محمداً مكانه. فلما صار الامر الى محمد حجب اخاه اسماعيل في بعض القصور ومعه أمه واخوته، وكانت الام قد

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٣ و ١١٥ . ابن الخطيب، الاحاطة، ج٢، ص ١٥ . تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٧.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٣٢.

(٣) A. Gimenez Soler, La Corona de Aragon y Granada, T. II, P. 288.

(٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢٠ - الاحاطة، ج٢، ص ٢٦ . تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٠٦.

استولت على قسم من مال زوجها ابي الحجاج فوجدت السبيل الى السعي لولدها. فجعلت تواصل زيارة ابنتها زوج ابي عبدالله محمد بن اسماعيل ابن عم السلطان، وتحرضه على التوسط لخلع الغني بالله وتمليك ولدها. وكان محمد ابن اسماعيل قد اقصي عن تدبير المملكة ليحل مكانه الحاجب رضوان والوزير ابن الخطيب، فأمضّه الاقصاء. لذلك جمع عدداً من اتباعه اغتنموا غياب السلطان عن الحمراء ونزوله جنّة العريف المجاور، فتسلقوا أسوار القصر ليلاً وقتلوا الحرس واقتحموا الغرف وسط الصياح وأصوات الطبول، وقتلوا الحاجب رضوان وانتهبوا ما عنده، ثم أخرجوا الامير اسماعيل واعلنوا بيعته. فبلغت أصواتهم السلطان فراعه ذلك وهمّ بدخول الحمراء فألفاها محتلة، فرجع ادراجه وركب جواده وصبّح مدينة وادي آش حيث التف حوله أهلها فأقام بينهم. أمّا ابن الخطيب، الوزير، فقد اعتقل وكبست دوره وانتهبت. ولما بلغ الخبر الى سلطان المغرب ابي سالم المريني غضب لخلع السلطان وقتل حاجبه، فأرسل يطلب الى اسماعيل المتغلب على غرناطة أن يسمح لاخيه المخلوع بالانتقال الى المغرب وأن يطلق سراح ابن الخطيب ليلتحق به. فكان له ما أراد وانتقل ابن الاحمر الى فاس وراح ينتظر الفرصة لاسترجاع عرشه المسلوب[1].

اسماعيل الثاني: (٧٦٠ هـ/١٣٥٩ - ١٣٦٠م)

دام حكمه أقل من سنة، «كان فتى وسيماً بديناً على حداثة سنه، خنثا لمجاورة النساء، منحطاً في درك اللذة»[2]. لم يحسن سياسة الرعيّة لانغماسه في اللذة وتقريب أهل الترف، لذلك استضعفه صهره محمد بن اسماعيل فقتله واستولى على الملك[3].

---

(١) المصادر نفسها، والصفحات نفسها. . المقّري، نفح الطيب، ج٥، ص ٨٤ و ٩٥.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨ . يمكن ان نطلق على محمد بن اسماعيل اسم محمد السادس، ذلك أنه تسلم الحكم عملياً وعرف بصاحب الحمراء.

محمد الخامس: امارته الثانية (٧٦٢ - ٧٩٤ هـ/١٣٦١ - ١٣٩٢م)

كان الغني بالله يؤدي الجزية الى حليفه ملك قشتالة فقطعها محمد بن اسماعيل[١]، فجهز الملك جيشاً لمحاربته ولكنه هزم وانتصر صاحب غرناطة[٢]. فاشتد غضب بطرس الاول واتصل بالغني بالله يدعوه الى دخول الاندلس ووعده بالمساعدة، فعبر ابن الاحمر ونزل مدينة رندة، ثم احتل مالقة وجعل وجهته غرناطة بعدما كثر اتباعه وتساقطت أمامه الحصون. فجزع محمد ابن اسماعيل المتغلب على غرناطة وفرّ لاجئاً الى بطرس الاول بالذات الذي قتله. ودخل السلطان غرناطة واستعاد سابق عزه[٣].

وتجدر الاشارة الى تجدد الحرب (٧٦٤ هـ/١٣٦٣م) بين بطرس الاول ملك قشتالة وبطرس الرابع ملك أراغون الذي وقف الى جانب «هنري تْرَانْسْتَمَار» أحد المطالبين بعرش قشتالة. فاستنجد بطرس الاول ببريطانيا بينما حاول بطرس الرابع التقرب من أبي زيان محمد المريني ومن محمد الخامس، لكن هذين الاخيرين فضّلا المحافظة على صداقتهما مع ملك قشتالة، وقد أرسل ابن الاحمر خمسماية فارس بقيادة فرج بن رضوان، ابن الحاجب رضوان، لمساندة بطرس الاول. لكن احوال الملك القشتالي ساءت بعد تكاثر المتحالفين عليه من الخارج والداخل، واضطر الى مغادرة البلاد واللجوء الى البرتغال، فدخل خصمه هنري قشتالة وأعلن مَلِكاً عليها باسم هنري الثاني. أمام هذا الواقع وجد محمد الخامس نفسه في موقف حرج وبلاده في وضع دقيق، فأعلن الجهاد ووصله المدد من المغرب تحسباً لاجتياح أوروبي لمملكته[٤].

---

(١) يطلق بعضهم على محمد بن اسماعيل اسم محمد السادس.

(٢) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٣٠٩ . الاحاطة، ج١، ص ٥٢٣.

(٣) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٣٠٨ و ٣٠٩. اللمحة البدرية، ص ١٢٩.

(٤) ابن الخطيب، الاحاطة، ج٢، ص ٢٣ - ٢٥.

لكن بطرس الاول استعاد نشاطه وجدد جيشه ودخل قشتالة وانتصر على هنري الثاني ودخل طليطلة. وهذا الامر حمل محمد الخامس على دخول بعض المدن المؤيدة لهنري الثاني، فاجتاح جيان ووصل الى أسوار قرطبة (٧٦٩ هـ/ ١٣٦٨) من دون أن يستطيع اقتحامها، وعاد الى غرناطة بغنائم كثيرة. وفي مطلع السنة التالية دارت معركة حاسمة بين المتخاصمين على عرش قشتالة قتل فيها بطرس الاول بسبب خيانة اتباعه. فاغتنم محمد الخامس الوضع واجتاح جملة حصون واستعاد الجزيرة الخضراء (٢٣ ذو الحجة ٧٧٠ هـ/تموز ١٣٦٩م)، وفي السنة التالية عقد هدنة طويلة الامد مع هنري الثاني. ومع بداية عام (٧٧١ هـ/١٣٧٠م) شهدت غرناطة حقبة طويلة عمّ فيها السلام والرخاء[١].

من جهة ثانية أظهر ابن الاحمر حنكة ولباقة في سياسته مع بني مرين بفضل دهاء وزيره لسان الدين بن الخطيب، ذلك الذي وقع ضحية التآمر داخل البلاط النصري وقتل في المغرب بتحريض من ابن الاحمر وتدبير من ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب. وفي عام (٧٧٤ هـ/١٣٧٢م) توفي السلطان المريني عبد العزيز تاركاً العرش بيد ولده القاصر سعيد، مما فتح باباً للصراع بين الوزراء والاوصياء على العرش، فدبت الفوضى في المملكة[٢]. اذ ذاك عمد ابن الاحمر الى تدبيرين مهمين: اولاً نزع قيادة الجند أو مشيخة الغزاة من أيدي بني عبد الحق المغاربة وجعلها في ولديه يوسف وسعيد، وبالتالي القضاء على النفوذ المغربي الطويل داخل مملكته، ثانياً الوقوف الى جانب الامير ابي العباس بن أبي سالم الذي استطاع بفضل النصريين أن يستولي على عرش بني مرين (٧٧٦ هـ/١٣٧٤م)[٣].

ان سياسة محمد الخامس تجاه الدول المجاورة امتازت ببعد النظر، مما جعل مملكة غرناطة بين الدول المؤثرة في مصائر الشعوب المغربية والاسبانية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨ - ٥٣.
(٢) تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٩.

حتى ان محمد الخامس اقام علاقات طيبة مع مماليك مصر فأرسل سفارة الى المملوك أشرف ناصر الدين (جمادى الاول ٧٦٥ هـ/شباط ١٣٦٤م) حاملة الهدايا الثمينة وعقدت اتفاقات تجارية مع الشرق الاسلامي. الا ان سياسة المماليك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين لم تكن لتهتم بمشكلات الغرب بسبب انهماكها بقضايا الشرق، خصوصاً عندما عظم خطر المغول(١).

وعندما توفي محمد الخامس (١٠ صفر ٧٩٣ هـ/١٦ كانون الثاني ١٣٩١م) كان قد وصل الى أوج عظمته، وقد ترك مملكته تنعم بالغنى والراحة والازدهار والسلام.

يوسف الثاني: (٧٩٣ - ٧٩٥ هـ/١٣٩٢ - ١٣٩٣م)

هو أبو الحجاج يوسف بن محمد الخامس، تسلم الملك بعد أبيه، وقام بأمر دولته وزيره خالد مولى أبيه، فاستبد بالامر وقتل أخوة يوسف الثلاثة سعد ومحمد ونصر. ثم سخط يوسف على وزيره بعدما نمي اليه أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه اليهودي يحيى بن الصائغ، فقتل الوزير وسجن الطبيب ثم قتله، ولم يهنأ يوسف الثاني بالملك فمات بعد حكم قصير سنة ٧٩٤ هـ/١٣٩٣م. ومن خصائص عهده حسن العلاقة مع الدول النصرانية المجاورة.

محمد السادس(٢): (٧٩٥ - ٨١٠ هـ/ ١٣٩٣ - ١٤٠٨م)

هو الغني بالله محمد بن يوسف الثاني، استطاع، بعد اقناع الفقهاء، ورؤساء القوم، أن يتسلم الحكم ويبعد أخاه يوسف الذي سجن في قلعة المنكب. جعل الشاعر ابن زمرك حاجبه، فلم يمكث ابن زمرك في الوزارة سوى ثلاثة أشهر، اذ

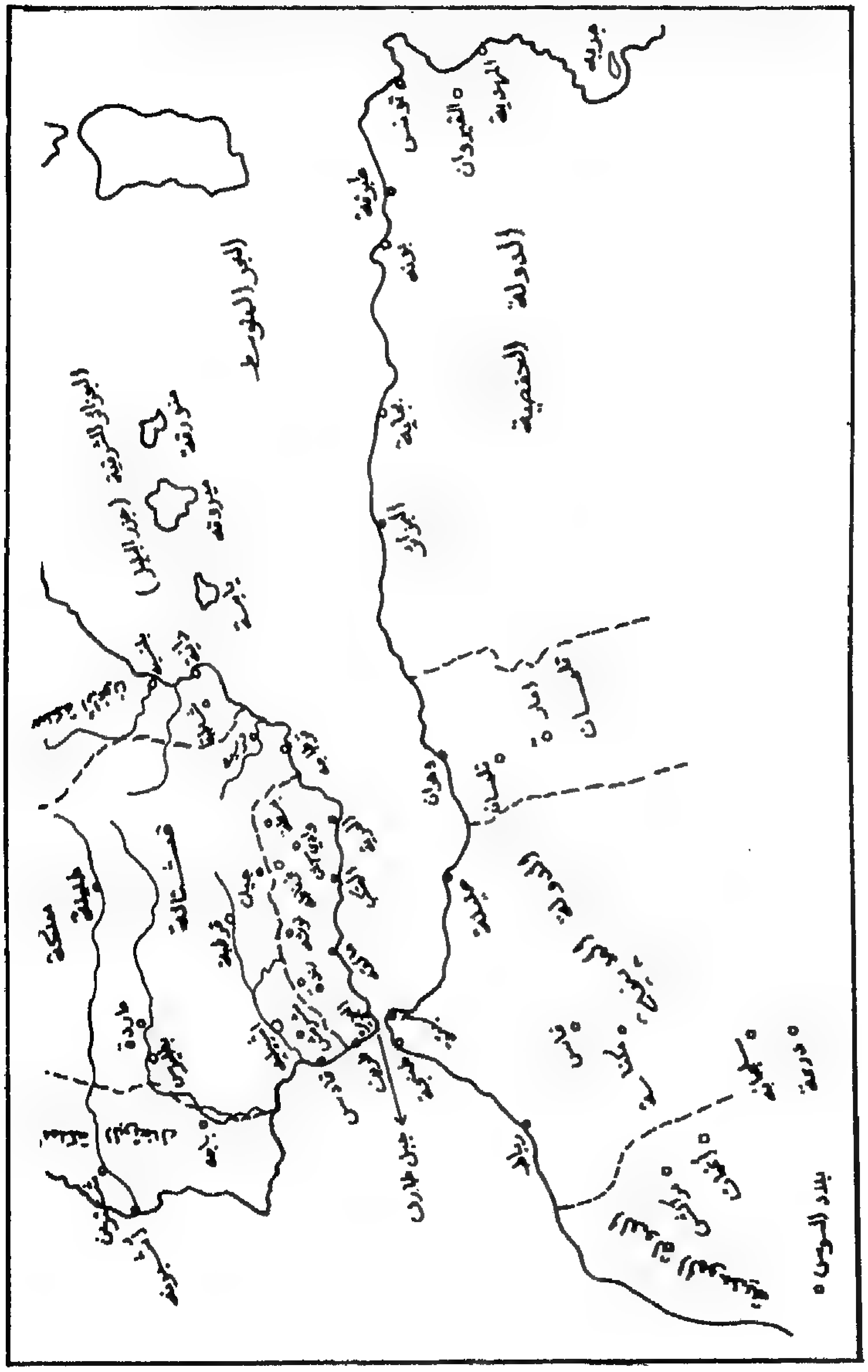
---

(١) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٣٢١ (رسالة من ابن الخطيب على لسان الغني بالله الى السلطان المنصور بن قلاوون فيها يهنئه بانتصاره على اعدائه ويخبره بانتصاره هو على الافرنج).

(٢) يمكن أن نطلق عليه اسم محمد السابع اذا اعتبرنا أن محمد بن اسماعيل هو محمد السادس.

مملكة غرناطة والدول المجاورة في الاندلس والمغرب

من عهد محمد الاول حتى عهد محمد الخامس



كان طاغية مستبداً، فدهمه جماعة من المتآمرين وقتلوه مع عياله، ثم عين ابن الاحمر وزيراً آخر هو أبو بكر محمد بن عاصم[١].

واغتنم السلطان النصري الاضطرابات داخل قشتالة فأقدم على سلسلة غزوات في ضواحي مرسيه وقرطاجة وجيان عاد منها بغنائم كثيرة وذلك في المدّة الواقعة بين عامي (٧٩٥ و ٨١٠ هـ) (١٣٩٤ و ١٤٠٨م). وقد انتهت تلك الغزوات بهدنة بين قشتالة وغرناطة[٢]. وفي ١٦ ذو الحجة عام ٨١٠ (١٣ أيار ١٣٠٨م) توفي محمد السادس وخلفه أخوه يوسف.

يوسف الثالث: (٨١٠ ـ ٨٢٠ هـ/١٤٠٨ ـ ١٤١٧م)

كان الامير يوسف سجيناً طوال حكم أخيه محمد، فأطلق سراحه بعد وفاة السلطان ودخل غرناطة في حفل فخم فاستقبله الشعب بحماسة، وكان يوسف يتمتع بخلال حسنة فعلق عليه الشعب آمالاً كبيرة.

جدد يوسف الهدنة مع القشتاليين لمدة سنتين بمسعى من وزيره عبدالله الامين، وبعد انقضاء المدة رفض القشتاليون التجديد وحاصروا مدينة «أنْتِكِيرا» شمالي غربي العاصمة. ولم تفلح مقاومة أبناء المدينة ولا الجهود التي بذلها السلطان لفك الحصار، فسقطت المدينة (٨١٢ هـ/١٤١٠م) وضمت الى قشتالة. ثم اضطر يوسف الى الخضوع لشروط القشتاليين وأصبح تابعاً لهم[٣].

بعد ذلك شهدت غرناطة عهد هدوء وسلام، ولكنها بالمقابل كانت تنحدر الى الضعف والانحلال، وقد توفي يوسف عام (٨٢٠ هـ/١٤١٧م)[٤].

---

(١) المقّري، نفح الطيب، ج٥، ص ١١٠. تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٤١. دائرة المعارف، ادارة ف.أ. البستاني، بيروت ١٩٦٠، ابن زمرك.

(٢) Revista Al-Andalus, XIII, 1948. P. 96.

(٣) Revista Al-Andalus, 1948, P. 48.

(٤) Lafuente y Alcantara, Inscripciones Arabes de Granada. Madrid, 1959, P. 41.

محمد السابع[1]: (٨٢٠ ـ ٨٥٨ هـ/١٤١٧ ـ ١٤٥٤م).

هو أبو عبدالله محمد بن يوسف الثالث، لقب بالأيسر. تسلم السلطة بعد موت أبيه وكان صارماً قاسياً بعيداً عن الاهتمام برعيته، فكان وزيره يوسف بن سراج صاحب الصلة الوحيدة مع الشعب. وقد اقترن اسم بني سراج بحوادث مملكة غرناطة، وهم في الاصل من مذحج وطيء، وفدوا الى الاندلس منذ الفتح ولم يظهروا على المسرح السياسي الا في أواخر العهود الاسلامية، وكانوا من أعظم سادة غرناطة[2]. ويبدو أن تعسف السلطان قد حمل الشعب على السخط فكثرت الفتن في عهد محمد السابع وخلع وعاد الى الحكم غير مرة. فقد غزا الافرنج بسائط وادي آش (٨٣١ هـ/١٤٢٨م) وزادت الاحوال سوءاً فعمت العاصمة ثورة عارمة وخلع الايسر، وبايع أبناء المدينة أحد ابناء عمه الامير محمد[3] الملقب بـ «الزغير» (كلمة عامية أصلها الصغير). فرحل الايسر مع أهله الى تونس ونزل عند السلطان أبي فارس الحفصي[4].

لكن أبا عبدالله «الزغير» اخفق في اخماد الفتن بسبب مخاصمة بني سراج الشديدة. وقد غادر يوسف بن سراج غرناطة تفادياً للفتنة وخوفاً من بطش الزغير وانتقل الى اشبيلية لاجئاً عند ملك قشتالة يوحنا الثاني. ثم عاد محمد السابع الايسر ونزل في ألمرية مع فرسان مغاربة وهدايا لملك قشتالة فنودي به ملكاً وانضم اليه قسم من الجند. ثم دخل غرناطة وحاصر الحمراء، فسلمها أنصار الزغير الى الايسر الذي قتل الزغير، وقد سيطر هذا الاخير على غرناطة نحواً من سنتين (٨٣١ . ٨٣٣ هـ/١٣٢٨ . ١٤٣٠م)[5].

---

(١) يمكن أن نطلق عليه اسم محمد الثامن (بناء على التسميات السابقة في الهوامش).

(٢) Revista Al-Andalus, Vol. VII, 1942, P. 283, E. G. Gomez: Los Epitafios de dos Caballeros Abencerrajes.

(٣) يمكن أن نطلق عليه اسم محمد التاسع.

(٤) Revista Alandalus, XXIV, 1959, P. 284.

(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

واهتم الايسر بتنظيم المملكة وأعاد ابن سراج الى الوزارة وطلب تجديد الهدنة مع قشتالة، فاشترط ملكها دفع الجزية والدخول في الطاعة. ورفض الايسر الشروط فكثرت غزوات القشتاليين للثغور الغرناطية مما أوقع البلاد في بلبلة جديدة. ثم انقسمت البلاد الى شيع واحزاب فبرز يوسف بن محمد بن اسماعيل ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الايسر، وقد تعهد يوسف بن محمد بن اسماعيل النصري بدفع الجزية للقشتاليين وحضور مجلس «الكُورْتيس» (الاعيان) معترفاً بتابعيته للافرنج، وذلك من أجل الحصول على دعمهم(١). وقصد يوسف غرناطة فلقيه يوسف بن سراج الذي هزم وقتل، ودخل يوسف العاصمة فأطاعته العامة والخاصة، وغادر الايسر غرناطة الى مالقة، فتسلم يوسف الملك(٢) (٨٣٩ هـ/ ١٤٣٦م). ولكنه مات بعد أقل من سنة لانه كان طاعناً في السن، فاتفقت الاحزاب على رد السلطان الايسر مرة ثالثة(٣).

وازدادت الاضطرابات يزكيها سوء الاحوال مع الافرنج، ولاذ بعض الفرسان بحماية ملك قشتالة، منهم الامير سعد بن اسماعيل وهو ابن شقيق السلطان الايسر. ثم ناصر أبناء ألمرية ابن شقيق الايسر الاخر ويدعى محمد بن الاحنف على عمه الايسر وعياله وزجهم في السجن ونادى بنفسه ملكاً، وقيل أنه قتل عمه في السجن (٨٥٨ هـ/١٤٥٤م). لكن ذلك العمل لقي معارضة الناس الذين استنجدوا بالأمير سعد على ابن عمه. فانتقل سعد الى غرناطة مع فرسان من النصارى ودارت معركة بين المتنافسين انتهت بهزيمة الاحنف وفراره، فدخل سعد المدينة وتسلم الملك(٤).

---

(١) L. Saurez Fernandez, Juan IIy la Frontera de Granada, Valladolid, 1954 PP. 39 - 42.

(٢) يمكن أن نطلق عليه اسم يوسف الرابع.

(٣) Revista Al-Andalus, XIII, 1948, PP. 497 - 500.

(٤) Revista Al-Andalus, XXVIII, 1963, PP. 331.

سعد بن اسماعيل النصري: (٨٥٨ - ٨٦٨ هـ/١٤٥٤ - ١٤٦٤م)

كان سعد عاقلاً عادلاً، عمل على توطيد الامن وتحصين قواعد البلاد، وقد أظهر طاعته لملك الافرنج يوحنا الثاني القشتالي. ولما توفي يوحنا الثاني القشتالي وخلفه هنري الرابع لم يعترف به سعد ملكاً وأبى الخضوع له. فاستأنف هنري الرابع الحرب (٨٦٠ هـ/١٤٥٦م) مع غرناطة واستولى على عدة حصون وأحرق المواسم في سهول مالقة، وفي السنة التالية عادت جيوش قشتالة وغزت المناطق المجاورة لمالقة، ولم تنسحب الا بعد ما دفع الامير سعد اثني عشر ألفا من الفضة وأطلق سراح ستماية أسير. وفي السنوات التالية تكاثرت الغزوات وانتهت بسقوط جبل طارق بيد القشتاليين (٨٦٦ هـ/١٤٦٢م) فقطعت بذلك طرق الامدادات من المغرب الى الاندلس وأمسى الغرناطيون وحدهم أمام الخطر الاسباني(١).

ثم كثرت الاضطرابات داخل المملكة عندما حاول السلطان سعد التخلص من نفوذ بني سراج، فعمد الى قتل بعض زعمائهم بينهم وزيره مفرج (٨٦٦ هـ/١٤٦٢م). فهرب محمد وعلي من بني سراج الى مالقة وبايعا أميرها يوسف النصري الذي أعلن استقلاله في مالقة وزحف الى غرناطة. ثم مات يوسف النصري (٨٦٨ هـ/١٤٦٤م) فارتاح سعد ولكن الى حين، ذلك ان بني سراج اتصلوا بأبي الحسن علي بن سعد ودعوه الى تسلم الملك. فثار ابو الحسن على أبيه وخلعه وسجنه. وقد توفي السلطان سعد في سجنه (٨٦٨ هـ/١٤٦٤م)(٢).

نهاية الدولة النصرية

نحاول في الصفحات التالية اختصار الاحداث التي أدت الى سقوط غرناطة في يد الاسبان، والى نهاية سلطان العرب في الاندلس، معتمدين في ذلك كتاب «نفح الطيب» للمقري وبعض المراجع التاريخية الاسبانية.

---

(١) Revista Al-Andalus, T. I, 1933, P. 324.

(٢) Revista Al-Andalus, XXII, 1957, P. 21. Revista Al-Andalus, XXIV, 1959, P. 275.

أبو الحسن علي: (٨٦٨ - ٨٨٧ هـ/١٤٦٤ - ١٤٨٢م)

هو أبو الحسن علي بن سعد بن اسماعيل النصري، ويعرف باسم مولاي حسن. وصله الملك في وقت كانت فيه البلاد تغلي بالاضطرابات وتتناهشها الشيع والاحزاب[١]، مع كثرة الطامعين في العرش، وفي الخارج عدو متربص يتبع سياسة القضم والهضم. وكان أبو الحسن شجاعاً حازماً، عمد في مطلع عهده الى تحصين البلاد وترميم الجيش وتنظيم الدولة، فعم الازدهار وكثر الخير وبخست الاسعار وتأمنت السبل واطمأن الناس[٢].

وكان ابو الحسن قد تزوج من عائشة ابنة عمه السلطان ابي عبدالله الايسر وتعرف باسم عائشة الحرة، فانجب منها ولدين هما أبو عبدالله وأبو الحجاج يوسف. وعندما تقدمت به السن تزوج من جارية اسبانية هي «ايزابيلا سُولِيس» وتعرف باسم ثريا الرومية. فتغيرت نفسية السلطان وغدا ميالاً الى اللذات وأداة طيعة في يد زوجته الرومية الفتية التي كانت كثيرة الدهاء والاطماع. وأرادت ان يكون ولدها يحيى ولي العهد، وما زالت بأبي الحسن حتى أقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية، ثم اعتقلهم في برج قمارش بالحمراء وتشدد في مراقبتهم والقسوة عليهم. فانقسم الناس بين مؤيد للحرة ومؤيد للحظية، واشتد السخط على أبي الحسن وحظيته التي اصبحت سيدة الحمراء الحقيقية. ولما استعانت عائشة ببني سراج لتدبير وسائل الفرار دبّر ابو الحسن اهلاكهم فقتل عدداً من زعمائهم. وقد استطاعت عائشة الفرار واختفت مدة مع ولديها، ثم ظهر أبو عبدالله في وادي آش[٣].

وتجدر الاشارة الى ان أبا الحسن حاول تجديد الهدنة مع الافرنج، ففرض القشتاليون لذلك شروطاً قاسية رفضها ابن الاحمر، وفتح الباب أمام المناوشات

---

(١) المقّري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥١٢ و ٥١٤.

المتبادلة، فقام أبو الحسن بعدة غزوات عاد منها بغنائم وفيرة. ففي عام (٨٧٥ هـ/١٣١٧م) زحف ابو الحسن الى قلعة الصخرة الحصينة واستولى عليها وقتل من فيها، وقد اعتبر بعض العقلاء هذا التصرف عملاً لا مبرر له وتوجسوا شر العواقب، وفي ذلك يقول احد الشيوخ: ويل لنا فلسوف تسقط انقاض الصخرة فوق رؤوسنا. وبعد سنوات قليلة (٨٨١ هـ/١٤٧٧م) دخل ابن الاحمر منطقة مرسية وأحرق المواسم وهدم القلاع. وفي شتاء عام (٨٨٥ هـ/١٤١٨١م) اقتحم الغرناطيون، بقيادة ابراهيم الحكيم، قلعة «الزهرة» والقرى المجاورة وعادوا الى رندة غانمين[1].

أما القشتاليون فكانوا بدورهم يقومون بغارات على القرى والحصون الحدودية. وفي عام (٨٨٧ هـ/شباط ١٤٨٢م) فاجأ القشتاليون قلعة الحامة (أو الحمّة) المنيعة واقتحموها ثم دخلوا المدينة وأحرقوها بعد معركة هائلة في الشوارع وداخل المنازل. وقد حاول أبو الحسن استرجاعها غير مرة فأخفق، والمعروف أن قلعة الحامة كانت تشرف على الطرقات بين غرناطة ومالقة ورندة، وعدّ سقوطها خسارة كبرى[2].

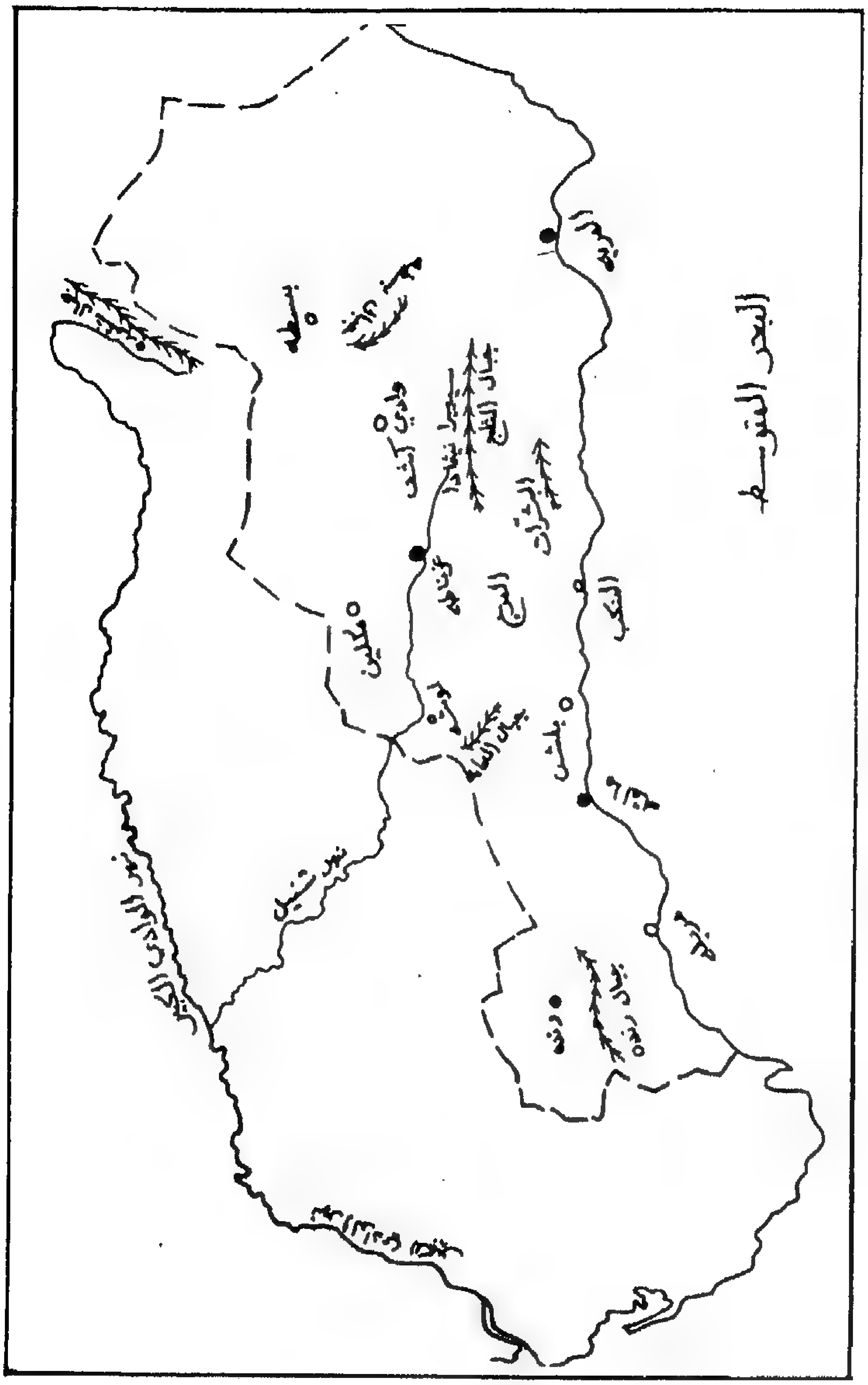
وفي السنة نفسها (٢٧ جمادي الاول ٨٨٧ هـ/١٤ تموز ١٤٨٢م) تحول القشتاليون الى «لوشه»، لكن قائد الحامية، علي العطار، كبّد الافرنج خسائر فادحة فتركوا في ساحة المعركة اعتدتهم وفروا الى قرطبة[3].

ومن اجل تغطية النفقات المتكاثرة بسبب حالة الحرب التي كانت تعيشها المملكة عمد أبو الحسن الى فرض ضرائب جديدة مما أثار غضب العامة. فعمت الفوضى العاصمة خصوصاً في حي البيازين، واغتنم الناس غياب السلطان ليعلنوا بيعتهم لابي عبدالله بتحريض بني سراج. فدخل ابو عبدالله غرناطة

(١) Al-Andalus, XI, 1946, P. 120.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١٣.

(٣) A. de la Torre, Los Reyes Catolicos y Granada, Madrid, 1949. P. 34.



مملكة غرناطة بعد سنة 1481 م . (886 هـ)

مملكة غرناطة بعد سنة ١٤٨١م. (٨٨٦هـ)

وتسلم الحكم. وفر ابو الحسن الى مالقة حيث الزغل (٨٨٧ هـ/١٤٨٢م). وقد أحاط السلطان الجديد نفسه بعدد من الثقات منهم يوسف بن عبد البر زعيم بني سراج ويوسف بن قماشة[١].

أبو عبدالله محمد: (٨٨٧ - ٨٨٨ هـ/١٤٨٢ - ١٤٨٣م)

بعد استيلاء ابن الحرة أبي عبدالله على غرناطة ارتد القشتاليون الى مالقة وحاولوا محاصرتها بعدما اجتاحوا القرى المجاورة، لكن الزغل أرسل لملاقاتهم عدداً من فرسان مالقة وهزم القشتاليين (١١ صفر ٨٨٨ هـ/٢١ اذار ١٤٨٣م) وأسر منهم خلقاً كثيراً. اذ ذاك أراد أبو عبدالله أن يجني نصراً على غرار ما فعل عمه الزغل، فقام في الشهر الثاني باجتياح عدة حصون وحاصر مدينة «لوسينا». فنشبت معركة هائلة قتل فيها من الغرناطيين عدد كبير بينهم علي العطار القائد المشهور. وانتهت المعركة بأسر أبي عبدالله فعاد الجيش الى غرناطة بدون ملكه[٢]. وقد رفض القشتاليون اطلاق سراح أبي عبدالله برغم توسلات والده أبي الحسن وأمه عائشة[٣].

أبو الحسن علي، امارته الثانية: (٨٨٨ - ٨٩٠ هـ/١٤٨٣ - ١٤٨٥م)

بعد وقوع ابن الحرة ابي عبدالله الصغير[٤] في الاسر، قرر كبار غرناطة وقادتها استدعاء والده أبي الحسن المخلوع الذي تسلم السلطة مجدداً[٥]. وتابع القشتاليون غزواتهم فدخلوا مدينة رندة صلحاً (٨٩٠ هـ/١٤٨٥م) وانتقل

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١٥.

(٣) A. De la Torre, Los Reyes Catolicos y Granada, P 156.

(٤) لقب الصغير تمييزاً له عن عمه ابي عبدالله الزغل، كما لقب بالزغيبي اي المنكود الحظ.

(٥) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥١٥.

أهلها الى غرناطة. وكان السلطان أبو الحسن قد اصبح شيخاً فانياً ضريراً، فتنازل عن العرش لاخيه محمد أبي عبدالله الزغل، وانتقل الى المنكب حيث توفي (٨٩٠ هـ/١٤٨٥م)[١].

أبو عبدالله الزغل: (٨٩٠ - ٨٩٢ هـ/١٤٨٥ - ١٤٨٧م)

كان الزغل قليل الخبرة فلم يحسن تدبير مملكته. ثم اندلعت الفتنة داخل العاصمة وثار أهل «البيازين» على الزغل، فأطلق فرديناندو ملك قشتالة أبا عبدالله الذي انتقل الى العاصمة وجمع حوله الانصار. وعمت المدينة حربٌ أهلية (١٦ شوال ٨٩١ هـ/١٤ تشرين الاول ١٤٨٦م) واستمرت حتى ٥ جمادى الاولى ٨٩٢ (٢٩ نيسان ١٤٨٧م) انتهت بانتصار ابي عبدالله الصغير. وكان الزغل قد قاد قسماً من رجاله الى مالقة للدفاع عنها بعدما بلغه ان فرديناندو قد تحول اليها، ثم انتقل الزغل الى وادي آش فانقسمت المملكة من جديد الى شطرين[٢].

أبو عبدالله محمد: امارته الثانية (٧٨٢ - ٨٩٧ هـ/١٤٨٧ - ١٤٩١م)

للمرة الثانية تبوأ ابو عبدالله عرش غرناطة فحكم قسماً من المملكة يشمل الانحاء الشمالية والغربية باسم ملك قشتالة وتحت حمايته، والقسم الاخر كان تحت سلطة عمه محمد بن سعد الزغل ويشمل الانحاء الشرقية والجنوبية. في هذا الوقت (٨٩٢ هـ/١٤٨٧م) حاصر القشتاليون مدينة «بَلّش»، ولما وجد قائدها أبو القاسم بنيغش ان لا طاقة له على المقاومة قبل بتسليم المدينة فدخلها الافرنج صلحاً ورحل سكانها الى افريقيا وغرناطة. كما حاصر الاسبان مدينة «لوشه» فسقطت بأيديهم في ٢٦ جمادى الاول سنة (٨٩١ هـ/٣٠ أيار

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١٩ و ٥٢٠.

١٤٨٦م) فرحل سكانها الى غرناطة. ثم طوق القشتاليون مدينة مالقة بحراً وبراً وامتنع المسلمون داخل مدينتهم بقيادة حامد الثغري، ذلك أن صاحبها الزغل كان في وادي آش، فاستنجد بملوك المغرب وسلطان مصر الاشرف قايتباي ولم يلق العون. وطال الحصار ثلاثة أشهر ووقعت معارك هائلة، ثم نفد الطعام فأكل ابناء المدينة الجلود وأوراق الشجر. ولما حلّ بهم التعب وانتشر الجوع والمرض استسلم المالقيون ودخل القشتاليون مدينتهم فاسترقوا ابناءها ثم سمحوا لهم بالرحيل الى المغرب (٨٩٢ هـ/١٤٨٧م)(١).

وقد اهتمت الدول الاسلامية بأحداث الاندلس وخصوصاً سلطان المماليك في مصر أشرف سيف الدين قايتباي الذي وجّه سفارات الى الممالك الاوروبية يطالب فيها بالكف عن مسلمي الاندلس ومهدداً بالانتقام من مسيحيي الشرق، ويبدو أن الاسبان لم يكترثوا للتهديد(٢).

وفي خريف السنة نفسها دخل القشتاليون مدينة «بسطة» صلحاً، ثم حاصروا ألمرية. فعمد قائدها يحيى النجار الى مفاوضة المحاصرين وسلمهم المدينة (آخر ٨٩٢ هـ/١٤٨٧م). وعندما وصل الامر الى هذا الحد أسرع الزغل الى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة الذي دخل مدينة وادي آش (٨٩٣ هـ/ ١٨٩٠م)، ثم تنازل الزغل للاسبان عن كل شيء لقاء مبلغ من المال وجاز البحر الى المغرب وقضى عمره في تلمسان(٣).

بعد سقوط الحصون والمدن الاندلسية بيد الاسبان لم يبق سوى غرناطة(٤). فأرسل الاسبان الى السلطان أبي عبدالله يطلبون اليه تسليم عاصمته وفقاً لشروط

---

(١) حول انقسام المملكة وسقوط مدن بلش ولوشه ومالقة والحصون المجاورة لها، راجع: المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٥٢٣ . ٥٢٩- A. de la Torre, Los Reyes Catolicos y Granada, PP. 181 - 201.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ٧٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ٥٢٢.

(٤) حول حصار غرناطة، راجع: نفح الطيب، ج٤، ص ٥٢٣ . ٥٢٩.

معينة، فجمع أبو عبدالله الاعيان والقادة واجمعوا على الرفض. وفي ربيع عام (٨٩٧ هـ/نيسان ١٤٩١م) حاصر فرديناندو غرناطة، ثم أنشأ المحاصرون بأمر من الملكة ايزابيلا، مخيماً تحوّل الى مدينة أسموها «سانتافي» أي «الايمان المقدس». وقد خرج المحاصرون غير مرة لقتال الاسبان وافساد خططهم والاستيلاء على الماشية والحبوب، ومن الابطال العرب الذين اشتهروا في عملية الدفاع آل الثغرى والمدعو موسى بن غسان، وقد نسجت حول بطولات موسى أخبار بلغ بعضها حد الاساطير.

دام الحصار سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون وفشلت محاولات الاقتحام المتكررة. ومع بداية شهر محرم من عام (٨٩٧ هـ/أواخر ١٤٩١م) كانت وسائل الاتصال بالخارج قد امست مستحيلة[1]، فعم اليأس وانتشر الجوع والمرض. فاجتمع اعيان القوم واتفقوا على تسليم المدينة، ما عدا القائد موسى الذي رفض القرار وخرج من الاجتماع مغضبا واختفى أثره. ثم أرسل الوزير ابو القاسم عبد الملك للمفاوضة وتم التوقيع على معاهدة التسليم في الخامس والعشرين من كانون الاول (٨٩٧ هـ/١٤٩١م)، اي يوم عيد الميلاد[2]. أما شروط التسليم فوردت في وثيقة مشهورة وأهم ما جاء فيها:

. توقف القتال سبعين يوماً يتم بعدها تسليم غرناطة اذا لم تصل الامدادات من الخارج.

- اطلاق الاسرى المسلمين في قشتالة.
- تأمين المسلمين على انفسهم وأموالهم واعراضهم.
- احتفاظ المسلمين بشريعتهم وقضائهم ونظمهم باشراف حاكم نصراني.

---

(١) كانت المؤن تصل الى غرناطة من منطقة البشرات الجبلية وهي المنطقة التي بقيت مدة طويلة خارج سيطرة الاسبان بعد سقوط غرناطة.

(٢) حول كيفية استسلام غرناطة والشروط ونهاية ابي عبدالله، راجع مجلة «الاندلس»: Revista Al-Andalus, XX, 1955 PP. 283 - 344.

– ان لا يقضي فيما بينهم سوى قضاتهم، واذا وقع النزاع بين مسلم ونصراني تحكم في الامر محكمة مختلطة.

– تأمين حرية الدين والشعائر والحفاظ على المساجد والاوقاف.

– أن لا يدخل نصراني في مسجد أو دار مسلم.

– أن يسير المسلم في ديار النصارى آمناً لا يحمل علامة مميزة.

ألا يدفعوا ضرائب غير التي يدفعها النصارى.

– أن يجتاز الى افريقيا من يشاء من المسلمين في سفن ملك النصارى، لمدة ثلاث سنوات من دون مقابل.

– أن لا يقهر مسلم أو مسلمة على التنصر.

– أن يعامل الحاكم النصراني المسلمين بالرفق والعدل.

– أن يوافق البابا على الوثيقة.

أمّا الملك أبو عبدالله فقد اتفق أن يغادر المدينة الى منطقة البشرات حيث يُعطى ضياعاً يعيش من مدخولها ويكون في طاعة ملك قشتالة، كما اتفق ان تقدم غرناطة خمسماية من أعيانها ضمانة للاخلاص والطاعة. وقد أقسم الملكان فرديناندو وايزابيلا على الوثيقة من أجل أن يطمئن المسلمون ويثقوا بصدق القشتاليين. ولكن تلك العهود نقضت فيما بعد كما هو معروف.

ولم ينتظر ابو عبدالله انقضاء المدة للتسليم، ففتحت المدينة ابوابها فجر الثاني من كانون الثاني (٨٩٨ هـ/١٤٩٢م)، فدخل نفر من القادة القشتاليين وتسلموا مفتاح المدينة من أبي عبدالله في برج قمارش من الحمراء. وفي الصباح دخل الجند غرناطة من باب المطاحن يقود طليعتها الكونت «دي تَنْدِيلا» الذي عين فيما بعد حاكماً لغرناطة ورفعوا فوق برج الحمراء المسمى برج المراقبة صليباً فضياً كبيراً وبقربه علم قشتالة وعلم القديس ياقوب (يعقوب)، ثم دخل فرديناندو وازابيلا الحمراء ظافرين.

في اليوم نفسه غادر أبو عبدالله قصره ومعه أهله وبعض أصحابه واتجه نحو منطقة البشرات. وتقول الرواية أن أبا عبدالله توقف في تل البذول (بادول) المشرف على غرناطة والحمراء وراح يسرح بصره لاخر مرة، ثم انهمر دمعه وأجهش بالبكاء، فقالت له أمه عائشة: «ابك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال»[1]، فسميت تلك التلة باسم «زفرة العربي الاخيرة»[2].

بعد مضي أشهر قليلة على اقامته في مقره الجديد ادرك ابو عبدالله أن تلك الحياة الذليلة لا تليق به، فعوّل على الرحيل. فتنازل عن حقوقه مقابل ثمانين ألف ذهبية وغادر الاندلس الى افريقيا واستقر في مدينة فاس[3]، وتوفي بعد أربعين سنة.

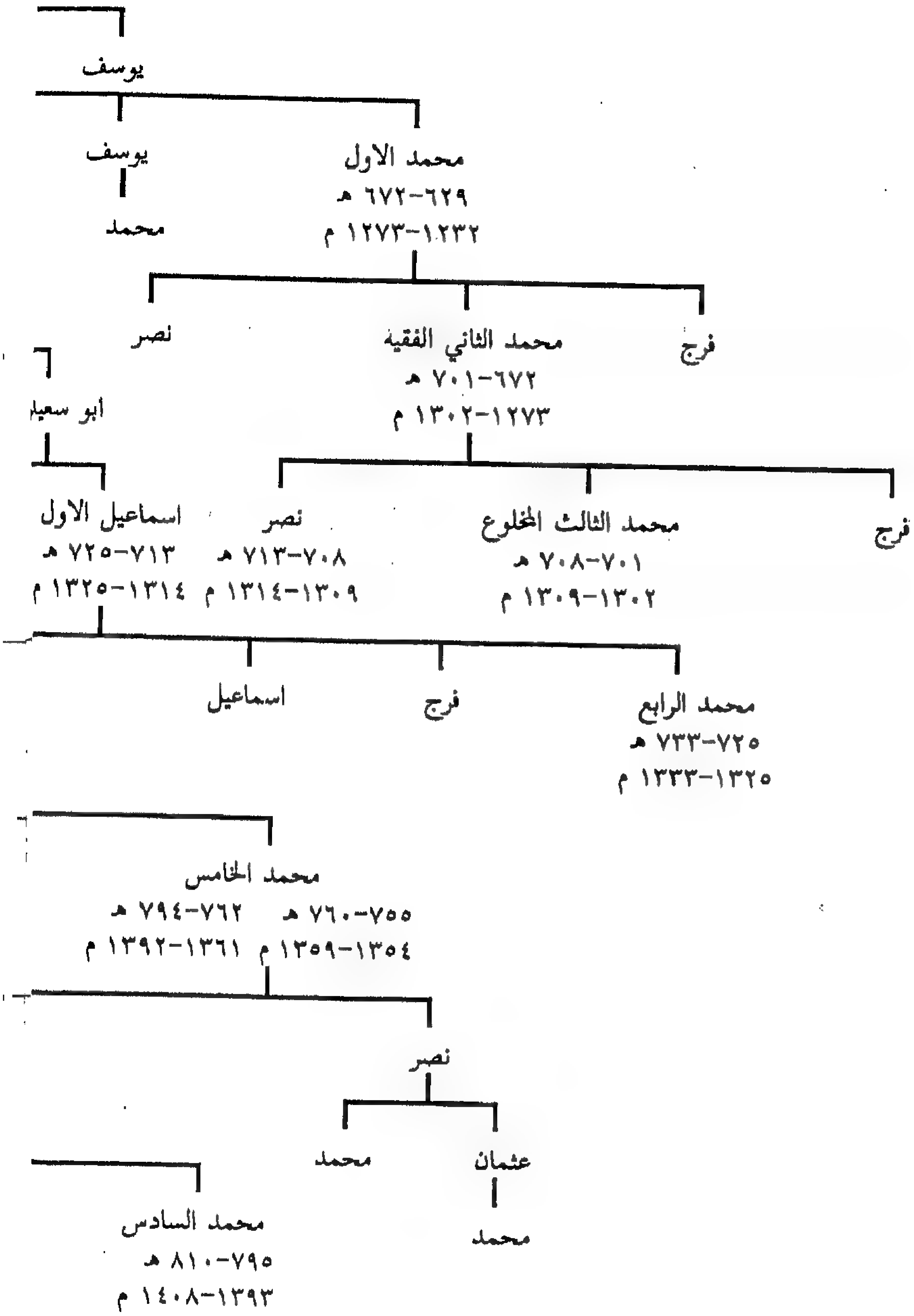
---

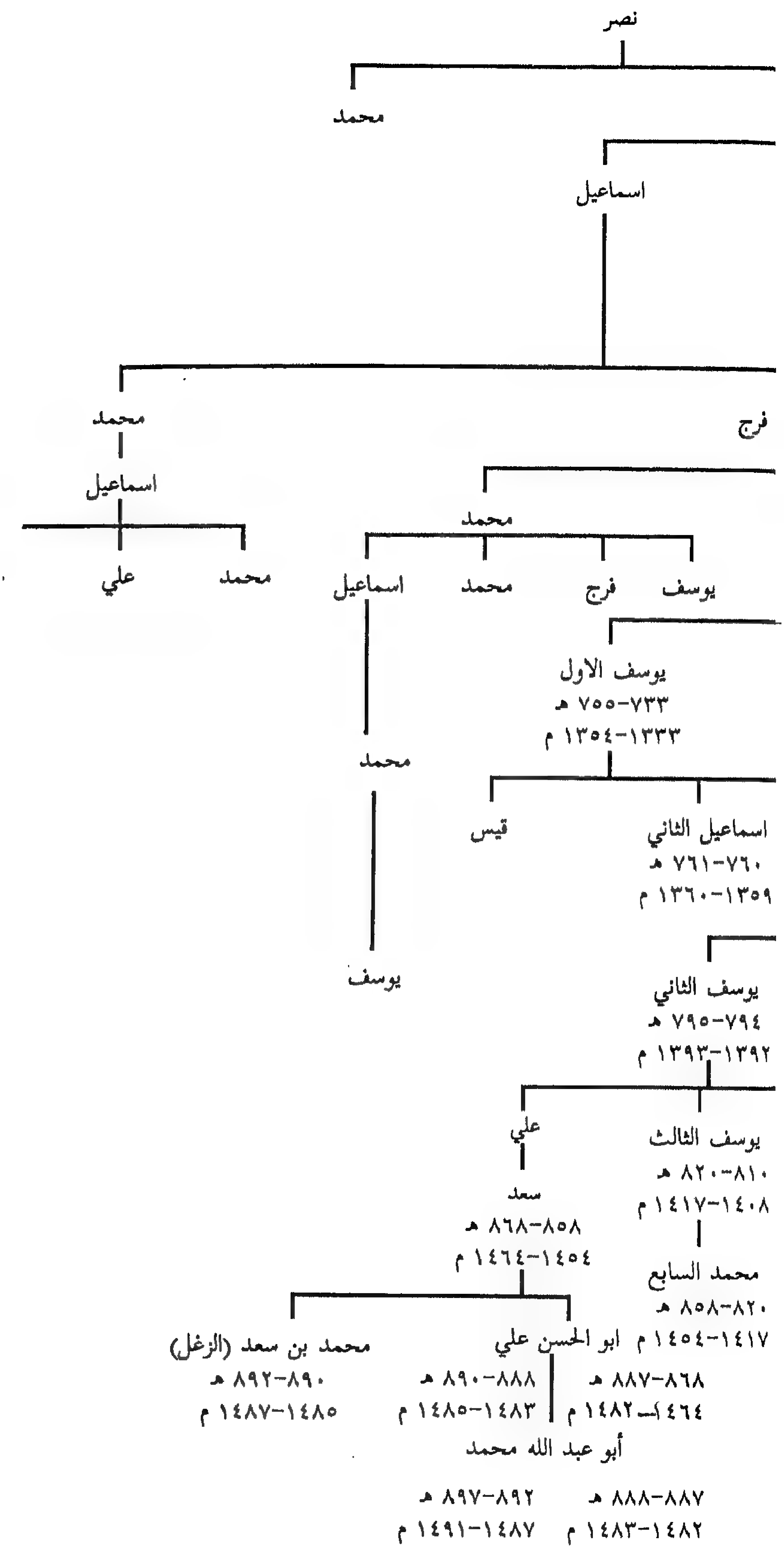
(١) ورد هذا القول في بعض المصادر على شكل بيت شعري:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

(٢) El Ultimo Suspiro Del Moro.

(٣) المقري، نفح الطيب، ص ٥٢٩.


يوسف
يوسف
محمد
محمد الاول
٦٢٩-٦٧٢ هـ
١٢٣٢-١٢٧٣ م
نصر
محمد الثاني الفقيه
٦٧٢-٧٠١ هـ
١٢٧٣-١٣٠٢ م
فرج
ابو سعيد
اسماعيل الاول
٧١٣-٧٢٥ هـ
١٣١٤-١٣٢٥ م
نصر
٧٠٨-٧١٣ هـ
١٣٠٩-١٣١٤ م
محمد الثالث المخلوع
٧٠١-٧٠٨ هـ
١٣٠٢-١٣٠٩ م
فرج
اسماعيل
فرج
محمد الرابع
٧٢٥-٧٣٣ هـ
١٣٢٥-١٣٣٣ م
محمد الخامس
٧٥٥-٧٦٠ هـ
١٣٥٤-١٣٥٩ م
٧٦٢-٧٩٤ هـ
١٣٦١-١٣٩٢ م
نصر
محمد
عثمان
محمد
محمد السادس
٧٩٥-٨١٠ هـ
١٣٩٣-١٤٠٨ م


نصر
محمد
اسماعيل
فرج
محمد
اسماعيل
محمد
علي
محمد
يوسف
فرج
محمد
اسماعيل
يوسف الاول
٧٣٣-٧٥٥ هـ
١٣٣٣-١٣٥٤ م
محمد
اسماعيل الثاني
٧٦٠-٧٦١ هـ
١٣٥٩-١٣٦٠ م
قيس
يوسف
يوسف الثاني
٧٩٤-٧٩٥ هـ
١٣٩٢-١٣٩٣ م
يوسف الثالث
٨١٠-٨٢٠ هـ
١٤٠٨-١٤١٧ م
علي
محمد السابع
٨٢٠-٨٥٨ هـ
١٤١٧-١٤٥٤ م
سعد
٨٥٨-٨٦٨ هـ
١٤٥٤-١٤٦٤ م
ابو الحسن علي
٨٦٨-٨٨٧ هـ
١٤٦٤-١٤٨٢ م
٨٨٨-٨٩٠ هـ
١٤٨٣-١٤٨٥ م
محمد بن سعد (الزغل)
٨٩٠-٨٩٢ هـ
١٤٨٥-١٤٨٧ م
أبو عبد الله محمد
٨٨٧-٨٨٨ هـ
١٤٨٢-١٤٨٣ م
٨٩٢-٨٩٧ هـ
١٤٨٧-١٤٩١ م

الفصل الثاني

المؤسسات النصرية

بعد العرض الذي تناولنا فيه كيفية قيام الدولة النصرية، والملوك الذين تعاقبوا على السلطة، يجدر بنا التعرف الى نوع الحكم الذي كان سائداً والنظام الذي كان متبعاً، مع التوقف عند المؤسسات المهمة التي كانت تشكل النظام النصري.

١ ـ السلطة العليا (الملك):

كانت الدولة النصرية مملكة اسلامية مستقلة، حكمها سلاطين بني الاحمر بالوراثة، وقد اعطاهم المؤرخون صفات بدوية تذكرنا بأسياد القبائل العربية[١]. وكان همّ محمد الاول أن يثبت دعائم ملكه وأن يقنع أبناء رعيته والشعوب الاسلامية القريبة والبعيدة بشرعية سلطانه، لذلك اعلن ولاءه لخليفة بغداد، ثم لملوك بلاد العدوة (المغرب). ومن اجل ابعاد الخطر الاكبر صادق ملك قشتالة فكانت ضريبة الصداقة باهظة اذ اضطر الى اعلان الخضوع والتبعية ودفع الجزية. وقد سار السلاطين اللاحقون على السنة التي اتبعها مؤسس الدولة.

ويبدو أن ملوك بني الاحمر ظلوا أمناء على التقاليد الشرقية التي كانت لدى أمراء المؤمنين في دمشق وبغداد، فكانوا يأخذون بمبدأ الحكم المطلق، كما أن السلطان كان المرجع الاخير في سن القوانين المستمدة، في الغالب، من الدين. وقد اكتفى حكام الحمراء بحمل اسم «أمير المسلمين» بدل أمير المؤمنين، وقلدوا الاسلاف في اتخاذ الالقاب المقدسة التي يدل ظاهرها على التمسك

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٣.

بأهداب الشريعة، كالغالب بالله، والغني بالله والمستعين بالله، والمؤيد بالله، والمستغني بالله، مع العلم أن القاباً أخرى غلبت على بعضهم كالمخلوع، والزغل، والزُغَيْبي. والطريف في أمر تلك الالقاب أنها كانت تتوافق مع ألقاب ملوك النصارى، فكلمات الغالب والمجاهد والمبارك والعادل قابلها عند الافرنج القاب مماثلة كفرديناندو القديس، والفونسو الحكيم، وخايمي الغازي.

والحكم المطلق لم يكن يعني دائماً استبداد الملوك وتفردهم في ادارة شؤون المملكة. فالسلطان كان له حاشية قوامها النافذون من ابناء البيت المالك، ومن القادة وزعماء الاقاليم، ونخبة من الفقهاء والقضاة والعلماء والادباء، يؤلفون جميعاً الهيئة التي يستعين الامير بآراء أفرادها ويستنير بتوجيهاتهم.

واذا كان ملوك غرناطة يباشرون الامور بأنفسهم، فانه قد مرت فترات استبدّ فيها الوزراء بالسلطة. ففي عهد محمد الثالث الملقب بالمخلوع استبد بالحكم وزيره أبو عبدالله بن الحكيم، والامر نفسه وقع لمحمد الرابع الذي استأثر بالحكم في أيامه وزيره ابن المحروق، وكذلك الحال بالنسبة الى السلطان يوسف الاول الذي نكب وزيره الحاجب أبا النعيم رضوان لانه استبد بالامر، فسجنه ثم عفا عنه واعاده الى منصبه[1]...

قلنا إن صاحب الحمراء حمل لقب أمير المسلمين، وهذا يعني تمتعه بسلطة روحية وزمنية. فقد كان اماماً يترأس الصلاة في الاعياد الدينية. فيوسف الاول كان خارجاً من الصلاة التي ترأسها عندما اغتاله احد الممرورين.

وتجدر الاشارة الى ان السلطان لم يكن بعيداً عن الرعية، بل كان بصورة عامة على اتصال مباشر بالشعب، فمحمد الاول خصّ يومين من الاسبوع لاستقبال الناس والاستماع الى شكاواهم[2]، كما ان يوسف الاول جعل من باب العدل مكاناً يلتقي فيه مع عامة الناس.

---

(١) عرضنا لعلاقة بعض الوزراء بملوكهم في الحديث عن حياة سلاطين بني الاحمر.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٤.

ومن اهتمامات الملك عقد جلسات خاصة لدرس مشكلات المملكة وتوزيع الاعمال والمسؤوليات على الحاشية، الى جانب استقبال السفراء في غرفة العرش. كما ان بعض الملوك اشترك بالحروب من مثل محمد الاول ويوسف الاول وأبي عبدالله.

وفي مجال الحديث عن السلطان لا بد من التوقف عند قضية المبايعة أو «البيعة»، مع العلم ان المصادر لم تعرها الاهتمام الكافي. فابن الخطيب يخبرنا في «الاحاطة» أن أبناء أرجونة اجتمعوا في المسجد وأعلنوا بيعتهم للشيخ محمد بن يوسف (٢٦ رمضان ٦٢٩ هـ/١٦ ايلول ١٢٣٢م)[١]. وبعد أربع سنوات اجتمع ابناء غرناطة في المسجد وبايعوا محمد بن الاحمر الذي دخل فيما بعد المسجد واتجه نحو المحراب وشارك في الصلاة[٢]، ومن ثم توجه الى قصر باديس. وبعد مقتل يوسف الاول تسلم ابنه الحكم ثم وصلته مبايعة الخاصة، وفي كتاب «الاعلام» يروي لنا ابن الخطيب كيف تمت مبايعة العامة لمحمد الخامس، فقد أمسك ابن الخطيب بيده وقدّمه كوريث شرعي أمام الجماهير المحتشدة[٣]. أما ابن خلدون فيضيف في «المقدمة» بأن اعيان البلاد كانوا، اظهارا لطاعة الحاكم الجديد، يقصدون بابه ويخضعون أمامه ويقبلون يده[٤]. مما تقدم يتبين أن مسألة «البيعة» لم تكن خاضعة لتقليد ثابت، وانما كانت تتخذ اشكالاً متنوعة تبعاً للظروف التي كان يتسلم فيها السلطان الحكم.

وتجدر الاشارة الى أن ولاية العهد لم تكن، هي أيضاً، قائمة على أسس معينة. فقد يدعى ولد صغير لتسلم الملك: فمحمد الرابع كان عمره عشر سنوات[٥]، ويوسف الاول كان دون العشرين[٦]. ومن ناحية ثانية نعلم ان محمد

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج٢، ص ٩٣ و ٩٤.
(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٦.
(٣) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٣٠٦.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٩.
(٥) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٠.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٢. «تولّى الملك وسنّه اذ ذاك خمسة عشر عاماً».

الاول عين ابنه البكر لولاية العهد قبل وفاته بوقت طويل(١)، وان يوسف الاول عين ابنه الثاني اسماعيل بتأثير من احدى الجواري، وكان اسماعيل اذ ذاك ما يزال صبياً(٢).

ولم يكن لملوك بني الاحمر مكان واحد يدفنون فيه، فمؤسس الدولة محمد الاول دفن في مقبرة «السبيكة» خارج اسوار الحمراء، وفي «السبيكة» دفن كذلك كل من محمد الثالث ونصر(٣). أما محمد الثاني واسماعيل الاول ويوسف الاول، فقد دفنوا قرب المسجد الجامع(٤). ويروى أن أبا عبدالله، آخر ملوك بني الاحمر، نقل رفات اجداده الى منطقة البشرّات، ولم يعثر المنقبون على شيء من بقايا اولئك الملوك، ولم يجدوا سوى قطع رخامية نقشت عليها كتابات فيها تمجيد للسلطان مع أبيات شعرية ترثي الراحل(٥).

٢ ـ الوزارة:

رأينا في عرضنا الاحوال السياسية أن هناك شخصية كبيرة، بعد السلطان، تتحرك في البلاط النصري وتعاون الملك في الاشراف على السياسة الداخلية والخارجية، هي شخصية الوزير، وقد تعرفنا الى عدد من الوزراء كان لهم دورهم في تحديد مصير العرش والمملكة. ومن الطبيعي ان تتوفر في الوزير، الذي يمثل السلطة التنفيذية، مجموعة صفات، منها ان يكون من عليّة القوم أو النخبة، وأن يتحلى بالرصانة والتواضع والمعرفة، الى جانب الحزم والجد وحفظ السر والوفاء للعرش.

ثم أوجد بنو الاحمر منصب الحاجب، وهو لقب كان يطلق على بعض الوزراء أو يُعطى لوزير ذي مكانة خاصة، ويوجّه الحاجب الهيئة الحاكمة ويتولى

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٢) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ٣٠٦.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٨ و ٦٨ و ٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٨ و ٨٧ و ١١٠.

(٥) E. Garcia Gomez, Cinco Poetas Musulmanes, Madrid, 1944. P. 255.

رئاسة القصر الملكي. ومحمد الرابع هو أول من أوجد هذا المنصب (١٧ رجب ٧٢٩ هـ/أيار ١٣٢٩م)، عندما عيّن أبا النعيم رضوان حاجبه وسلّمه ادارة المملكة السياسية والعسكرية، بمعاونة وزراء لمختلف شؤون الحكم[١]. لكن ذلك المنصب لم يعرف بصورة دائمة ومستمرة، انما كان يُعطى من حين الى آخر لشخصيات بارزة غالباً ما كانت تفرض ذاتها عل السلطان. ومن اشهر الذين تسلموا منصب الحجابة أبو النعيم رضوان أيام محمد الرابع ويوسف الاول ومحمد الخامس، وأبو السرور مفرج أيام يوسف الثالث.

قلنا إن منصب الوزارة كان مخصصاً لنخبة من علية القوم، فمحمد الاول قلد هذا المنصب لعلي بن ابراهيم الشيباني وهو من الأزد[٢]. الا ان تلك القاعدة لم تكن ثابتة اذ إن رجالاً من أصل وضيع ارتقوا سدّة الوزارة لانهم كانوا من ذوي النباهة ومن حملة الاقلام، وقد درج السلاطين على احترام اهل العلم واسندوا المناصب العالية الى رجال الادب الذين ارتقى بعضهم من منصب كاتب الى منصب وزير. فابن زمرك كان ابن حداد فقير من حي البيازين الشعبي[٣]، وابو بكر محمد بن عاصم كان من نسب وضيع كذلك. أما أبو النعيم رضوان فقد كان من الارقاء النصارى، اعتق وتسلم الوزارة وتحكم بشؤون الملك أيام محمد الرابع ويوسف الاول. والامر نفسه بالنسبة الى الوزير «أبو السرور مفرج» الذي كان هو أيضاً من أصل نصراني[٤]. وتجدر الاشارة الى أن يوسف النصري (عرف باسم يوسف الرابع) الذي ثار في مالقة أيام سعد بن اسماعيل، استعان بأحد ابناء غرناطة النصارى من بنيغش (فينيغاس VENEGAS). الا أن بني الاحمر، عكس سابقيهم بني زيري، لم يعينوا في منصب الوزارة أحداً من اليهود.

(١) Revista Al-Andalus, XXI, 1956. PP. 285 - 296.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٤.

(٣) دائرة المعارف، ادارة ف.ا. البستاني، ج٣، ابن زمرك و E. G. Gomez, Cinco Poetas Musulmanes, P. 189.

(٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٤ و ١١٥.

وبالنظر الى ما ورد في كتابي ابن الخطيب «اللمحة البدرية» و «الاحاطة»، والى ما نقع عليه في تاريخ ابن خلدون، يمكن تكوين فكرة عن صلاحيات الوزير في الدولة النصرية في الحقول الادارية والسياسية والعسكرية. فالوزير كان مكلفاً بنقل أوامر السلطان ورغباته الى أصحاب العلاقات داخل المملكة، مع السهر على تنفيذها. كما ان الاتصالات الخارجية مع الملوك كانت في ضمن اهتمامات الوزير، فوزارة القلم أُسندت أيام محمد الخامس الى لسان الدين بن الخطيب الذي كثرت مراسلاته مع بني مرين ملوك فاس. وكان لوزراء بني الاحمر ادوار سياسية بارزة من خلال المهمات التي اوكلت الى بعضهم، فابن زمرك قام بتسع رحلات الى بلاد النصارى في مهمة عقد الصلح معهم(١). كما أرسل يوسف الاول ابن الخطيب في سفارة الى فاس، وأرسل مرة ثانية أيام محمد الخامس الى بلاد العدوة (المغرب) كي يطلب الى ابي عنان المريني حماية بني الاحمر من الخطر القشتالي(٢). أما القضايا العسكرية فلم تكن من صلاحيات الوزراء الثابتة ولا من اعمالهم المستمرة، انما كانت توكل الى بعضهم بشكل استثنائي. فعلى عهد يوسف الاول تسلم ابو النعيم رضوان قيادة الحملة على مدينة لورقة في شهر محرّم (٧٢٤ هـ/اوائل تشرين الاول ١٣٣١م).

وبحكم تسلمه أعلى منصب في البلاط، كان الوزير يعيش الى جانب السلطان، وعلى اتصال دائم به، ولم يكن الامر كذلك في الدولة العباسية حيث كان الوزير يدخل على الخليفة مرة أو مرتين في الاسبوع. كان لسان الدين بن الخطيب مرافق محمد الخامس، وابن زمرك كان يتدخل في شؤون السلطان الخاصة وحياته اليومية. وهذا الامر خلق نوعاً من الازدواجية كثيراً ما كانت تنتهي بهلاك الوزير، واحياناً بمقتل السلطان نفسه. وقد أدرك بعض الوزراء دقة المهمة الملقاة على عاتقهم وما ينتظرهم من مزالق واخطار، فعمدوا الى اصطناع

---

(١) E. G. Gomez, Cinco Poetas Musulmanes, P. 210.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٢٢، تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٠٦، المقري، نفح الطيب، ج٥، من ص ٧٥ الى ص ١٨٠.

الاعين داخل البلاط وخارجه، فكثرت السعايات وتعددت المؤامرات. ولنا في مقتل ابن الخطيب بتدبير من تلميذه ابن زمرك خير مثال على ذلك. ولم تكن الارستقراطية الغرناطية غائبة عن مسرح السياسة العامة اذ كان أبناؤها النافذون أصحاب كلمة مسموعة لدى السلطان في خلع وزير وتعيين آخر. فالسلطان يوسف الاول اضطر الى خلع وزيره ابراهيم بن عبد البر ونفيه الى المغرب بعدما طلبت اليه الخاصة ذلك. أما أبو النعيم رضوان وابن المحروق فقد لقيا المصير المشؤوم بتدبير الحاشية وجل افرادها من الارستقراطية الغرناطية(١).

وتعدد الوزراء تحت حكم سلطان واحد لم يكن أمراً مألوفاً لدى جميع ملوك غرناطة. فالسلطان محمد الثاني الفقيه عقد الخطة أو الوزارة لصديقه أبو سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني الذي ترك تواقيعه على الرسائل والوثائق الملكية الى جانب توقيع السلطان(٢). كذلك كلف محمد الثالث ابن الحكيم الرندي الاهتمام بشؤون الوزارة(٣). أما نصر بن محمد المكنّى بأبي الجيوش فقد عين عدة وزراء لادارة شؤون المملكة(٤)، كما استعان اسماعيل الاول بخمسة وزراء(٥)... ونشير أخيراً الى أن عائلات معروفة تولى ابناؤها المناصب العالية كالوزارة مدة من الزمن، من مثل آل الامين وبني عبد البر وبني قماشة وبنيغش وبني سراج وسواهم.

٣ ـ ديوان الرسائل:

كان يرئس الدواوين أو الدوائر الحكومية أدباء معروفون يستعين بهم الوزير لتنفيذ المهام، ويعاونهم كتّاب وموظفون لمختلف الفروع المتصلة بهم، وأهم

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠ و ٧١.
(٥) المصدر نفسه، ص ٧٩.

الدواوين ديوان الرسائل. ولا تعطينا المصادر الكبرى التي اهتمت بتاريخ بني الاحمر معلومات وافية نستطيع من خلالها اقامة الحدود التي كان يتحرك ضمنها كاتب الرسائل ومساعدوه. وما نعرفه من مقدمة ابن خلدون ان «ديوان الرسائل» ادارة تابعة للسلطان ومركزها قصر الحمراء، وكانت مهمة هذا الديوان اقامة الصلة بين الحاكم والولاة والشعب والخارج، فدور كاتب السر هو اذاً تأمين المراسلات الرسمية(١). ومن الكتّاب المعروفين الذين تسلموا ديوان الرسائل ابن هيضم الرعيني وابن الخطاب واليحصبي اللوشي أيام محمد الاول(٢). ثم تسلم ولدا اليحصبي اللوشي كتابة السر أيام محمد الثاني(٣). وأبو عبدالله محمد بن الحكيم الرندي أيام محمد الثالث(٤)... أما لسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك، فقد كانا أشهر كاتبين عرفهما ديوان الرسائل.

وتجدر الملاحظة الى أن اللون الاحمر كان اللون المفضل في المداد، والرسائل كانت اجمالاً على صفحة واحدة وتختلف احجامها بحسب كبر او صغر الرسالة. وكان الكاتب يعمد الى ترك هامشين عريضين الى يمين الرسالة وفي اسفلها، وغالباً ما كان ينهي رسالة السلطان بالدعاء وبالعلامة أو الشعار الملكي، وكان شعار محمد الاول: «ولا غالب الا الله»، ويعقب ذلك الخاتمُ والتوقيع والتأريخ الهجري. ويلف الكاتب الرسالة ويربطها بشريط حريري عريض يُمهر بختم السلطان اشارة الى اهميتها، فلا تُفض الا على يد من تُوجَّه اليه(٥).

٤ ـ البريد:

نكاد لا نعرف شيئاً عما امتازت به دائرة البريد في عهد بني الاحمر، ولم تصلنا اسماء معروفة في هذا الحقل. ويبدو أن «صاحب البرود» لم يكن له شأن

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٦.
(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٦٤.
(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٦ وما عليها.

كالذي كان له أيام العباسيين حيث أدّى المسؤولون في هذا الحقل دوراً خطيراً. وما يذكره المؤرخون هو لجوء الاندلسيين الى الحمام الزاجل، وهذه وسيلة ورثها العرب عن الرومان في المشرق وطوروها، وغدت شائعة في انحاء الاندلس. ففي سنة (٦٧٨ هـ/١٢٩٧م) اتصل سكان الجزيرة بالعاصمة غرناطة لاعلام السلطان بخطورة الموقف اثر الحصار الشديد الذي ضربه الفونس العاشر حول المدينة. وفي (٧٠٨ هـ/١٣٠٩م) وصل الى غرناطة حمام زاجل يحمل خبر فشل الهجوم الذي شنّه الارغونيون على ألمريه. ويستنتج من الاتصالات الدائمة مع ملوك المغرب ومن الرسائل الموجهة الى ملوك الافرنج وسواهم أن البريد كان يؤمن توزيعه مجموعة من الثقات مؤلفة ممن يحسنون ركوب الخيل ومن العدّائين الزنوج(١).

٥ ـ التنظيم المالي:

يصعب على الباحث ايجاد دراسة كاملة عن التنظيم المالي في مملكة غرناطة. فصاحب الاشغال الخراجية الذي كان أعظم من الوزير أيام بني أمية، لا يرد اسمه في لائحة الموظفين المشهورين الذين يتحدث عنهم ابن الخطيب ثم ابن خلدون. أما المشرف على ممتلكات السلطان الخاصة فقد اطلق عليه اسم وكيل. فمحمد ابن المحروق كان وكيلاً على ممتلكات اسماعيل الاول قبل تسلمه منصب الوزارة(٢). والمعروف ان بني الأحمر أبعدوا النصارى واليهود عن وظيفة الجباية.

ولا تأتي كتب المؤرخين على ذكر ما كان يُجمع في بيت المال، انما باستطاعتنا تكوين فكرة تقريبية عندما نعرف ان محمد الاول كان يدفع ضريبة سنوية الى فرديناندو الثالث ملك قشتالة ما قيمته مئة وخمسين ألف ذهبية، أي ما

---

(١) Ch. E. Doufourcq, La vie quotidienne dans L'Europe Medievale Sous domination arabe, Hachette, Paris, 1978. P. 103.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٢.

يقدر بربع ما في الخزينة، وبعض المصادر تقول بأن الضريبة بلغت نصف خزنة المملكة[1]. ثم إن الفونس العاشر الحكيم فرض على ابن الاحمر مبلغ خمسين ألف ذهبية أي ما يعادل سدس ما حوته خزينة الدولة النصرية التابعة له. وفي سنة (٧٠٩ هـ/١٣٠٩م) رفع فرديناندو الرابع حصاره عن الجزيرة الخضراء مقابل خمسين ألف ذهبية دفعها السلطان أبو الجيوش نصر من بيت المال. هذه المعلومات المختلفة لا تساعد على اعطاء فكرة واضحة محددة عما كان يتجمع في بيت المال.

بعد هذه اللمحة السريعة، ننتقل الى الجباية، ونعرف أن محمد الثاني نظم الدولة و «أقام رسوم الملك فيها واستدر جبايتها»[2] من مختلف مصادرها. وكانت الجزية تُفرض على أهل الذمة، وقد عمد محمد الثالث الى «ابتناء المسجد الاعظم بالحمراء من غرناطة ووقف عليه الحمام بازائه، وانفق فيه مال جزية أغرمها من يليه من الكفار»[3]. ولم يكن أبناء الرعية من مسلمين وغير مسلمين كثيري التذمر من الضرائب التي كانت تفرض عليهم، حتى في الحالات الاستثنائية، «فطاعة ابناء هذا القطر للامراء محكمة، واخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة»[4]. فمحمد الاول «لما تمّ له تملك الحضرة اضطر الى المال فلبى القوم نداءه طائعين، وابتنى حصن الحمراء وجلب له الماء، وباشر بنفسه الحسبانات، فتوفر ماله، وغصت بالصائت خزائنه»[5]...

وكانت الجبايات متنوعة، فعدا الجزية التي كانت تفرض على غير المسلمين هناك صدقات المسلمين وهي الزكاة والعشور على الماشية والمحصولات

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٤.

(٢) Enrique Sordo: Al-Andalus Puerta del Paraiso, PP. 120, 121.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٨ و ٤٣.

الزراعية من قمح وشعير ومحاصيل الزيتون والعنب وسائر الاشجار المثمرة[1]. والضرائب على الاعمال التجارية كانت تأتي بالارباح الوفيرة على المملكة، كما أن صناعة الحرير والحديد وسائر الحرفيات كانت تؤلف مورداً مهماً. أمّا الضرائب على التجارة البحرية والصيد فقد كانت محصورة في مرفأي مالقة ومربله[2].

وكان بيت المال يتغذى من الضرائب على الارث أو المواريث، وكانت تتراوح بين عشرين وثلاثين بالمئة على قيمة الارث. ويجب ألا ننسى غنائم الحروب، الا ان الغنائم لم تكن تشكل مورداً دائماً لبيت مال المملكة، وكي يستطيع صاحب الحمراء تغطية نفقات القصر، ومن أجل تأمين اجور الخدم والحرس الملكي واقامة الحفلات في الاعياد والمناسبات العامة والخاصة، كان للسلطان أموال خاصة به هي بمثابة ميزانية القصر الملكي. ففي الاعياد الرسمية كالفطر والاضحى، كان ابن الاحمر يفرّق الهبات على المقربين ويوزع الصلات على الشعراء والكتّاب والعلماء وكبار الموظفين، وكانت الأعطيّات ثياباً أو كتباً، عدا ما كان ينقده من الاموال. فابن زمرك الشاعر يروي أن الملك محمد الخامس أهداه معطفاً صنهاجياً يميل لونه الى الاحمر، وهو مزخرف برسوم الطيور والأزهار. وابن خلدون لدى وصوله الى غرناطة استقبله السلطان بخلعة مذهبة غنية بالزخارف[3].

وكانت مداخيل السلطان تتأمن، في القسم الاكبر منها، من المستخلص، أي من أملاك السلطان وأرزاقه. ويتحدث ابن الخطيب باعجاب عن البساتين الغنية التي كانت تحيط الحمراء، والمنى الخاصة بصاحب القصر كانت موزعة في المرج الفسيح، عدا الضياع الكثيرة الموزعة في انحاء المملكة. وقد جاء في

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠ «والعنب بحر لاناقة كرومه التي ينالها الخرج على أربعة عشر الفا لهذا العهد».
(٢) A. Gimenez Soler, La Corona de Aragon y Granada, T. I, P. 38.
(٣) المقّري، نفح الطيب، ج٧، ص ١٧٦. E. G. Gomez, Cinco Poetas Musulmanes, P. 220.

اللمحة البدرية لابن الخطيب: «أما ما حازه السهل من جوفيه فمنى عظيمة الخطر، منها ما يغل في السنة شطر الالف من الذهب، يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز ثلاثين منيه. ويحيط بها من العقار الثمين ما ينتهي المرجع العملي منه الى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الاموال ذرعاً»(١)...

يبقى أن نتحدث عن السياسة النقدية في دولة بني الاحمر. فلم يهتم المؤرخون بذكر أسماء الذين تولوا أمر «السكة» في المملكة النصرية، والمعروف أن صاحب السكة ينظر في النقود المتعامل بها بين الناس مع حفظها مما يداخلها من الغش أو النقص، ثم في وضع علامة السلطان على النقود، كما يشرف على ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية في دار السكة(٢).

ويخبرنا ابن الخطيب بأن نقودهم (بني الاحمر) كانت من الصنف الممتاز وبأن عملية مزج المعادن مع الذهب والفضة كانت تعطي عياراً في غاية الدقة للسبيكة والدينار والدرهم والفلس، فلم تكن هناك نقود أفضل من نقودهم ولا أجود(٣). وتجدر الاشارة هنا الى أن فريقاً من نصارى مملكة اراغون عمدوا في القرن الثالث عشر أيام الملك بطره الرابع الى ضرب عملة مزيفة شبيهة بنقود المسلمين وتاجروا بها مدة مع الغرناطيين، الى أن اكتُشف المال المزيف ومصدره(٤).

ومع بداية القرن الخامس عشر اصبحت كمية النقود الذهبية المتداولة أقل مما كانت عليه، ذلك أن بني الاحمر بدأوا يواجهون صعوبات اقتصادية، وآخر دفعة نقدية صدرت عن دار السكة لم يكن لها تغطية من أي معدن ثمين(٥).

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٤.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٦١.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٠: «وصرفهم فضة خالصة ابريز طيب محفوظ لا تفضل سكتهم سكّة».

(٤) Revista Al-Andalus, XX, 1944, P. 127.

(٥) Al-Andalus, IX, 1944, P. 127.

ولم يكن أبناء المملكة يمانعون في قبض النقود القشتالية والارغونية، الا أن النقد الغرناطي كان مفضلاً على غيره في العهود الاولى. كما أن الدنانير الغرناطية كانت متداولة في الاسواق الخارجية.

٦ ـ أقاليم المملكة:

لا نجد أفضل من «اللمحة البدرية» لابن الخطيب مصدراً، وان كان غير واف، يمكن العودة اليه في مجال التعرف الى الأقاليم الغرناطية وخصائصها الادارية. يقول ابن الخطيب: «يرجع الى هذا الوطن الشريف من الاقاليم ثلاثة وثلاثون اقليماً، ثم يعدد مجموعة منها: اقليم لوشه، اقليم قلعة يحصب، اقليم باغه، اقليم شلوبانيه، اقليم البشرّات، اقليم المنكب، اقليم غرناطة، اقليم وادي آش، اقليم ألمرية، اقليم مالقة، اقليم الجزيرة وسواها»[١]...

هذه الاقاليم كانت خاضعة لسلطة العمال والولاة الذين يختارهم السلطان من الثقات والاقرباء، فيتخذون من قصبة المدينة (قلعتها) مقراً لهم. ولكن بعض الولاة كانوا بحكم نفوذهم وقوتهم يفرضون أنفسهم على الاقاليم ويتوارثون حكمها فيقرهم الامير على مقاطعاتهم بعد أن يظهروا الطاعة ويؤدوا الضريبة.

وقد رأينا في الحديث عن سلاطين بني الاحمر كيف أن حكام الاقاليم كان لهم دورهم في تقرير مصير الحكم.

٧ ـ التنظيم العسكري:

تاريخ دولة بني الاحمر حافل بالاحداث الخطيرة، ولم تعرف «الحمراء» أميراً خلا عهده من الاضطرابات الداخلية والحروب الخارجية. تلك المملكة الصغيرة والمعزولة بحكم وجودها محاصرة بين البحر من جهة ومملكتي قشتالة وأراغون

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٨.

من جهة ثانية، لم يكن ينتظر لها البقاء الطويل، فتوقع المتربصون بها سقوطها الوشيك. لكن المعقل الاندلسي الاخير استطاع الصمود، بالرغم من التصدع الداخلي، أمام الاخطار المحدقة والمحاولات المتكررة للقضاء عليه. تلك المملكة لم يكن ليكتب لها البقاء طيلة قرنين ونصف لو لم يكن لها جيش منظم قوي يتمتع بميزات تفتقر اليها الجيوش الاسبانية. والواقع أن جيش الدولة النصرية كان يضم مجموعة من المتطوعين حملوا السلاح بدافع من فكرة الجهاد المقدس الذي يباركه الاسلام ويدعو اليه، وقد أظهرت تلك المجموعة بسالة نادرة واستعداداً للاستشهاد في سبيل الدين. والذي كان يضاعف من قوتها وشجاعتها، اقتناعها بأن ترك السلاح يعني النهاية بعدما أمست مملكة غرناطة جزيرة اسلامية في بحر النصرانية، وبعدما تبين لها أن ابناء المدن التي سقطت في أيدي الاسبان قد انتهوا الى التهجير والسبي والعبودية والموت. وعناصر مجموعة المتطوعين كانت من أبناء غرناطة وسكان الاقاليم لاسيما منطقة البشرات الوعرة. إن أصحاب المملكة، الى جانب الجيش المنظم والقوي، عمدوا الى تشييد سلسلة قلاع منيعة على طول الحدود الممتدة بين طريف وألمريه.

أ ـ التحصينات النصرية:

مع نهاية القرن الثالث عشر للميلاد (نهاية السابع للهجرة) بدأ السلطان محمد الثاني الفقيه بتشييد خط دفاعي مؤلف من مجموعة قلاع وأبراج وحصون بنيت فوق صخور شاهقة مشرفة على السهول والأودية، مما يساعد على مراقبة الطرق التي يسلكها الاعداء. ففي منطقة ألمرية وبالقرب من وادي آش حيث كان الافرنج يقومون بهجمات سريعة وقصيرة، انتشرت الحصون والابراج لصدّ الغزوات المفاجئة وحماية مداخل المملكة. ثم اهتم محمد الخامس بتحصين الحدود الشمالية فبنى سلسلة أبراج وقلاع وأسوار تشرف على وادي شنيل ومنطقة جيّان، وتمتد نحو مدينة رندة لتصل الى ضواحي جبل طارق. ومن

خصائص تلك القلاع أنها كانت مؤلفة من سورين عظيمين مع عدة أبراج عالية، وبعض هذه القلاع ما يزال قائماً حتى يومنا[١].

والمعروف أن الحصون التي وقعت في ايدي النصارى أعيد ترميم بعضها واستعين بها في حروب الاسترداد التي شنّها الافرنج ضدّ بني الاحمر. من هذه القلاع قلعة يحصب التي بناها النصريون في مطلع القرن الرابع عشر (بداية الثامن للهجرة) فوقفت مدة من الزمن في وجه الافرنج وحالت دون وصولهم الى مرج غرناطة، الى ان استولى عليها القشتاليون سنة (٧٤٢ هـ/١٣٤١م) ورمموها. وغير بعيد عن قلعة يحصب ترتفع قلعة مُكلين فوق تلة صخرية مشرفة على السهول والأودية، وقد أطلق عليها اسم القلعة المستحيلة، اقتحمها الافرنج وحولوها الى معقل ينطلقون منه لغزو الاراضي النصرانية.

من جهة ثانية اهتم الغرناطيون ببناء سلسلة ابراج متفرقة على المرتفعات أطلق عليها اسم «الطلائع»، وهي أبراج مراقبة ترصد حركة العدو، وان الخرائب المنتشرة اليوم فوق التلال الاندلسية تشير الى المعارك الضارية التي دارت حولها. وكان المرج الغرناطي محاطاً بمجموعة أبراج نصبت لحماية المزارعين الذين كانوا يختبئون في داخلها كلما داهمهم الخطر[٢].

ب ـ الجيش النصري:

نعلم أن صاحب الدولة النصرية محمد بن يوسف بن الاحمر مرّ بظروف صعبة في عملية تأسيس دولته. انطلق من مدينته أرخونة التي كان شيخها وأميرها والتي فيها لقي دعم عائلته وصهره ابي الحسن علي بن أشقيلولة وسائر أبناء المدينة، وفي أرخونة كوّن ابن الاحمر نواة جيشه. وقد تسلم بنفسه قيادة رجاله

(١) حول التحصينات الاندلسية، راجع دائرة المعارف الاسلامية: Encyclopedie de l'Islam, T. 1, P. 1360 (Burdj: Fortification de l'Espagne Musulmane)

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١١٥ و ١٢٥.

الى أن تم له دخول مدينة غرناطة، فعين اذ ذاك ابن اشقيلولة قائداً للجيش وفيما بعد جرت العادة على أن يتسلم أمر الجند قائد من الاسرة المالكة أو من الشخصيات البارزة في الدولة. ولما تسلّم محمد الخامس الحكم اهتم قبل كل شيء بتنظيم الجيش ورفع مرتبات الجند، كما أنشأ ديواناً يعنى بالقضايا العسكرية على خلافها.

وللجيش النصري نواة ثانية تكونت من مجموعات محاربة قدمت من المغرب ووضعت سلاحها في خدمة أمير غرناطة[1]. والدفعة الاولى كانت في أواخر أيام محمد الاول الذي استقدم فريقاً من بني زناتة الاشداء لمساعدته في مجابهة الاضطرابات. وفي سنة (٦٧١ هـ/١٢٧٣م) وصلت الى الاندلس دفعة أخرى من بلاد المغرب، فقد شهدت منطقة غمارة الجبلية في مملكة مرين ثورة على السلطان أبي يوسف يعقوب الذي سحق الثائرين، ففروا الى تلمسان ومنها عبروا الى الاندلس حيث أكرمهم محمد الثاني الفقيه، ثم استعان بهم لمحاربة أقربائه بني أشقيلولة الذين خرجوا عن طاعته. وقد عيّن ابن الاحمر أبا عياض علي ابن عبد الحق قائداً للفرقة المغربية وعُرف بشيخ الغزاة، ثم عين مكانه تاشفين بن معطي الذي احرز انتصاراً ساحقاً على القشتاليين قرب أسوار قلعة مُكلين (٦٧٢ هـ/١٢٧٤م)[2].

وكانت الدفعة الثالثة سنة (٦٨٦ هـ/١٢٨٧م) عندما توفي سلطان بني مرين أبو يعقوب يوسف وخلفه ولده أبو يوسف يعقوب، فنشبت ثورة قام بها بنو ادريس وانضم اليهم بنو عبدالله وبنو عثمان من زناتة، ولكن الثوار هُزموا وخَرجوا من المغرب الى غرناطة وانخرطوا في صفوف «الغزاة». ثم تتالت الدفعات حتى اصبح المغاربة يشكلون نسبة عالية في الجيش النصري.

وتجدر الاشارة الى أن مشيخة الغزاة بقيت في أيدي بني عبد الحق الذين

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٩: «وجندهم صنفان: اندلسي وبربري»...

(٢) حول الدفعات المغربية، الى الاندلس، راجع: تاريخ ابن خلدون، ج٧، ص ٣٦٨ . ٣٧١.

توارثوها مدة قرن تقريباً. كما أن السلطان النصري محمد الخامس اهتم بأمرهم فرفع أجورهم وخصص لهم حصة كبيرة من المغانم في الحروب[١].

وكان للمحاربين المغاربة دورهم البارز في الحروب الداخلية والخارجية. فالغزاة، كما يسميهم المؤرخون، عرفوا بمهارتهم في الحيل ونصب الكمائن. وبفضل ما لهم من خبرة استطاعوا أيام اسماعيل الاول وبقيادة عثمان بن ابي العلاء أن يصدوا القشتالين عن مرج غرناطة.

لكن اهتمام مشايخ الغزاة بالشؤون السياسية لم يكن في مصلحة سلاطين بني الاحمر، وقد رأينا كيف أنهم وقفوا في وجه محمد الثاني، كما انهم شاركوا في خلع نصر بن محمد ومجيء اسماعيل الاول. ثم إن فريقاً منهم انتقل الى صفوف الاعداء، فعندما خلع محمد الخامس ليحكم مكانه اخوه اسماعيل عزل شيخ الغزاة يحيى بن عمر بن عبد الحق من منصبه فلجأ الى قشتالة مع مئتي فارس وشارك في معاركهم، ثم لحق بمحمد الخامس الى المغرب (٧٦١ هـ/ ١٣٦٠م)[٢].

أما ادريس بن عثمان بن أبي العلاء، الذي عين حاكماً لحامية مالقة، فكان قد أمضى بضع سنوات في بلاط برشلونة عند بطرس الرابع وبقيت أواصر الصداقة تشدّه الى ملك أراغون. لذلك بذل جهده لتحويل محمد الخامس عن محالفة ملك قشتالة وتقريبه من صديقه بطرس الرابع، ولكنه لم يفلح[٣]. وفي المرحلة الثانية من حكمه تسلم محمد الخامس مشيخة الغزاة بنفسه (٧٨٣ هـ/١٣٨١م) ورفع أجور المغاربة لاستمالتهم[٤]، ولم يشأ ترك ذلك المنصب في أيدي رؤسائهم بعدما وجد فيهم خطراً على المملكة.

(١) المصدر السابق، ص ٣٧٥ . ٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها (راجع أيضاً ص ٣٧٨).

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧٩: «اغفل صاحب الاندلس هذه الخطة ومحا رسمها من ملكه وصار أمر الغزاة المجاهدين اليه وباشر أحوالهم بنفسه وعمهم بنظره، والامر على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين».

في أواخر العهد النصري وبعدما اشتد الضغط على مملكة غرناطة وكثر حصار المدن والحصون، عمد رؤساء الجند الى انشاء فرق صغيرة أو عصابات لها تنظيمها الخاص وهي شبه مستقلة عن الجيش النظامي، تتسلل الى المعسكرات العدوة وتقتحم خيام قادة الفرق وتغزو مرابط الخيل، وتفسد المؤن وتنهب الذخيرة وتحرق المعسكرات وتنصب الكمائن(١).

الى جانب الجنود الغرناطيين والمرتزقة المغاربة، كان الجهاز العسكري النصري يتألف من الشرطة. وكان مركز صاحب الشرطة مهماً باعتباره مسؤولاً عن الامن والنظام وينتخب من قبل كبار القادة والاعيان بعد التثبت من أمانته ووفائه وتعقله وجرأته وقوته، وكان يعرف في المملكة باسم متولي الشرطة وصاحب المدينة وصاحب الليل(٢). ومن مهامه الحساسة تنفيذ العقوبات ومطاردة المجرمين وملاحقة العصابات والخارجين على القانون، والسهر ليلاً على الهدوء وراحة الناس، والتثبت من اقفال المدينة ومداخل بعض الاسواق(٣)، ويساعد صاحب الليل حرّاس يجوبون الشوارع ويراقبون الطرقات، وقد أطلق على حراس الليل اسم الدرّابين الذين كانوا يحملون السلاح وتصحبهم الكلاب(٤).

أما حراس القصر الذين يسهرون على سلامة السلطان فقد كانوا يختارون، في غالبيتهم، من النصارى المرتدين عن دينهم، ويطلق عليهم ابن الخطيب اسم المماليك. والمعروف أن أحد المماليك واسمه صابر أدخل محمد الاول الى غرناطة بعدما توفي خارج المدينة اثر نوبة حادة(٥). كما أن حراس القصر عمدوا الى قتل الوزير ابن المحروق ايام محمد الرابع(٦). وعندما خلع محمد الخامس

(١) A. H. Miranda, Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid, 1956, P. 367.

(٢) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٢١٨.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢١٩.

(٥) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩٤.

وانتقل الى المغرب رافقه مئتان من المماليك وسهروا على سلامته، ولدى استعادته الملك زاد من عددهم وبالغ في تكريمهم..

ويمكن أن نلحق بالجهاز العسكري مجموعة من «الادلاء» الذين كانوا في الغالب من سكان المناطق الحدودية ذوي الخبرة بمسالك البلاد. كما كان السلاطين وقادة الجيوش يبثون الاعين داخل البلدان النصرانية ويصطنعون الجواسيس الذين كانوا اجمالاً من التجار اليهود والنصارى، وهؤلاء الجواسيس كانوا يمنحون المكافآت على ما ينقلونه من معلومات ويعفون من الضرائب(١).

ولم يتخل بنو الاحمر عن العادة العربية القديمة في الحروب وهي أن يصحب الجيش الى المعركة خطباء وشعراء يعملون على بث الحماسة في صدور الجنود ويقصون عليهم أخبار البطولات الخارقة التي قام بها السلف في جهادهم المقدس(٢).

بعد تناولنا مختلف الجهات والعناصر التي شكلت الجيش النصري، لا بد من الاشارة الى الاقسام التي تشكّل منها ذلك الجيش. فقد كان على رأس كل مجموعة من خمسة آلاف محارب «أمير»، ولهذه المجموعة راية كبيرة تميّزها. والمجموعة تقسم الى خمس وحدات، كل وحدة من ألف محارب يترأسها «قائد»، وعلمها اصغر حجماً من الراية. ثم ان كل وحدة تقسم بدورها الى خمس فرق، وقوام كل فرقة مئتا محارب يقودها «نقيب» يحمل لواء الفرقة. والفرقة تقسم هي أيضاً الى خمسة أقسام صغيرة من أربعين رجلاً، وعلى رأس كل قسم «عريف» يحمل بنداً مميزاً. والقسم يتفرع الى مجموعات أو زمر من ثمانية جنود يرأسها «نظير» ويربط في رأس رمحه قطعة قماش تسمى العقدة. والتحرك العسكري لهذه الاقسام كان يجري وفق أوامر تصل من الاعلى الى الادنى. والمعلوم ان كبار الجيش حرصوا على تأمين النظام، فكانوا من أجل ذلك يخضعون الاقسام للتفتيش الدقيق فيكافئون ويعاقبون(٣).

(١) Encyclopedie de l'Islam, T. II, P. 499 DJASUS.

(٢) تاريخ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥١ و ٢٥٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٧٢.

في مجال الحديث عن التنظيمات العسكرية لا بد من التوقف عند الاسلحة التي كان يستعملها الجيش النصري. فالامراء والجنود الفرسان قلدوا لباس النصارى العسكري فكانوا يرتدون معطفاً مقلنساً قرمزياً فضفاضاً وبدون أكمام، ويلبسون الدروع الواسعة ويحملون التروس الطويلة ويعتمرون خوذاً بسيطة غير مذهبة ولا مزخرفة[١]. وكانت رماحهم طويلة والاسنة عريضة، والسروج تغطي ظهور الجياد. كما استعمل الفارس الغرناطي القوس والسيف والفأس والخنجر[٢].

أما الفرسان المغاربة فكان لباسهم الحربي مختلفاً بعض الشيء، فالبرنس كان ينتهي بقبعة من زرد لحماية الرأس وتسمى «المغفر»، والقميص مسرودة من حديد. وكانت التروس طويلة والرماح قصيرة رشيقة والسيوف خفيفة والسروج صغيرة[٣].

في القرن الرابع عشر للميلاد (الثامن للهجرة) لجأ المشاة الاندلسيون في مواجهة العدو الى الاقواس القذّافة أو راجمات النبال التي ترمي مجموعة سهام دفعة واحدة وتعرف باسم الاقواس الافرنجية[٤]، وكانوا يتدربون بصورة مستمرة على هذا السلاح لما يتطلبه من دقة في الرماية. أمّا القوس العربي العادي، فكان سلاحاً تقليدياً يستعمله الفرسان والمشاة لسهولة حمله فيعلق في الكتف وتربط كنانته على الظهر.

في المتاحف الحربية الاوروبية نقع على الاسلحة المتنوعة التي كانت لدى العرب والافرنج أيام بني الاحمر. فالسيوف كانت مستقيمة متوسطة الطول رقيقة النصل مع مقبض مزخرف ينتهي عند النصل بتفيحة مستديرة وكبيرة لحماية اليد

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٩. المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٠٢.
(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٣.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٢٣.
(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(سيف أبي عبدالله في متحف مدريد الحربي). أمّا الرماح التي كانت تصنع في ألمرية ومرسيه وغرناطة فان شهرتها جعلت الفرسان النصارى يتباهون بحملها. كما أن الخناجر المعقوفة والمستقيمة (في متحف مدريد) كانت تكثر في مقابضها الزخارف المتنوعة، وكان حملها أمراً مألوفاً لدى الناس. وتجدر الاشارة الى أن التروس كانت أساساً من الحديد أو النحاس، ثم أدخل فرسان زناتة التروس الخشبية والجلدية الصلبة، وقد فضل بعضهم هذه التروس لخفة حملها وسهولة استعمالها(١).

هذا العرض السريع لجهاز الجيش الغرناطي يحملنا على التعرف الى الخطط المتبعة في المعارك الحربية آنذاك. وما يمكن استخلاصه من المصادر المتعددة هو اعتماد الغارات السريعة في عمق أرض العدو مع تجنب الاصطدام بالفرق النظامية، وقد أطلق الغرناطيون على هذه الغارات الموسمية اسم «الصوائف» اذا كانت صيفاً و «الشواتي» اذا كانت شتاء، وغالباً ما كانت هذه الغارات في أيام الربيع والصيف. وتجدر الاشارة الى اختلاف مفهوم الصوائف والشواتي عند ملوك الاندلس السابقين، اذ كانت عندهم اجتياحات ضخمة وحملات عسكرية كبيرة تمتد اسابيع وتقع فيها المجابهات القوية. ومن ملوك غرناطة الذين اكثروا من الغارات السلطان محمد الخامس الذي أطلق رجاله في أراضي أشبيليه وجيان وقرطبة بين سنتي ١٣٣٦ و ١٣٦٨م (٧٣٧ و ٧٦٩ هـ). وفي المعارك النظامية حافظ الفرسان المغاربة على الاساليب التقليدية فاعتمدوا طريقة الكر والفر والدوران حول العدو ومباغتة نقاط الضعف. وهذا الاسلوب الغريب عن خطط الافرنج كان يوقع بهم خسائر غير منتظرة احياناً(٢).

ويبدو أن طرق حصار القلاع والمدن كانت واحدة عند بني الاحمر والافرنج. فلدى وصول العدو كان المزارعون يهرعون الى داخل الاسوار وتقفل

---

(١) Revista Al-Andalus, XIV, 1949, PP. 186 - 197.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٧١. L'Encyclopedie de l'Islam, III, P. 485 (HISAR).

الابواب ويأخذ المدافعون أماكنهم فوق الاسوار والابراج استعداداً للمواجهة. وأول ما يقوم به المهاجمون هو توزيع المشاة حول المدينة، بينما يتأهب المحاصرون لحرق وتدمير المنشآت التي يحاول العدو اقامتها قرب الاسوار، ويحكمون اقفال الابواب بالحجارة الضخمة. أمّا الهجوم على المدينة فيرافقه الصراخ ودق الطبول وأصوات الابواق، ويستعان بالحبال والسلالم الطويلة لتسلق الاسوار، كما تبنى الابراج الخشبية العالية وتسير على عجلات ضخمة نحو السور ليقفز منها المهاجمون، فيعمد سكان المدينة الى ردهم بواسطة السهام والحجارة والمياه الساخنة والزيت المحترق[١]. وعلى سبيل المثال نذكر أن خايمي الثاني ملك أراغون استعان في حصار ألمرية (٧٠٩ هـ/١٣٠٩م) ببرج خشبي متحرك، ولكن ابناء ألمرية استطاعوا احراقه. واذا عجز المهاجمون عن اقتحام الاسوار لجأوا الى قطع خشبية ضخمة وطويلة تعرف باسم «الكبش» يحملها عدد من المهاجمين ويدكّون بها الابواب لاقتحامها، كما يستعينون بالعرادات والمجانيق يقذفون بها الحجارة والمواد المحرقة[٢]. وقد استعمل الغرناطيون في مهاجمة حصون ومدن الافرنج النار الاغريقية أو النفط والكبريت، وأول من جعل النفط سلاحاً هو اسماعيل الاول عندما هاجم حصن «وَشْقَة» (٧٢٤ هـ/١٣٢٤م) فزرع الهلع في القلوب واقتحم القلعة بفضل ذلك السلاح[٣]. وفي أواخر العهد النصري (٨٨٧ هـ/١٤٨٢م) ظهر سلاح البارود عند القشتاليين والغرناطيين، فكانت المدن تختزن منه كميات كبيرة، كما دخلت المدفعية ميادين الحرب (٨٩٢ هـ/١٤٨٧م) في مجال الدفاع عن المدن[٤]. وتجدر الملاحظة الى أن المهاجمين غالباً ما كانوا يمنعون وصول المؤن الى القلاع والمدن المحاصرة ويقطعون مياه الشرب، لذلك بنيت الاهراءات وخزانات المياه داخل المدن لوقت الحاجة.

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٦ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٧١.

(٣) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٥ و ٨٦.

(٤) Encyclopedie de l'Islam, T. I, PP. 1087 - 1088.

في ختام الحديث عن الجهاز العسكري، لا بد من التوقف قليلاً عند سلاح البحرية النصرية، مع الاشارة الى أن غالبية المؤرخين قد أغفلت هذه الناحية، فلم تعرها الاهتمام الذي اعارته لقوى البر.

كان أمير البحر يعرف باسم «قائد البحر» و «قائد الاسطول»، فعندما حاصر الارغونيون مدينة المرية (٧٠٩ هـ/١٣٠٩م) كان قائد البحر أبو الحسن علي الرنداحي مسؤولاً عن وحدات الاسطول. وفي صيف ١٣٠٤ و ١٣٠٥ و ١٣٠٦ للميلاد (٧٠٦ و ٧٠٧ و ٧٠٨ للهجرة) عمد محمد الثالث النصري الى مهاجمة جزر البليار، وسيطر على مضيق جبل طارق، كما ضربت اساطيله مدن مملكة أراغون الساحلية[1]. ثم إن المراكب البحرية كانت تسير بواسطة المجاذيف والأشرعة معاً، وكانت على نوعين: المراكب الخفيفة لبضعة أشخاص والمراكب الضخمة التي تضم بين مئتين وثلاثمئة محارب مسلحين بالاقواس والسيوف والقذافات المتنوعة. والمعروف أن القوات البحرية النصرية لم تكن اجمالاً بمستوى الاساطيل الارغونية[2]. والمعروف أن المراكب النصرية مدّت جسراً بحرياً بين مملكة غرناطة وبلاد العدوة (المغرب) لايصال المؤن ونقل الجيوش، وبعض هذه المراكب كان يحمل الجياد في أوقات الحروب كي يتبع الانزال غارة سريعة. ولما سقطت المدن المقابلة للمغرب بيد الاسبان انهارت قوة غرناطة البحرية وكان ذلك نذيراً بقرب النهاية، فبدأ النزاع الطويل الذي أدى الى السقوط.

٨ ـ القضاء:

لا شك في أن القضاء كان في عصور التاريخ العربي كلها مركزاً في غاية الرفعة والحساسية، وله طابع ديني علماني مميّز. وفي العهد النصري حافظ الحكام على تلك الهالة التي كانت تحيط مركز القضاء ولم يكن يشغل ذلك المنصب سوى العلماء والفقهاء.

(١) Ch. E. Dufourcq: L'Espagne Catalane et le Maghrib, P. 382.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠٤ و ٤٦٧.

وكان يطلق على رئيس القضاة اسم قاضي الجماعة وقاضي الحضرة وقاضي غرناطة الذي كان خطيب المسجد في العاصمة، ويليه مرتبة قضاة مالقة وألمرية ووادي آش ورندة وبسطه وبلش وسواها من المدن الكبرى في المملكة. ولقاضي الجماعة سلطة على سائر القضاة فيشرف على أعمالهم ويرشدهم، ويراقب سلوكهم الديني والاخلاقي والاجتماعي، ويتأكد من صحة الاحكام التي يصدرونها. الا ان تلك السلطة كانت مبدئية لان صاحب الحمراء كان يصدر مرسوماً يعرف باسم «ظهير ملكي» يعين بموجبه قضاة الاقاليم من دون العودة الى رأي قاضي الجماعة[١].

واختيار رئيس القضاة الذي يأتي مركزه في مستوى الوزير أو كاتب السر أمر يتعلق بالسلطان الذي يحرص على تسليم هذا المنصب الى رجل يتحلى بالورع ورجاحة العقل وسعة العلم والبعد عن الهوى والميل الى الحلم، مع جرأة في حماية الحق ومحاربة الباطل. ومن شروط من يختار لهذا المنصب التحلي بالصبر وسلامة حاسة السمع والبصر والنطق، وكونه واحداً فلا يصح تقديم اثنين معاً في منصب واحد وقضية واحدة[٢].

وقد أراحنا لسان الدين بن الخطيب من عناء البحث عن قضاة مملكة غرناطة بفضل تدوينه في «الاحاطة» و «اللمحة البدرية» أسماء الذين تولوا خطة القضاء[٣] ونكتفي بذكر الذين برزوا في هذا الميدان. فمحمد الاول عين بالتتالي سبعة قضاة كان آخرهم أبو بكر محمد بن فتح بن علي الاشبيلي الملقب بالاشبرون، وقد أبقاه محمد الثاني في منصبه، و «ذهب في احكامه مذاهب الصراحة الى ان هلك». فتولى الخطة مكانه أبو عبدالله محمد بن هشام، فتوفي على أيام محمد الثالث الذي عين مكانه أبا جعفر أحمد بن محمد القرشي الذي

---

(١) أبو الحسن النباهي الاندلسي: تاريخ قضاة الاندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا). منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤ و ٥.

(٣) راجع اسماء القضاة الذين ترد اسماؤهم في «اللمحة البدرية» حتى عصر ابن الخطيب.

بقي قاضياً للجماعة في أثناء حكم نصر بن محمد. واستقضى اسماعيل بن فرج أبا بكر يحيى بن مسعود بن علي الذي اشتد في اقامة الحق واستمر قاضياً الى آخر ايامه. أما محمد الرابع بن اسماعيل الاول فقد تولّى رئاسة القضاء في عهده عدة علماء آخرهم الشيخ الفقيه أبو عبدالله محمد بن يحيى الاشعري المالقي، فاستمر له الحكم حتى استشهاده في عهد يوسف الاول يوم وقيعة طريف. فولي القضاء بعده بالتتالي أربعة من الفقهاء هم أبو عبدالله بن عياش، أبو جعفر بن برطال، أبو القاسم السبتي وأبو البركات بن الحجاج. وقد أعفي هذا الاخير من منصبه وأعيد أبو القاسم السبتي الذي جدّد له محمد الخامس، فبقي حتى وفاته (٧٦٠ هـ/١٣٦٩م). أما اسماعيل بن يوسف، فقد تولى له خطة القضاء، مع قصر عهده، اثنان من الفقهاء هما أبو بكر أحمد بن جزيّ ثم أبو القاسم سلمون بن علي بن سلمون. ولما استرجع محمد الخامس الملك أعاد ابن جزيّ الى القضاء، وجاء بعده أبو الحسن علي الجزامي ثم أبو الحسن النباهي. ومن قضاة الجماعة الذين اشتهروا بعد ذلك أبو بكر عاصم الغرناطي الذي بقي مدة طويلة في منصبه وتوفي عام (٨٢٩ هـ/١٤٢٦م)[١].

وقد حرص قضاة الجماعة، بوجه عام، على ان لا يتقاضوا مرتباً محدداً، كما أبقوا منصبهم بعيداً عن الوساطات بغية الحفاظ على نزاهته. ولم يكن يصل الى هذا المركز الاّ الذين تولوا مهمات أخرى وأظهروا كفاءاتهم الدينية والخلقية والعلمية. وبعض القضاة تسلم الخطة بعد أن كان في وظيفة أدنى، فأبو الحسن النباهي كان كاتباً في بلاط محمد الخامس، وأبو بكر محمد بن عاصم كان من قضاة الاقاليم قبل تسلم الخطة في غرناطة[٢].

وحدود قاضي الجماعة متنوعة منها قطع التشاجر والخصام من المتشاجرين امّا بصلح عن تراض واما باجبار بحكم آية، ومنها استيفاء الحق لمن طلبه،

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية (راجع في سيرة كل أمير أسماء القضاة).

(٢) النباهي، تاريخ قضاة الاندلس، ص ٢٠ و ٢١.

والتحجر على المفلس حفظاً للاموال، وتنفيذ الوصايا، وتوزيع الارث، والاشراف على الاوقاف، ومراقبة صرف أموال الزكاة في أعمال الخير، ورعاية الايتام والفقراء والعجزة. وكان القاضي يترأس الصلوات أيام الاعياد والجمع ويلقي الخطبتين، ويهتم بتطبيق تعاليم الدين وملاحقة الزنادقة ومحاكمتهم(١). أما فيما يتعلق بالقضايا الثانوية، فان قاضي الجماعة يتركها لقاض مساعد يعرف باسم صاحب الاحكام. أمّا قاعة المحكمة فكانت احدى الغرف التابعة للمسجد الجامع في المدينة، فيقعد القاضي بين مستشاريه وكتابه ويواجهه صاحب العلاقة(٢).

إلى جانب وظيفته الاولى، كان قاضي الجماعة يقوم أحياناً بمهام دبلوماسية، فمحمد الخامس أرسل قاضي الجماعة أبا البركات الحاج الى بلاط فاس في مهمة سياسية. وعندما كانت المملكة في آخر أيامها انتقل قاضي الجماعة ابن الازرق الى مصر ليطلب النجدة من المماليك في عهد قايتباي(٣).

ويلحق بالقضاء الرجال العدول الذين يقومون بوظيفة تدوين الوثائق. ويختار القاضي الكاتب العدل بعد التثبت من كفاءته. وتنحصر أعماله في الاتفاقات الرسمية المتنوعة بين الاشخاص، واعطاء الوثائق العقارية واجازات التجارة والصناعة والحرف، وفي تثبيت عقود الزواج، وتدوين المهر، ومعاملات الطلاق، كل ذلك بحسب ما يمليه الشرع(٤).

أمّا الشروط التي تطلب من الكاتب العدل، فأهمها التدين والاخلاق الحسنة، ومعرفة الانظمة والقوانين، وعدم الاغفال عن الحيل التي قد تمارس للهرب مما

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢١٧.

(٣) النباهي، تاريخ قضاة الاندلس، ص ١٤٠ (بعثة القاضي المحاربي الى المغرب).

. ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٥: «أرسل القاضي أبو بكر بن يحيى المحاربي الى ملك المغرب وأدركته الوفاة بمدينة سلا».

(٤) Encyclopedie de l'Islam, I, PP. 214 - 216 (ADL).

تفرضه القوانين، كما يطلب من الكاتب العدل أن يدون الوثائق بلغة سليمة وخط جميل. ونعرف أن بعض الكتاب ارتقوا الى وظيفة القضاء، فقاضي مالقة محمد ابن عمر الهاشمي الطنجالي كان كاتب عدل المدينة، كما ان ابن المحروق لمع في «العدالة» قبل أن ينتقل الى خدمة السلطان نصر بن محمد(١).

أما رجال «الافتاء» فكانوا مرجعاً للقضاة في المسائل المعقدة، وقد ارتفع شأنهم عندما طلب اليهم يوسف الاول ان يعلموا الشريعة بحسب المذهب المالكي في مدرسة غرناطة المشهورة. كما غدت آراؤهم مسموعة من العامة والخاصة عندما اقترب الخطر القشتالي في القرن الخامس عشر (التاسع للهجرة). ومن الشخصيات التي اشتهرت المفتي محمد الانصاري السرقسطي المتوفى سنة (٨٦١ هـ/ ١٤٥٩م)، والمفتي ابراهيم بن أحمد الصقيلي الذي كان لغوياً مشهوراً وشاعراً مجيداً، علم في المدرسة اليوسفية وتتلمذ له عدد من الكتاب.

ومن الوظائف الملحقة بالقضاء وظيفة الحسبة أو ادارة السوق وهي وظيفة لها طابع ديني وعلماني، شعارها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويهتم صاحب السوق بالحركة الاقتصادية في البلاد في حقلي الصناعة والتجارة. ويقوم مع معاونيه في الحسبة من كتّاب وحملة أقيسة وأوعية بجولة لقمع الغش والاختلاس، ويراقب الموازين والمكاييل والقياسات والاحجام وجودة البضائع ومطابقتها للاوصاف المطلوبة. ويسهر على منع التلاعب بالاسعار، والعمل على توفير الحاجي والكمالي من العيش، وتأمين المنقوص من الخارج، وتجنيب مخزون المؤن من الفساد، والبحث عن أسواق تجارية لتصريف الفائض عن المحصول والمصنوع(٢). وعلى سبيل المثال نذكر أن الخبز يجب أن يكون بوزن معين عند بيعه، ويتأكد معاونو المحتسب من ذلك بموازين يحملونها، كما يطلب من التجار أن يضعوا بطاقات تشير الى أسعار السلع(٣).

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الاندلس، ص ١٥٥.

(٢) Encyclopedie de del'Islam, III, PP. 503 - 505 (Hisba).

(٣) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢١٨.

ومن الاخبار الطريفة عن أنواع العقاب الذي كان ينزله صاحب السوق بمن تثبت عليه تهمة الغش ارغامه على أن يركب حماراً مديراً ظهره الى رأسه ووجهه الى قفاه ويلبس قبعة (طرطوراً) ملونة ويتجول في أزقة المدينة وشوارعها، فيكون بذلك اضحوكة للناس وعبرة لسواه. وقلما لجأ مدير السوق الى تطبيق ما ينص عليه الشرع من قوانين قاسية، الا في حالات استثنائية وفي مخالفات أو جرائم معروفة أهمها التجديف على اسم الله والاختلاسات الضخمة، ومن العقوبات المعروفة التوبيخ والاخطار والجلد والنفي من البلاد وغير ذلك(١).

ومن المصالح العامة التي يهتم بها المحتسب اضاءة الشوارع وتمهيد الطرقات ورصفها، ومراقبة النظافة العامة، وتنظيم مصلحة جمع النفايات، ومنع رمي الاقذار المتنوعة في الساحات والطرق، كما حظر على القصّارين والعاملين في المصابغ نشر الاثواب في الشوارع فوق المارّة، وغير ذلك مما يتصل بمظهر المدينة وراحة الناس(٢).

أما المهام الدينية الملقاة على عاتق المحتسب، فمنها السهر على تطبيق فروض الدين واقامة أركانه وخاصة الصلاة أيام الجمع والاعياد، والصوم في رمضان، والزكاة عندما تدعو الحاجة. والمحتسب الغيور يراقب عن كثب نظافة المساجد ويهتم بتجهيزها على الوجه اللائق. ويلاحق صاحب السوق المنكرات ويمنع المحرمات ويدعو الى احترام الاداب وتعزيز الاخلاق العامة ويمنع مثلاً الرجال والنساء من الاختلاط في بعض الاماكن، ويحرص على عدم تدنيس المدافن فلا يسمح برمي النفايات واشعال النار بين القبور(٣).

من الشخصيات المشهورة في حقل الحسبة أبو بكر محمد بن الاشبيرون الذي تسلم ادارة السوق في غرناطة أيام محمد الاول، ثم ارتقى في عهد

(١) Revista Al-Andalus, Vol. XXVI, 1961, PP. 471 - 475.

(٢) المرجع السابق والصفحات نفسها.

(٣) Encyclpedie de l'Islam, III, PP. 503 - 505 (Hisba).

محمد الثاني الى منصب القضاء. كما عرف من رجال الحسبة محمد بن علي الزهري الذي تسلم مدينة مالقة في سنة (٧٣٠ هـ/١٣٢٩م)، وأبو الحسين الانصاري السبتي الذي عيّن محتسباً لغرناطة سنة (٧٦٤ هـ/١٣٦٣م)[١]. ونشير في نهاية الحديث الى أن الاسبان أخذوا عن العرب نظام الحسبة وطبقوه في مدنهم[٢].

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الاندلس، ص ١٢٥ . ١٢٦.

(٢) من الكلمات العربية التي دخلت اللغة الاسبانية كلمة المحتسب. وقد تطور لفظها فأصبحت: Almotacen.

الفصل الثالث

المجتمع النصري

أ ـ العناصر السكانية في المجتمع النصري:

التقت في المجتمع الاندلسي عناصر بشرية متعددة أهمها العرب والبربر والمسالمة والمولدون والمستعربون واليهود والصقالبة، ومع تعاقب السنين أصبح من الصعب التمييز بين هذه العناصر بشكل واضح. لهذا رأينا من المناسب حصر العناصر السكانية في المجتمع النصري في الطوائف الدينية: أي الاسلام والنصرانية واليهودية، لان العناصر البشرية الاندلسية كانت تنتمي الى هذه الطوائف.

١ ـ المسلمون:

لا شك في أن غالبية سكان مملكة بني الاحمر كانت من المسلمين، انما يصعب على الباحث تحديد المناطق التي وفدوا منها. فالمصادر المتنوعة التي أتت على ذكر الذين قدموا من المشرق والمغرب الى الاندلس لم تعط من التفاصيل ما يلقي الاضواء الكافية على هذه الناحية، كما ان المسلمين من سكان الاندلس لم يستقروا في بقعة واحدة طوال القرون الثمانية اذ تكاثرت الهجرات الداخلية لاسباب متعددة أهمها النزوحات القسرية عن المدن والمناطق التي وقعت بأيدي الاسبان.

في سنة (٧١١ هـ/١٣١١م) أعلن الوفد الارغوني الذي اشترك في المجمع المسكوني في روما على أيام البابا كليمانت الحادي عشر أن عدد سكان مدينة غرناطة هو مئتا ألف نسمة وجلهم من المسلمين(١). وبعد خمسين سنة أعلن ابن

(١) A. Gimenez Soler, La corona de Aragon y Granada, P. 235.

الخطيب في «الاحاطة» أن جل السكان في مدينة غرناطة من المسلمين وهم خليط من العرب والبربر[1].

والمعروف أن المسلمين قدموا الى الاندلس على دفعات، فالداخلون مع موسى سمّوا بالبلديين، والداخلون مع بلج القشيري سمّوا بالشاميين. وقد تفرق الشاميون في منطقة البيرة وسهل غرناطة، أما جند قنسرين فسكنوا جيان، بينما استقر أبناء حمص في اشبيلية. «ومن اعلام العرب الذين قدموا الاندلس: بيوتات قيس عيلان، ومن عبس، ومن باهله، ومن جديله، ومن كلاب بن ربيعة، ومن سلول، ومن ثقيف، ومن الاوس والخزرج، ومن غسان، ومن الازد، ومن كندة، ومن سعد العشيرة، ومن همدان، ومن حمير، ومن جهينه وغيرها»[2].

أمّا البربر الذين بدأوا يتكاثرون في المناطق الغرناطية في نهاية القرن الثامن للميلاد (الثاني للهجرة) فقد تجمعوا في المناطق الجبلية وسكنوا مرتفعات رندة ومالقة وسفوح جبل شلير. ثم ازداد عددهم على أيام محمد الثاني ومحمد الخامس اثر انخراط جماعات منهم في صفوف «الغزاة»[3].

وفي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) بدأ سكان المدن التي سقطت في أيدي الافرنج ينزحون الى المناطق الغرناطية، وخاصة سكان بايسة وقرطبة واشبيلية. ثم وصل أبناء جيان ومرسيه، كما سهّل الارغونيون نزوح سكان بلنسية الى غرناطة والمغرب.

يضاف الى عنصرَي العرب والبربر «المولدون» الذين شكلوا نسبة عالية من السكان المسلمين. كما يتحدث المؤرخون عن جاليات اسلامية وصلت الاندلس قادمة من الهند وخراسان وايران وسكنت ضواحي غرناطة، الى جانب قلة من الزنوج كانت تسكن قرب مالقة[4].

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٠٠.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٦.

(٣) راجع ما جاء تحت عنوان «الجيش النصري» من هذه الدراسة.

(٤) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٠٠ ـ ١١٥.

هذه العناصر، بتمازجها مع بعضها بعضاً وتفاعلها مع العناصر الاخرى كالنصرانية واليهودية، أعطت شخصية أندلسية تمتاز عن المغربية بخفة الروح وحيوية العقل مع استعداد طبيعي لتقبل العلم. ويقول ابن الخطيب في أبناء غرناطة: «صورهم حسنة، معتدلة انوفهم، بيض الوانهم، مسودّة غالباً شعورهم، متوسطة قدودهم»[١].

وكان الاندلسيون يعتزون بأصالة النسب، فحرص الكثيرون على ربط نسبهم بأرومات عربية عريقة. فبنو نصر أصحاب الحمراء جعلوا همهم اقناع أتباعهم وتذكيرهم بانتمائهم الى سعد بن عبادة أحد زعماء الانصار[٢]، ولسان الدين بن الخطيب يظهر اعتزازاً بانتمائه الى القحطانية[٣]. ثم أن أبناء الارستقراطية كانوا يحاولون الحفاظ على أسماء وسمات تبرز انتماءهم العربي، فالقاضي أبو البركات ابن الحاج البلفيقي كان يطلق على زوجته أم العباس عائشة لقب «العربية الحرة»[٤].

أما المسلمون من سكان المدن والمناطق الاندلسية التي سقطت في أيدي الاسبان، فقد عرفوا باسم «المدجنين»، وكانوا منتشرين في قرطبة وبلنسية وطليطلة وبرشلونة وسائر المناطق القشتالية والارغونية. وقد أدّوا دوراً سياسياً كبيراً واستعان بهم ملوك الافرنج في ادارات الدولة ولاسيما القضاء، وكان لهم نتاجهم الادبي وفنهم المعماري وتراث متنوع الوجوه ترك أثره الواضح في الحضارة الاوروبية. وقد نخرج من نطاق المطلوب من بحثنا فيما لو أردنا التحدث عن المدجنين بشكل واف لانهم كانوا خارج سلطان بني الاحمر، كما يتطلب الكلام عليهم بحثاً مستقلاً، لذا نكتفي بذكرهم والتلميح الى وجودهم.

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٨.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٤٤٧.

(٣) المرجع نفسه، ج٥، ص٧ و ١٦٠.

(٤) المرجع نفسه، ج٥، ص ٤٧٩.

٢ ـ النصارى:

نعلم أن قسماً كبيراً من الاسبان لم يغادروا المناطق التي كانت تحت سيطرة المسلمين، إلا ان ما وصلنا عن أحوالهم أيام بني الأحمر يكاد لا يروي فضول الباحث. ويخبرنا صاحب «الاحاطة» أن النصارى كانوا يقيمون شعائرهم الدينية في كنيسة تقع خارج الاسوار قرب باب البيرة(١). وفي سنة (٥٩٣ هـ/١١٢٦م) انضم نصارى غرناطة الى الأمير الأرغوني ألفونس المحارب في حملته على الاندلس، ولكن فشل تلك الحملة جعل قسماً من المستعربين يرحلون مع عيالهم ويستقرون في مرج غرناطة، وبقيت مجموعة كبيرة منهم في غرناطة(٢) وفي نهاية القرن الثاني عشر (الخامس للهجرة) لم يبق سوى قلة من النصارى انصرفت الى العمل في الارض(٣).

حافظ النصارى في مملكة بني الاحمر على حضورهم البارز في العالم الاسلامي الاندلسي، فالجنود والمسافرون والتجار والاسرى جعلوا الاحتكاك مستمراً بين أبناء الطائفتين فلم يكن بينهم انقطاع. وقد عرفنا أن أفراد الحرس الملكي كانوا على أيام محمد الخامس من النصارى الذين تطوعوا لحماية السلطان بعد تقبلهم الاسلام، وقد رافقوه الى المغرب بعد خلعه(٤). والعاصمة غرناطة كانت طوال العهد النصري ملجأ لرجال السياسة الافرنج، ونذكر على سبيل المثال «دون فيليب» و «دون نونيو» اللذين تركا قشتالة في عهد ألفونس العاشر وطلبا الحماية عند محمد الثاني(٥). وفي القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة) قام الفرنسيسكاني الاخ الفونس دي ميلا من سمورة ببدعة داخل الكنيسة أثارت غضب رجال الدين. فقد نادى بحرية تفسير التوراة وتأويل

---

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٠٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧ و ١٠٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.
(٤) راجع «التنظيم العسكري»، الفقرة المتعلقة بحراس القصر من هذه الدراسة.
(٥) A. Gimenez Soler, La Corona de Aragon y Granada, P. 374.

معانيها، ولقيت الدعوة استحساناً ورواجاً في بعض مناطق الشمال. ثم لوحق من قبل الحكام والكرادلة فلجأ هو وأتباعه الى مملكة غرناطة سنة (٨٤٨ هـ/ ١٤٤٥). ومن هناك كتب الى الملك القشتالي يوحنا الثاني رسالة يرد فيها على الاتهامات الموجهة اليه ويشكر أمير غرناطة الذي حضنه وحماه. وفيما بعد انقطعت اخبار تلك المجموعة الخارجة على تعاليم الكنيسة لان أحداً من المؤرخين لم يعد يهتم بها. وقد كثر عدد الذين هربوا من ممالك الافرنج ولجأوا الى المناطق الواقعة تحت النفوذ النصري وتقبلوا الاسلام(١).

وكان للنصارى دور بارز في حقل التجارة على الرغم من قلة عددهم، والتجار النصارى استقروا في المناطق الحدودية. ففي ألمرية أسهم النصارى في تنشيط حركة المرفأ وكانوا يدفعون الضرائب على السلع المستوردة. ويركز المؤرخون على الاكرام الذي كان يلقاه التجار النصارى الاندلسيون منهم والاجانب، وخاصة في عهد يوسف الاول. وتجدر الاشارة الى وجود قنصليات لممالك أراغون وقشتالة في ألمرية ومالقة وغرناطة مهمتها تسهيل أعمال رعاياهم من التجار والاهتمام بقضاياهم. وفي الثامن من رجب عام (٧٦٨ هـ/آذار ١٣٦٧م) أبرمت في غرناطة اتفاقية بين محمد الخامس وممثلين عن بطرس الرابع ملك أراغون سمح بموجبها للتجار الارغونيين التنقل بحرية في المناطق العربية بالاندلس والقيام بنشاطهم التجاري شرط أن يدفعوا الضرائب المعروفة(٢) وفي القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة) قويت العلاقات التجارية بين ايطالية والدولة النصرية، فعرفت المملكة عدداً من رجال الاعمال قدموا من جنوى وأنشأوا لهم مراكز تجارية في مالقة والمنكب(٣). ويطلق الاسبان اليوم

---

(١) Rev Al-Andalus, Vol. XV, 1950, PP. 233 - 247.

(٢) Capmany Monpalay, Memorias Historicas sobre la Marina, Barcelona, 1963. Vol. I, P. 281.

(٣) J. Heers, Le Royaume de Grenade et la Politique Marchande de Genes au XVe Siecle. Bruxelles, 1957. P. 94.

على أحد الاحياء القديمة الباقية من أيام العرب في مالقة اسم «قصر الجنويين» EI CASTILLO DE LOS GENOVESES.

ولا بد من الاشارة الى أن قسماً من نصارى المملكة دخل البلاد عن طريق الأسر، وكان الاسرى يصلون على دفعات نتيجة الكمائن والحروب والغزوات. أولئك الاسرى توزعوا في مناطق المملكة وبنوع خاص في العاصمة ورندة ومالقة وألمرية، وكانوا يكلفون بأشغال متنوعة، فالاسيرات كن يخدمن في البيوت وبعضهن كن حظيات لدى اسيادهن. أمّا الاسرى فكانوا يستخدمون في أعمال متنوعة منها طحن حب الذرة والقرصعنة، وجمع خيوط الكتان، وصنع الاخفاف، وقطع الاخشاب، وتسخين الحمامات الخاصة أو العامة. أما في المناطق الريفية فكان الأسرى يعملون في الارض ورعاية المواشي وتشغيل الطواحين(١).

ولا نعرف بالتحديد كم كان عدد الاسرى المسيحيين في مملكة غرناطة، لذلك نكتفي بايراد ما جاء في بعض المصادر الاسبانية حول عدد الذين حرروا بعد الاستيلاء على المدن. في مدينة رندة وجد الافرنج اربعمئة أسير (٨٩٠ هـ/١٤٨٥م) ووجدوا في لوشة مئة وأربعين (٨٩١ هـ/١٤٨٦م)، وفي غرناطة وجدوا سبعماية بين رجل وامرأة(٢). وتجدر الاشارة الى أن مجموعة من السلاسل التي كانت تقيد الاسرى في مالقة وألمرية ما تزال اليوم معلقة على الجدران الخارجية لكنيسة القديس يوسف التي بنيت في أواخر القرن الخامس عشر بمدينة طليطلة. ثم أن الاسر الطويل حمل عدداً من المسيحيين على اعتناق الاسلام، فعرف هؤلاء باسم المرتدين(٣).

---

(١) Rev. Al-Andalus, Vol. IX, 1944, PP. 198 - 218.

(٢) Rev. Al-Andalus, Vol. IX, 1944, PP. 198 - 218.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٨.

ولم يكن موقف الافرنج لا مبالياً من الاسرى المرتدين، فالمرتدون عن دينهم عوملوا بقسوة بعد سقوط المدن الاندلسية اذ اعتقلوا في ألمرية ومالقة وغرناطة وزجوا في السجون والاقبية. ثم أطلق سراح الذين اظهروا التوبة وعادوا الى مسيحيتهم(١).

أما انقاذ الاسرى، (افتكاكهم)، فكان يتم عن طريق الاتصالات بين غرناطة والدول المعنية بالامر. فالمعاهدة التي عقدت في جمادى الثانية عام (٧٢٤ هـ/آيار ١٣٢٤م) بين اسماعيل الاول وخايمي الثاني قضت بتبادل الاسرى بين الفريقين، كما عقدت اتفاقات مماثلة على أيام محمد الرابع ومحمد السابع(٢). ولم تقتصر عملية تبادل الاسرى على الاتفاقات بين الدول، بل إن الاغنياء من الاشراف والتجار والافراد الذين كانت لهم صداقات مع حكام غرناطة وأقاليمها اسهموا أيضاً في تحرير عدد منهم. وعلى سبيل المثال نذكر ما قام به تاجران ايطاليان هما «جيسار لوتسيا» و «برتولومي الجنوي»، فقد كانا يقيمان في غرناطة واستطاعا بعد الاتصال بحكام غرناطة وملك البرتغال أن يحررا عدداً من الاسرى في كلا البلدين. كما اهتم رجال الدين وخاصة الرهبان بأوضاع الاسرى في مملكة غرناطة، ففي السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) استطاع رهبان دير سيلوس أن يحرروا خلال أربع سنوات أكثر من اربعمئة أسير. وفي سنة (٨٥٢ هـ/١٤٤٧م) قام الغرناطيون بغزوة الى بلدة سياثا من أعمال مرسية واستاقوا رجال المدينة الى غرناطة، فقام أثنان من رهبان دير سيدة «غوادلوب» ودفعوا مالا فكّوا به اسار اولئك الرجال. وفي سنة (٨٦٧ هـ/١٤٦٢م) قام الاخ «كريستوبال سوليس» ومعه الاخ «ألفونسو بريرو» بافتداء مئة وثمانين أسيراً، واستردّ

---

(١) المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(٢) Gimenez Soler, La Corona de Aragon y Granada, PP. 332 - 333.

ستون أسيراً حريتهم سنة (٨٨٢ هـ/١٤٤٧م) وذلك بعدما دفع الرهبان عنهم الفدية[١].

ولا بد هنا من التلميح الى دور سكان المناطق الحدودية في عملية افتداء الاسرى، فقد قام أشخاص يتقنون العربية والقشتالية بدور الوساطة لدى الفريقين، وكان يطلق على من يهتم بأمور الوساطة اسم «الفكّاك». وقد عرف الفكاكون بالاستقامة والصدق وتمتعوا بثقة المسؤولين المسلمين والمسيحيين. وتبادل الاسرى كان يتم بوساطتهم على الحدود وفي الاماكن التي يعينونها، ولا شك في أن الفكاكين كانوا يتقاضون أجراً وعمولة بدل أتعابهم. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد (الثامن والتاسع للهجرة) أصبح للفكاكين شأنهم في عملية افتداء الاسرى، واشتهرت أسماء بعضهم أمثال برنغر سنيانا من مرسيه، ومارتين دي لارا، وفرناندو آرياس، وسعد الامين الغرناطي[٢].

وهكذا نجد أن النصارى كان لهم حضورهم البارز في العالم الاسلامي على عهد بني الاحمر. واهتمام المؤرخين العرب والاسبان بأخبارهم جعلنا نتعرف الى مختلف احوالهم، مع غض النظر عما يمكن أن تحمل تلك الاخبار من مبالغات.

٣ ـ اليهود:

لا نحتاج الى التذكير بالدور الكبير الذي كان لليهود في أثناء الفتح، بعدما وجدوا في العرب خلاصا من القوط واضطهادهم الديني. وقد تعززت مكانتهم على عهدي الولاة والأمويين وغدت مدينتا لوسينا وكرمونا مدينتين يهوديتين

---

(١) حول دور التجار والرهبان في افتداء الاسرى راجع: F. German, Rubio, Historia de Nuestra Senora de Guadalupe. Barcelona, 1962, P. 96.

يفيدنا الكتاب في الصفحة المذكورة انه تأسست جمعيات رهبانية لافتكاك الاسرى، فكان الراهب يقدم نفسه أسيرا مكان احد الاسرى.

(٢) Ramos Loscertales, El Cautiverio en la Corona de Aragon Durante Los Siglos XIII, XIV y XV. Saragoza, 1915. Reed. 1962, P. 1255.

مزدهرتين. وفيما بعد، عندما حاول يوسف بن تاشفين اكراه يهود الاندلس على دخول الاسلام، استطاع جماعة اليهود أن يبعدوا تلك الفكرة بدفعهم مبلغاً ضخماً من المال الى زعماء المرابطين. وفي سنة (٥٤٣ هـ/١١٤٨م) دخل الموحدون مدينة لوسينا ونكلوا بأهلها مما دفع بالشاعر اليهودي ابراهام بن عزره الى وضع قصيدة يدوّن فيها ما حلّ بأبناء دينه على أيدي الموحدين. ونتيجة لذلك لجأت مجموعات كبيرة من يهود الاندلس الى قشتالة وكتلونيا[١].

في غرناطة حيث يرقى وجود اليهود الى العهد الروماني أوكل الولاة العرب اليهم أمر حماية المدينة، وذلك في النصف الأول من القرن الثامن للميلاد (منتصف القرن الثاني للهجرة). فكثر عددهم هناك الى درجة جعلت الرازي يطلق على المدينة اسم «غرناطة اليهود»، وبلغ دورهم السياسي حد الخطورة في عهد الدولة الزيرية عندما تسلم الوزارة صموئيل بن نغراله (توفي عام ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٧م) ومن بعده ابنه يوسف. لكن انتفاضة مسلمي غرناطة أدت الى مقتل يوسف بن نغراله عام (٤٥٩ هـ/١١٦٢م) ومعه هلك من اليهود خلق كثير[٢]. وفي عام (٥٥٧ هـ/١١٦٢م) تظاهر يهود غرناطة بالاسلام بعدما أجبرهم المرابطون على تقبله، وعلى أيام الموحدين وقفوا الى جانب ابن مردنيش سيد مرسيه وبلنسيه في الانتفاضة التي قام بها بعدما اغتنم غياب ابن سعيد بن عبد المؤمن الموحدي. لكن الثورة سحقت واستعاد الموحدون غرناطة وقتلوا من سكانها اليهود عدداً كبيراً[٣].

أما على أيام بني الاحمر، فقد عرفت جماعات اليهود حقبة طويلة من الهدوء بفضل رعاية الحكام شؤونهم وتأمين مصالحهم. وقد جعل بنو نصر عليهم عينا ساهرة حالت دون قيامهم بأية انتفاضة معادية، وعاملوها كسائر أهل الكتاب

---

(١) Revista Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, P. 67.

(٢) Revista Al-Andalus, Vol. XXXI, 1964, P. 133.

(٣) Rev Al-Andalus, Vol V, 1936, P. 162.

والذميين الذين أمّن الاسلام حمايتهم. وجُعل لهم لباس يميزهم عن سائر الناس من المسلمين، فكانوا يعتمرون «قلنسوة صفراء اذ لا سبيل ليهودي ان يتعمم البتة»[١]. ويخبرنا ابن الخطيب أن أبا الوليد اسماعيل الاول أجبرهم على وضع شارة تميزهم عن المسلمين فيقول: «وأخذ يهود الذمة بالتزام سمة تشهرهم وشارة تميزهم ليفوا حقهم من المعاملة التي أمر بها الشارع»، وحظر عليهم ركوب الجياد[٢]، وأمّا النساء اليهوديات، فكن يعلقن بأرجلهن جلاجل صغيرة. ولا يعني ذلك أن حكام غرناطة دأبوا على مراقبة اليهود والضغط عليهم الى درجة تشعرهم بالغبن المستمر، فبنو الاحمر كانوا اكثر الملوك تسامحاً وافضلهم في الحفاظ على مصالحهم وتأمين الحرية في ممارسة شعائرهم وتقاليدهم. وفي سنة (٧٦٦ هـ/١٣٦٧م) استقبل محمد الخامس ثلاثماية عائلة يهودية هربت من اضطهاد القشتاليين ولجأت الى غرناطة، وفي سنة (٧٩٢ هـ/١٣٩١م) شهدت مناطق قشتالة وكتلونية وجزر البليار موجة اضطهاد حملت الناجين من اليهود على الفرار الى مملكة بني الاحمر[٣].

ويصعب على الباحث معرفة عدد السكان اليهود في المملكة النصرية، وجل ما يمكن التأكد منه هو أنهم توزعوا في المدن الكبرى حيث تجمعوا في أحياء خاصة بهم مع بيوت متلاصقة ودروب ضيقة وساحات صغيرة، وكان لهذه الاحياء معبدها وحماماتها. في مالقة سكن اليهود شرقي المدينة، وقد بقي الناس الى عهد غير بعيد يطلقون على قسم من ذلك المكان اسم مقبرة اليهود، وفي غرناطة تجمعوا في وسط المدينة وفي حي البيازين. وعندما طردوا من البلاد في سنة (٨٩٨ هـ/١٤٩٢م) هدم الملك القشتالي فرديناندو بيوتهم التي تقع في وسط المدينة وبنى مكانها كنيسة على اسم العذراء مريم. وعندما فتحت غرناطة

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٢٣.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٨٤.

(٣) حول اضطهاد اليهود في تلك الحقبة، راجع كتاب: J. Valdeon Baruque, Los Judios de Castilla y la Revolucion Trastamara, Valladolid, 1968.

أبوابها للقشتاليين كانت المدينة تحوي نحواً من خمسماية يهودي، مع العلم أنهم كانوا يقدرون بعشرين ألفاً في عهد محمد الخامس. وفي مدينة مالقة أسر الاسبان سنة (٨٩٣ هـ/١٤٨٧م) أكثر من اربعمئة رجل وامرأة من اليهود، وعندما دخلوا مدينة بلش في السنة نفسها وجدوا فيها خمسين يهودياً. ويمكن القول ان اليهود لم يتجاوز عددهم الالف نسمة داخل مملكة بني الاحمر في أواخر القرن الخامس عشر. وعندما وقّع الملكان ايزابيلا وفرديناندو في ٣٠ آذار (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م) على الوثيقة المتعلقة بشأن اليهود والتي فيها خيّر هؤلاء بين الرحيل أو التنصّر رحل الذين أبوا تغيير دينهم الى المغرب واستقروا فيه(١).

اهتم يهود الاندلس بأعمال محددة عرفوا بها، وأهمها ما يتعلق بالطب. فصموئيل بن نغراله كان طبيباً لبني زيري على أيام حبّوس بن ماكسن قبل أن يصبح وزيراً، وفي بلاط محمد الخامس النصري لمع اسم الطبيب اليهودي ابراهيم بن ثرثار، وأثارت شهرته حسد الطبيب الغرناطي محمد اللحمي الشقوري فوضع كتاباً بعنوان «قمع اليهود عن تعدي الحدود». وعندما خلع محمد الخامس وانتقل الى المغرب عام (٧٦٠ هـ/١٣٥٩م) لجأ ابن الثرثار الى قشتالة ومن هناك انتقل الى المغرب واتصل بسلطانه المخلوع، ثم عاد معه الى غرناطة(٢).

ومعرفة اليهود اللغة العربية والقشتالية جعلت بعضهم يعملون في الترجمة ومن المترجمين المشهورين عذرا الرندي الذي قام بدور الوسيط وتوضيح الاتفاقات قبل تسليم مدينة رندة عام (٨٩٠ هـ/١٤٨٥م)، كما أن أبا عبدالله آخر ملوك بني الاحمر كان يستعين بمترجمين يهوديين هما اسحق بردونيل وصهره بودا. ونشير هنا الى أن ملك أراغون بطرس الثالث كان يستعين بمترجمين يهوديين في مهمات رسمية لدى ملوك غرناطة وفاس هما صموئيل بن منسى وأخوه يهوذا(٣)

---

(١) Revista Al-Andalus, Vol XIX, 1954, P. 190.

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة، ج٢، ص ٤٢ - ٥٣.

(٣) Revista Al-Andalus, Vol XXXI, 1961, PP 1 - 46.

الى جانب ما ذكرنا اهتم اليهود بالصناعات الخفيفة ومنها الحلي، وبالاعمال التجارية المتنوعة وأهمها الحرير. أمّا تجارة الرقيق التي اشتهروا بها في العهد الاموي فلم تعد من اختصاصهم في العهد النصري. ولا ننسى ما كان لليهود من دور في الحقل الفكري اذ برز منهم كتاب وشعراء وفلاسفة وعلماء، كما اشتهرت اسماء يهودية في مدارس الترجمة بأشبيلية وبنوع خاص في طليطلة[١].

ب ـ الحياة الاجتماعية والعائلية:

كان المجتمع أيام بني الاحمر مكوناً من الاحرار والعبيد. وقد أوجدت الزراعة فئة الملاكين الغنية القابضة على زمام الاقتصاد، وفئة الفلاحين التابعين للارض التي فيها يعملون. وهناك التجار الذين جمعوا الاموال وابتنوا المنازل الفخمة وارتفعوا عن العامة، وألفوا مع كبار الملاّكين طبقة اعيان المملكة المتقدمة نفوذاً ومكانة، ولكن أبناء هذه الطبقة ظلوا دون الخاصة وابناء الحكم مكانة. والمعروف أن نفقات الدولة استهدفت قبل كل شيء خدمة الفئات النافذة التي مالت الى البذخ عن طريق القصور والرياش ومجالس اللهو والخمر والموسيقى والغناء واقتناء الجواري والغلمان. وقد ألف الاغنياء ما يمكن أن نسميه الفئة البورجوازية التي حصرت الاقتصاد في يدها وساعدت على ازدهاره، ويضاف الى فئة الاعيان صغار الملاكين وكبار الموظفين ورجال العلم والادب.

وكانت العامة تتألف من الحرفيين الصغار ومن العمال والاجراء والعاطلين عن العمل والعبيد، وهي تكوّن القسم الاكبر من السكان، ولم تكن حالة أبناء العامة مرضية بوجه الاجمال، وان لم تصل الى حد الزراية. وفي المدن

---

(١) Ch. E. Dufourcq: La Vie Quotidienne dans l'Europe Medievale sous domination arabe, PP 187 - 192.

كانوا يتجمعون في أحياء خاصة (البيازين)، وتنظر السلطة اليهم بحذر لانهم كانوا سريعي الهياج، ولذلك استعان بهم بعض المغامرين وحتى بعض السلاطين (أبو عبدالله) لتحقيق مآربهم[1].

أمّا الفلاحون، فلم يكن لهم دور نافذ في السياسة، ودورهم الثقافي لم يكن أفضل اذ ظلوا بعيدين عن اهتمامات الادباء الذين جعلوا همهم ارضاء أبناء القصور. وطبقة الفلاحين كانت تتعب وتكد فتجمع الغلال وتيسر للارستقراطية والبورجوازية حياة منعمة. وقد تسرب قسم من الفلاحين الى المدن خاصة بعد تكاثر الغزوات وعقب مواسم الجفاف[2].

بعد هذا العرض السريع للمجتمع النصري بمختلف فئاته، نحاول التعرف الى بعض الوجوه الاخرى من الحياة الاجتماعية، فنبدأ بالاسرة. فالمنزل الذي تدور في داخله الحياة الخاصة كان يشكل عالماً مقفلاً يحكمه رب البيت ويسنّ القوانين التي توافق طبعه والتي يستمدها من العادات المتوارثة والمستوحاة من الدين. وفي غيابه يتحرر البيت واحياناً تدب الفوضى، خصوصاً عندما تحاول النسوة وضع قوانين جديدة متناقضة ومتأثرة بالغيرة والحسد. وفي الاسر المتواضعة يغتنم الاولاد غياب الاب ليملأوا البيت ضجيجاً وصياحاً فيُطردون احياناً الى الشارع أو ساحة الحي. واذا عجزت ربة البيت الاولى عن فرض هيبتها لا تجد حلاً الا في انتظار عودة السيد الذي بدخوله يعود الهدوء ويستتب النظام. ونستنتج من هذا كله أن سلطة الاب كانت مطلقة على نسائه وأولاده وخدمه، وبيده مقدرات البيت ومصيره[3].

(١) حول المجتمع الاندلسي واقسامه، راجع: Ch. E. Dufourcq, La vie quotidienne dans l'Europe Medievale, PP 35 - 53.

(٢) المرجع السابق، والصفحات نفسها.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣.

والاسرة الاسلامية في المجتمع الاندلسي كانت على نوعين: الاسرة الغنية التي فيها تلتقي تحت سقف واحد زوجات عدة ومجموعة من الجواري، والاسرة الفقيرة التي يكتفي الرجل فيها بامرأة واحدة لعدم قدرته على اعالة امرأتين أو أكثر[١]. أمّا مراسم الخطبة وعقد المهر وحفلة الزفاف فأمور لم تختلف عما كانت عليه عند المغاربة والمشارقة. وما يمكن ملاحظته أن العرس كان يدوم بوجه الاجمال أسبوعاً كاملا في بيت العروس تنقل بعده الى بيتها الجديد حيث تزف الى عروسها، ثم تقام وليمة للرجال وأخرى للنساء[٢].

لم تكن الزوجة الجديدة في الاسرة الميسورة تخرج من منزلها الزوجي الا عند الضرورة، فكانت تقضي الساعات الطويلة في التبرج، ولا تتبدل رتابة العيش داخل المنزل الا عند استقبال الزائرات. أما أوقات التسلية القليلة خارج البيت فكانت زيارة الاهل والاقرباء وارتياد الحمامات العامة مرة أو مرتين في الشهر، وعند زيارتها المقابر نهار الجمعة[٣]. أمّا في الاسر الفقيرة ولدى طبقة العمال والحرفيين فكانت المرأة تساعد زوجها في أعماله فتمضي يومها في غزل الصوف والحياكة داخل البيت[٤].

والمرأة الاندلسية كانت تتمتع بقسط وافر من الجمال، وذلك بشهادة ابن الخطيب الذي يقول: «وحريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السمن وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب الشذا وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المحاورة، الا أن الطول يندر فيهن»[٥]. وبما أن ابتعادها عن الرجال أمر مسلم به فان الحجاب كان [illegible] ومظهراً مألوفاً لدى المرأة

(١) المرجع نفسه، ص ٦١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٦٠.
(٤) المرجع السابق، ص ٦٠.
(٥) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤١.

الاندلسية الحرة، فهي لم تكن تخالط الرجال ولا تشترك معهم في الاجتماعات العامة(١)، أما الجواري والقيان فكن يخالطن الرجال ويشاركنهم في احياء مجالس اللهو. ألاّ أن التحجب والابتعاد عن الرجال لم يكونا بصورة دائمة أمراً مقبولاً وفي كل الاحوال عند المرأة الحرة. فكثيراً ما عمدت النساء الى الالتقاء بالرجال في أوقات الصلاة وفي الاعراس. وفي الاحياء الشعبية كانت النساء تظهرن في أوقات الفراغ على أبواب البيوت حاسرات الوجوه. ويذكر ابن الخطيب أن النساء كن يخترقن صفوف الرجال وقد حسرن الخمار عندما تجمع الناس في مدينة وادي آش لاستقبال اميرهم يوسف الاول الذي كان يتقدم موكبه لدى زيارته مدينتهم في عام (٧٥٥ هـ/١٣٥٤م)، فكان «الاعجاب ببريق السلاح والعيون، وحمرة الرايات والشفاه»(٢).

وما يمكن قوله هو أن المرأة الغرناطية لم تكن بوجه الاجمال في عزلة تامة عن مجتمعها، فكانت تتمتع بوضع نسبي جيد وبقدر من الحرية لم تصل اليه زميلتها المشرقية. ولا شك في أن طبقة الخاصة الغنية وفّرت لها تربية حسنة وثقافة عالية على غرار ما كانت تتلقاه المرأة القرطبية أيام بني أميّة والاشبيلية أيام بني عباد. وقد عرف مجتمع بني الاحمر عدداً من النساء اشتهرت اسماؤهن في ميادين السياسة والعلم والادب، نذكر منهن على سبيل المثال مريم أم اسماعيل التي كانت محظية لدى يوسف الاول وكان لها الدور البارز في خلع محمد الخامس، كما تعرفنا الى الصراع على النفوذ والسلطة بين عائشة الحرة زوجة ابي الحسن علي بن الاحمر وخليلته ثريا، وهذا ما أوقع الخلاف بين طلاب العرش ودفع ملك بني الاحمر نحو الهاوية. ومن النساء اللواتي اشتهرن في اللغة والادب حمدونه بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية، وكانتا من شاعرات

(١) Ch. E. Dufourcq, La vie Quotidienne, P. 60.

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة، ج٤ض، ص ٣١٨.

الاندلس اللواتي يذكرهن المقري في «نفح الطيب»، وأم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالي الطبيب المشهور (ت ٧٥٠ هـ/١٣٤٩م) التي لمع اسمها في حقلي الطب والادب[١].

كان لا بد من هذا العرض السريع لاحوال المرأة الغرناطية لندرك كيف كان دورها داخل الاسرة. أما تربية الاولاد فكان دور المرأة فيه محدوداً وقلما تعدى مهمة توفير الغذاء والراحة الجسدية للولد، ذلك أن التوجيه الاخلاقي كان يستمد من الاب وآرائه، فشخصية المرأة كانت بصورة عامة تذوب في شخصية الرجل[٢].

من خصائص الاسرة الاندلسية الاخرى كثرة الانجاب في البيوت الغنية. وقد اهتم الناس بتعليق التعاويذ والتمائم الوقائية بعد الفطام، وكان يعقب اختتان الاطفال وليمة يدعى اليها الاقرباء احتفاء بهذه المناسبة ذات الطابع الديني والصحّي[٣].

وكانت الاسر العريقة تحرص على ابقاء الاصالة والحفاظ على طوابع موروثة من شأنها اعلاء قدر الاسرة. فبنو الاحمر اعطوا لابنائهم اسماء الاباء والاجداد ممن كانوا في أساس عظمة الاسرة، لهذا كثرت بينهم اسماء محمد واسماعيل ونصر ويوسف. كما تشابهت بينهم الكنى من مثل أبي الحجاج وأبي عبدالله. أما النساء فحملن أسماء عربية مشهورة في الاسلام كفاطمة وعائشة وخديجة، أما النصرانيات اللواتي تقبلن الاسلام فكن يحصلن على اسماء عربية امثال علوة والدة محمد الرابع، وبثينة والدة محمد الخامس، وشمس الدولة والدة نصر بن محمد، وثريا زوجة ابي الحسن علي بن الاحمر.

---

(١) المقّري، نفح الطيب، ج٤، ص ٣١٨.

(٢) المقّري، نفح الطيب، ج٤، ص ١٧١١ و ٢٨٧ و ٥٠٧.

(٣) E. Garcia Gomez, Cinco Poetas Musulmanes, P 221.

في الجنازات كانت البساطة مظهراً تعتمده العائلات، ولم تكن المراسيم المتبعة مختلفة عما كانت عليه في سائر أنحاء العالم الاسلامي. والمعروف أن البياض كان لون الحداد عند الامويين، والازرق لباس الحداد عند الموحدين، أما بنو الاحمر، فقد اختاروا اللون الاسود في لباس الحداد[1]. وقد جعلت المقابر خارج الاسوار في المدن الاندلسية. ففي رندة اليوم حيّ يعرف باسم باب المقابر كان بالامس مقبرة المسلمين، وبالقرب من باب ألبيرة في غرناطة حقل مزروع بالزيتون كان فيما مضى مقبرة للمسلمين. وكان المدفن عند العامة حفرة مستطيلة تُغطّى بالحجارة وتثبت فوقه لوحة تحمل الرقم المدوّنة لاسم الفقيد وكنيته ولقبه وتاريخ وفاته. أما الامراء والاغنياء فكانوا يشيدون فوق مدافنهم القباب ويحيطونها بسياج من حديد، ولم تكن تلك المدافن على أية حال غنيّة بالزخارف والرسوم كما كانت الحال في مقابر النصارى[2].

أما المنزل العربي في المجتمع الغرناطي، فكان له خصائصه المميزة. وأول ما لاحظه المسافرون الاوروبيون الذين زاروا الاندلس بعد سقوطها بيد الاسبان في أواخر القرن الخامس عشر (التاسع للهجرة) هو أن شوارع المدن ضيقة والمنازل صغيرة الحجم[3]. ويبدو الحائط الخارجي للبيت خالياً من النوافذ المطلة على الشوارع، وبعض البيوت يتخلل حيطانها نوافذ صغيرة عالية ومشبّكة بحصيرة خشبية تسمح للمرأة أن تنظر الى الخارج والى الشوارع والمارة فترى ولا تُرى. والمعروف أن بعض هذه المنازل ما يزال قائماً في مدينة الحامة وفي حي البيازين من غرناطة.

في بيوت الطبقة المتوسطة والفقيرة ينفتح الباب المكوّن من مصراعين ومطرقة على رواق يؤدي الى بهو أو فناء في وسطه بئر أو بركة ونافورة. والفناء،

(١) Encyclopedie de l'Islam, T II, PP 453 - 454 (Djanaza).

(٢) Revista Al-Andalus, XXII, 1957, PP 130 - 189.

(٣) Revista Al-Andalus, II, 1934, PP 380 - 387.

في البيوت المتواضعة كما في القصور، يكون مربع الشكل ويساعد على تأمين النور والهواء لسائر الاقسام الموزعة حوله، كما أنه الفسحة التي تخرج اليها النسوة في اوقات الفراغ لتنشق الهواء النقي وللنزهة بعيداً عن الانظار. وأبهاء بعض البيوت عند الطبقة المتوسطة والغنية تحاط بأروقة ذات أعمدة رخامية أو قرميدية تصطف وراءها الغرف، وبين هذه الغرف واحدة لاستقبال الضيوف. وفي احدى زوايا الفناء سلّم يؤدي الى قسم علوي فيه غرفة أو أكثر وهو مخصص للنساء(١).

ثم أن المنازل بوجه عام تبدو من الخارج بسيطة متشابهة ويغلب على جدرانها اللون الابيض، ولكنها بالمقابل غنيّة من الداخل اذ يظهر السخاء في زخرفة السقوف. واهتمام الاندلسيين بتزيين البيوت يعبر عن ميلهم الى الزخرفة الدقيقة، فمنذ القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) بدأوا يرصفون البيوت بالخزف. والمربعات الخزفية حلت في عهد بني الاحمر مكان الرخام في زخرفة البيوت، فزيّنت الاحواض وعتبات الابواب بأشكال نجمية رائعة الجمال(٢).

والمنازل العربية في الاندلس، كما في سائر العالم الاسلامي، كانت تعتمد البساطة في الاثاث، فالغنى الذي نجده في البناء من الداخل لا نقع عليه في الاثاث الذي قلما تغير من منزل الى آخر. ففي بيوت الاغنياء كانت جدران غرف الاستقبال والنوم تزين بستائر حريرية، والارض تغطي بالسجاد الفاخر الذي غلبت عليه الالوان الزاهية، أما عند الفقراء فكانت الجدران عارية والارض مفروشة بالبسط والحصر. وكانت غرف الاستقبال تحتوي على ديوان طويل ملتصق بالحائط وقليل الارتفاع، وفوقه المساند والطنافس. ولم تكن هناك غرف للطعام، فالمائدة كانت طاولة مستديرة صغيرة يوضع فوقها الطعام وتحمل الى الديوان(٣).

---

(١) Revista Al-Andalus, XIV, 1949, PP 186 - 197.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٠٢.

(٣) G. Marcais, L'Architecture Musulmane d'Occident Paris, 1954 P, 351.

وفي غرف النوم كانت الاسرة الخشبية أو الحديدية قليلة الارتفاع، ولكن شكلها تغير في القرن الخامس عشر اذ أصبحت شبيهة بما عند الاسبان. ولم يكن في غرف النوم خزانات بالمفهوم الحديث للكلمة. فالثياب كانت ترتب داخل صندوق من خشب الصنوبر أو في كوة بجدار الغرفة[١].

ولا بد من الاشارة الى أن هناك مجموعة كوى في جدران غرفة الاختين بقصر الحمراء وفي بعض ممرات قصر جنة العريف، أعدت لوضع اباريق المياه الباردة والشراب المنعش لزوار القصر.

في بيوت الطبقة المتوسطة والغنية كان هناك مستودع لخزن جرار الزيت والطحين والخل والحبوب وغير ذلك مما يتعلق بمؤونة العائلة. وفي الاسر المتواضعة كان المغزل وآلات الحياكة من الاشياء الاليفة داخل كل بيت.

وكان الاندلسيون يستعملون الشموع لانارة منازلهم، كما اقتنوا القناديل النحاسية والفخارية التي تضاء بواسطة الزيت. وكانوا في الشتاء يشعلون الفحم في كوانين من حديد أو نحاس أو طين، واستعمل بعض الاغنياء كوانين حجرية ورخامية[٢].

ولا بد، قبل مغادرة المنزل العربي أيام بني الاحمر، من الاشارة الى أن المطبخ الغرناطي كان غنياً ومتنوعاً اذ التقت فيه أطباق متنوعة عربية وبربرية واوروبية. وكان الطعام بسيطاً عند الفقراء ومركبا عند الاغنياء. وتجدر الملاحظة الى ان وجود الاكل المحلّى والفواكه المتنوعة كان امراً طبيعياً، كما كانوا يجففون الفاكهة لتقدم في غير اوانها «ويدخرون العنب سليماً من الفساد الى

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٥٢.

(٢) Revista Al-Andalus, II, 1938, PP 389 - 390.

ثلثي العام، الى غيره من التين والزبيب والتفاح والرمان والجوز واللوز، الى غير ذلك مما لا ينقطع مدده»[١]. ومن أدوات المطبخ أطباق الفخار وقدور النحاس والمقالي والموقد ومكان الخبز وغير ذلك....

بعد عرض أهم ما يتعلق بالمنزل الغرناطي، نحاول أن نتعرف الى اللباس وأنواعه في العهد النصري، ولا يمكننا رسم لوحة كاملة للباس المسلمين آنذاك، بالرغم من أهميته، وذلك بسبب افتقار المصادر والمراجع العربية والاجنبية الى الدقة والتفصيل حول هذا الموضوع.

يخبرنا ابن الخطيب ان الغالب بالله محمد الاول مؤسس الدولة النصرية دخل مدينة غرناطة «وعليه شاية ملف مضلّعة أكتافها ممزقة»[٢]. وجاء في «اللمحة البدرية» ان اللباس الغالب على طبقاتهم «الملف المصبغ شتاء، وتتفاضل اجناس البزز منه بتفاضل الجدات والمقادير، والكتان والحرير والقطن المرعزي، والاردية الافريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً. فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الاهوية المعتدلة»[٣]. فمّما جاء يمكننا القول إن الزي النصري تأثر بالمحيط الذي انتمى اليه، فالشاية معطف قصير من صوف كان يرتديه الرعاة في المناطق الجبلية بقشتالة وشمالي اسبانيا، كما أن الاردية كانت متعددة الاشكال والاجناس بحسب تعدد المناطق الافريقية والاندلسية التي أثرت في الزي النصري[٤].

«والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة الا ما شذّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند المغاربة منهم»[٥]. وفي مجال الحديث عن ترك الاندلسيين

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٨ و ٣٩.

(٤) Encyclopedie de l'Islam, T II, PP 415 - 416 (DJALLAB).

(٥) اللمحة البدرية، ص ٣٩.

لبس العمامة وتأثرهم بزي جيرانهم نستمع الى ما جاء على لسان ابن سعيد الذي شهد قيام الدولة النصرية: «وأما زي أهل الاندلس، فالغالب عليهم ترك العمامة، لاسيما في شرق الاندلس، وأن أهل غربها تكاد لا ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشارا اليه الا وهو بعمامة. وقد رأيت عزيز بن خطاب (ت ٦٣٦ هـ) أكبر عالم بمرسية، وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره. وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب. وابن هود الذي ملك الاندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الاندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الاحمر الذي معظم الاندلس الان في يده. وكثيراً ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من الاشكرلاط»[١]. وكانت القلنسوة قد حلت مكان العمامة، ففي متحف «جنة العريف» بغرناطة صورة لابي عبدالله آخر سلاطين بني نصر يظهر فيها بقلنسوة عالية شبيهة بما كان رائجاً عند القشتاليين.

«أما الطيلسان، فلا نجد في خواص الاندلس وأكثر عوامهم من يمشي من دون ان يرتديه، الا أنه لا يضعه على رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون. وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة لليهود»[٢]... وكانت الجبة الحريرية من لباس الخاصة، دخلت الاندلس مع زرياب ولبسها الاغنياء من رجال ونساء، أما العامة فكانت الجبة عندهم من قطن أو صوف. أما البرنس المغربي المصنوع من القماش الفاخر، فكان لباس السفر، اتخذه الاندلسيون لباساً لهم منذ العهد الاموي، وفيما بعد انتقل الى المناطق النصرانية فلبسه الرجال والنساء مدة طويلة، فكانوا يرتدونه في أوقات الشتاء[٣].

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٢٢ و ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٣) E. Levi Provencal, La Civilizacion Arabe en Espana, Buenos Aires, 1958, PP 68 - 71.

ونشير هنا الى أن الرجال والنساء كانوا ينتعلون أخفافاً سوداء طرفها الامامي مستطيل ومعقوف. وفي داخل المنزل انتعلوا الصندل الجلدي والقبقاب الخشبي(١).

وقوي اهتمام الاندلسيين بالجواهر والحلي أيام بني الاحمر، ويخبرنا ابن الخطيب أن يوسف الاول كانت لديه مجموعة من الجواهر الثمينة والاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والزبرجد واللؤلؤ، كما اهدى هذا السلطان الى الامير المريني عبد الحق علي خفين مرصعين بالاحجار الكريمة(٢).

وكان للمرأة المسلمة ميل نحو التزيين وذوق رفيع في عملية اختيار العقود والاساور والخواتم. ويذكر ابن الخطيب أن النساء في عصره كن يبالغن في اتقان اللباس الموشى بخيوط الذهب، والتزين بالقلائد والدمالج والخلاخل والاقراط، وهذه كانت من الذهب الخالص لدى طبقة الخاصة، ومن الفضة لدى العامة(٣). وقد عثر المنقبون في مقابر غرناطة وألمرية على مجموعة حلي تمتاز بالدقة المتناهية، وهذه المجموعة معروضة اليوم في المتحف الأثري بمدينة مدريد، وتتألف من قلادة وقرطين من الذهب وعقد من اللؤلؤ، ويعود تاريخها الى القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة).

ولا شك في أن الطيوب والمراهم والعطور وسائر أدوات التبرج كانت أولى اهتمامات المرأة الاندلسية أيا كان وضعها الاجتماعي وحالتها المادية. والمعروف أن العطور كانت تستخرج من الليمون والازهار والحشائش، كما استعمل الملح والصابون لتنظيف الاسنان(٤) وبعض الطيوب كان يستورد من الخارج، و «أصول الطيب خمسة أصناف: المسك والكافور والعود والعنبر

---

(١) Revista Al-Andalus, XXIV, 1959, PP 125 - 181.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٤) E. Levi Provencal, La Civilizacion Arabe en Espana, P 70.

والزعفران، وكلها من أرض الهند، الا الزعفران والعنبر فانهما موجودان بأرض الاندلس»[1]. وقد استعمل الكحل للعينين ووضعت الحنة على الاظفار، ودرجت بين النساء والرجال عادة صبغ الشعر بالحنة، والمعروف أن القشتاليين لقبوا السلطان محمد السادس بالملك الاحمر لأنه كان يصبغ رأسه ولحيته بالحنة الزاهية، كما أن القاضي خالد البلادي الذي عاصر ابن الخطيب كان يصبغ لحيته بالحنة وبالقرطم أو المعصفر[2].

ننتقل الى قضية مهمة في حياة الاندلسيين هي العناية بالمظهر الخارجي والنظافة العامة. يقول المقري: «وأهل الاندلس أشد خلق الله عناية بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها»[3]. والمعروف أن الحمامات الخاصة والعامة المنتشرة في المدن والقرى الاندلسية كانت تلقى العناية الخاصة من حيث الصيانة والنظافة وتأمين الراحة للمستحمين. فالامراء وأبناء الخاصة بنوا الحمامات في قصورهم، بينما كان أبناء الطبقة الفقيرة يقصدون الحمامات العامة المنتشرة في الاحياء الشعبية. والاثار الباقية اليوم في مختلف المناطق لا تعطي الا فكرة محدودة عن الحمامات التي كثرت أيام بني الاحمر. وقد تشابهت أشكال الحمامات العامة اذ كان الحمام يتألف من ممر يؤدي الى غرفة كبيرة تحوي صفاً من الخزانات الخشبية تعلق فيها الثياب، وتسمى هذه الغرفة «المشلح». ومنها ينتقل المستحم الى غرفة المياه الفاترة فيجلس على مقعد حجري يتسع لعدة أشخاص، وفيها يقوم خادم بعملية الغسل بالمياه والصابون، وبجانب هذه الغرفة مضجع خشبي مستطيل يقوم فيه اختصاصي بعملية التدليك لمن يشاء. ثم ينتقل المستحم الى غرفة المياه الساخنة ويصب على جسمه المياه بواسطة أوعية خشبية، وتؤخذ

(١) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ١٩٩.

(٢) J. Caro Baroja, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 1957, P 129.

(٣) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٢٣.

المياه من بركة في وسط الغرفة، والمياه الساخنة تصل الى البركة من صهريج خارجي تسخن مياهه بالحطب. وبجوار الغرفة الاخيرة مكان ينتظر فيه المزينون زبائنهم. ثم يعود المستحم الى حيث وضع ثيابه عن طريق ممر جانبي. وبسبب عدم وجود نوافذ في الحمام، فقد كان الضوء ينفذ الى الداخل بواسطة كوى زجاجية تثبت في السقف. ولم تكن الحمامات العامة متوفرة لدى أبناء المدن وحدهم، فالقرويون كانت لديهم حماماتهم أيضاً، وما تزال اليوم في جبال البشرات وفي ضواحي غرناطة معالم واضحة عن الحمامات القروية[1].

ثم إن النساء كن يقصدن الحمامات أكثر من الرجال، وغالباً ما كن يخرجن في أوقات العصر، ولم تكن الحمامات مكان الاغتسال والتدليك وصبغ الشعر فحسب، بل إن النساء كن يغتنمن تلك الاوقات لعقد اللقاءات وتبادل الاحاديث الطويلة المتنوعة[2].

ومن المفيد الاشارة هنا الى أن المدن الاسبانية في القرون الوسطى تأثرت بمدن الاندلس الاسلامية فعرفت الحمامات العامة التي انتشرت بين النصارى واليهود، وكذلك بين المدجنين أو المسلمين الذين عاشوا تحت سلطان الاسبان. وكان للملوك وأبناء الاشراف والرهبان وعامة الشعب حماماتهم[3]. وتفيدنا كتب المؤرخين أن بعض الحمامات في ميروقة ومدريد كانت تؤجر الى النساء المدجّنات، وفي الحي الاسلامي من مدينة «ترسونا» من أعمال أراغون بنى أحد الاغنياء حماماً سنة (٧٧٦ هـ/١٣٧٥م) كان يقصده أبناء المدينة من كل الطوائف، الا أنه حظر على النصارى واليهود دخوله في الاعياد الاسلامية وأيام الجمع[4]. وفي مطلع القرن السادس عشر أظهر رجال الدين الاسبان

(١) حول موضوع الحمامات راجع: Encycl de l'Islam, III, PP 145 - 149 (Hammam).

(٢) Revista Al-Andalus, XXIII, 1958, PP 408 - 417.

(٣) Revista Al-Andalus, XI, 1946, PP 443.

(٤) Revista Al-Andalus, IX, 1944, PP 218 - 226.

معارضتهم لعادة ارتياد الحمامات، وكانت معارضتهم شديدة الى درجة حملت الملك فيليب الثاني على اصدار أمر باقفال الحمامات في كل المناطق. وهكذا فان الحمامات التي بنيت في العهد النصري بغرناطة وسواها اقفلت نهائياً في أول شباط من سنة ١٥٦٧(١).

والحديث عن النظافة والحمامات يحملنا على ذكر ما يتعلق بالصحة العامة في العهد النصري. ولا بد هنا من الاشارة الى ما حل بالعالم من ويلات بسبب الطاعون الذي اكتسح الشرق والغرب في النصف الاول من القرن الرابع عشر (الثامن للهجرة). وكان للمملكة النصرية نصيبها من هذا الوباء الذي انتشر في المدن ذات الكثافة السكانية، وفي الاحياء الشعبية بنوع خاص.

والطاعون الكبير أو الطاعون الاسود كما يسميه المؤرخون انطلق من آسيا الوسطى سنة (٧٣٥ هـ/١٣٣٤م) ووصل الى أوروبا فاجتاح مناطق كاملة من فرنسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية، كما وصل الى اسكندنافيا في سنة (٧٤٨ هـ/١٣٤٧م)(٢). وفي أيار من سنة (٧٤٩ هـ/١٣٤٨م) بدأت تظهر اصابات الطاعون في برشلونة وبلنسية وميروقة فمات منه خلق كثير. وفي مستهل ربيع الاول عام (٧٤٩ هـ/آخر حزيران ١٣٤٨م) ظهر الوباء في مدينة ألمرية وانتشر بكثرة في خريف تلك السنة وخاصة في ضواحي المدينة حيث تجمعات الفقراء والمتسولين الذي ماتوا بالمئات. ثم انتقل الوباء في السنة نفسها الى مالقة وضرب الاحياء الفقيرة، فكان يموت فيها كل يوم اكثر من مئة مصاب. وهذا الامر زرع الرعب في قلوب السكان ففر قسم كبير الى المنطقة البعيدة عن خطر الطاعون. ويعدد المؤرخون العرب والاسبان بعضاً من المدن والمناطق التي اشتد فيها هذا المرض فكان ظهوره في ألمرية ومالقة وغرناطة وبلش أقوى من سائر المدن(٣).

---

(١) Encyclopedie de l'Islam, T III, PP 145 - 149 (Hammam).

(٢) La Grande Encyclopedie Larousse, (PESTE).

(٣) J. Heers, L'Occident aux XIVe et XVe Siecle, Paris, 1963, P 90.

الى جانب الطاعون عرف المجتمع الاندلسي أيام بني الاحمر أمراضاً أخرى كانت في أيامهم غير قابلة للشفاء، منها مرض الجذام أو البرص الذي كان نادراً ومحصوراً. ولا ندري ما إذا كان المسؤولون عن الصحة العامة يجمعون المصابين في أحياء معزولة كما فعل السلطان المريني أبو يعقوب يوسف الذي حصر المصابين بهذا الداء المستعصي في حي منعزل من مدينة فاس سنة (٦٦٢ هـ/١٢٦٤م).

وكما في اكثر البلدان الاسلامية كان الممرورون أو المصابون بالجنون يتركون أحراراً وبدون معالجة، الا اذا كان المصاب بعقله يشكل خطراً على المجتمع، فكان المجانين يجمعون بأمر المحتسب في دور شبيهة بدور العجزة ويؤمن لهم الغذاء والراحة وتقام عليهم حراسة دائمة.

لا يعني كل ذلك أن الدولة النصرية لم تهتم بالصحة العامة، بل على العكس من ذلك اذ كان الطب متطوراً أكثر من سائر البلدان المجاورة. وفي متحف الحمراء اليوم لوحة حجرية نقش عليها تاريخ انشاء المارستان في غرناطة والذي بوشر البناء فيه على أيام محمد الخامس في محرّم من سنة (٧٦٧ هـ/١٣٥٦م) وانتهى بناؤه بعد مرور سنتين. وكان هذا المستشفى مؤلفاً من جناحين، واحد للرجال وآخر للنساء. وكل جناح من طبقتين، بينهما بهو كبير في وسطه بركة ماء تصب فيها عدة نوافير. ولكن هذا البناء أهمل فظهر فيه الخراب والتصدع فهدم في القرن الماضي (١٨٤٣م)(١).

في مجال تعداد خصائص المجتمع الاندلسي، لا بد من التوقف عند وسائل التسلية عند أبناء المدن والقرى الغرناطية، وأول ما نفكر به في صدد التسلية هو الصيد. ونعلم أن هذه الهواية رافقت حياة العربي في الجاهلية والاسلام وشملت قسماً كبيراً من نشاطه. وقد وصلتنا الروايات الطريفة حول الصيد وأنواعه والمخاطر

(١) Revista Al-Andalus, IX, 1944, PP 481 - 498.

التي تنتظر من يسعى وراء الحيوانات البرية والوحوش الكاسرة، وبالغ الرواة في سرد أخبار بعض المغامرين فوصلوا حد الخرافة. كما انعكس الاهتمام بالصيد على الشعر العربي الذي أفرد للطرديات حصة وفيرة جعلته من الفنون الشعرية البارزة. وقد أظهر الاندلسيون ميلاً شديداً الى الصيد الذي فاقت لذاته عند بعضهم سائر أنواع اللهو، وبقي في عهد بني الاحمر شغل الناس في أوقات فراغهم.

ويخبرنا ابن الخطيب ان محمد الرابع «كان مغرماً بالصيد عارفاً بسمات الشفار وشبات الخيل»(١)، كما يظهر ابن زمرك في طردياته شغف محمد الخامس بالصيد(٢). وقد كثرت الحيوانات البرية في جبال شلير ومنها الدبب والغزلان، وفي سقف القاعة الكبرى ببرج قمارش في قصر الحمراء رسم يظهر مجموعة كلاب تطارد غزال الايل بينما يتهيأ فارس عربي لطعنه بالرمح، وفي متحف الحمراء اناء خزفي عليه رسوم لعدد من الغزلان.

في ليالي الشتاء الباردة كانت فصائل من الثعالب والذئاب تحوم حول المدن والقرى، فتسطو على الحظائر وتفسد المزروعات. لذلك كان الناس ينصبون الافخاخ للقضاء عليها، كما كانوا يعمدون الى الاسلوب نفسه لالتقاط الارانب البرية.

وكانت المناطق الغرناطية غنية بالطيور على أنواعها منها الحجلان والبط والتدارج والحمام البري، وقد لجأوا الى طيور الباز لاصطياد هذه الطرائد، وكانت تربية الباز رائجة ويستوجب تدريبه على الصيد خبرة ومهارة اشتهر بهما الغرناطيون(٣).

من الهوايات الاخرى التي شغف بها أبناء المملكة الالعاب الرياضية وفي طليعتها الفروسية وسباق الخيل ورمي الجريد، والمعروف أن هذه الالعاب كانت

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٠.

(٢) E. Garcia Gomez, Cinco Poetas Musulmanes, P 219.

المقري، نفح الطيب، ج٧، ص ٢٦٤.

(٣) Ch. E. Dufourcq, La vie Quotidienne dans l'Europe Medievale, PP 102 - 104.

الرياضة المفضلة لدى العرب لكونها أبرز مظاهر الرجولة. حتى أن بعض أبناء مملكتي أراغون وقشتالة كانوا في مراسم معينة يقصدون غرناطة للمشاركة في أعمال الفروسية في الحفلات. «وكان السلطان محمد الرابع أفرس من جال على صهوة، لا تقع العين، وان غصت الميادين على أدرب بركض الجياد منه»(١). وفي احدى قصائد ابن زمرك، وصف لسباق الخيل حضره محمد الخامس وأظهر حماسته للمتسابقين(٢).

الى جانب ذلك كان قتال الحيوانات من المشاهد التي يجد فيها الناس تسلية كبرى ولذة خاصة. فقتال الديكة كان لعبة شعبية راجت بنوع خاص في القرى وبعض الاحياء الشعبية في المدن، وفي أثناء وجوده ببلاد المغرب سنة (٧٥٥ هـ/١٣٥٤م) حضر ابن الخطيب احتفالاً تخلله قتال نشب بين أسد وثور انتهى بمقتل الاسد بعدما أصيب بجرح بليغ(٣). وهي اليوم الرياضة المفضلة في اسبانيا وبعض بلدان أميركا اللاتينية. وكان الغرناطيون يجمعون بين ثور ومجموعة كلاب في ميدان مقفل، وبعد معركة سريعة يدخل احد الفرسان الحلبة ومعه رمح فيعمد الى مناوشة الثور قبل الاجهاز عليه(٤).

فضلاً عما ذكرنا، كان الاندلسيون يهتمون بألعاب تستلزم مهارة عقلية وأهمها الشطرنج. وقد راج اللعب بالشطرنج منذ القرن التاسع للميلاد (الثالث للهجرة)، وقد أقبل ملوك بني الاحمر والاعيان على الشطرنج فاشتهر به يوسف الثاني، ويذكر ابن الخطيب في كتاب الاحاطة أن الاديب احمد الرعسي الغرناطي كان صاحب شهرة واسعة في لعب الشطرنج(٥).

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٩٠.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص ١٧٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٦، ص ٤٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ٤٦٠ - ٤٦٣.
(٥) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٣٩.

ونشير أيضاً الى لعبة الحظ كالنرد والرهان على أنواعه، كما مارس الغرناطيون ألعاب الميسر سراً لان الدين يحظره، وكان هم المحتسب مراقبة النوادي التي يقصدها المقامرون وملاحقة مروجي الالعاب الممنوعة[١].

وما دمنا في الحديث عن حياة اللهو نذكر أن أبناء المملكة كانوا يعيشون في رخاء وسعة، بالرغم من عدم الاستقرار السياسي، ويهتمون بالاحتفالات في الاعياد حيث كانت النساء تظهرن سافرات وتشاركن في مباهج الحياة. وكثرت عندهم مجالس اللهو والترف حيث الشراب والرقص والغناء، والنساء الراقصات كن في أثناء الرقص يرتدين لباس الغلمان. ويزعم بعضهم أن عادة تناول المخدرات عرفتها فئة من الغرناطيين في مطلع القرن الرابع عشر (الثامن للهجرة). ولا بد من ذكر ميلهم الى الحياة الجنسية بعد تكاثر الجواري والغلمان فتمادى بعضهم في الشذوذ الاخلاقي[٢].

وما يمكن قوله هو أن المجتمع الغرناطي كان قد وصل الى مرتبة عالية من التطور في ميادين الحضارة، وهو مجتمع توفر فيه قسط كبير من الحرية. ولم ينس حياة المرح حتى في أيام المحن، ولم تغمره الكآبة الا عندما دقّ الاسبان أبواب عاصمتهم غرناطة.

في نهاية كلامنا على المجتمع النصري نحاول التعرف الى الشارع الغرناطي، ومن السهل ان نتمثل منظر الشوارع والازقة في المدن النصرية في أيام العمل العادية. فأخبار المؤرخين والرحالة تشكل شريطاً يعرض مشهد الاسواق الصاخبة والساحات الضاجة بكل شيء.

في الاسواق المسقوفة كان صغار الباعة يقفون على مداخل الحوانيت وينادون على بضائعهم لاستجلاب المارة، وغالباً ما تغدو المناداة صياحاً تختلط

---

(١) Ch. E. Dufourcq, L'Europe medievale, P 120.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

معه الاصوات. كما أن الناس كانوا يتحلقون حول الباعة المتجولين الذين يختارون مكاناً يعج بالمارة لعرض بضائعهم المتنوعة. وكان المحتسب يحرص على منع أبناء القرى المجاورة لغرناطة من ادخال دوابهم الى سوق «القيصرية» وربطها في الأزقة الضيقة[1].

وكان بعض المشعوذين يطوفون الاحياء ويبيعون التمائم والتعاويذ، ويحملون معهم الطيور الغريبة قصد ايهام الناس وخداعهم. أمّا الساحات فكان يقصدها القرّادون بحيواناتهم المدربة على الحركات الطريفة، وكان الناس ينتظرون البهلوانيين والسحرة في مواسم معينة.

ومن خلال مقدمة ابن خلدون حيث يسخر المؤرخ من المنجمين والسحرة نتعرف الى فئة ممن يدعون معرفة الغيب والغد ويستقبلون الناس في دكاكينهم، وكانوا «ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس على معرفة غدهم، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحصب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المندل، وهو من المنكرات الفاشية»[2].

وفي أسواق المدن النصرية كان الناس يلتقون ببائعي الحشائش الطبية ومستحضري الدهن والكحل، وقلما كانوا يثقون بهؤلاء الباعة الذين فشى الغش بينهم بالرغم من ملاحقات المحتسب.

ومن المشاهد الاليفة في الاندية العامة وجود القصاصين الذين حفظوا أخبار العرب وسير عظمائهم، فكانوا يجمعون الناس ويروون القصص بمهارة نادرة. ولا ننسى أيضاً وجود طائفة من المتسولين كان أفرادها يستوقفون المارة ويطرقون

---

(١) Encyclpedie de l'Islam, IV, P 873 (KAYSARIYYA).

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٠.

الابواب ويحركون القلوب بدعائهم الرقيق لاستدرار الاحسان. وبعض اولئك المتسولين كانوا يتظاهرون بالفقر فيجعلون الكدية سبيلاً لرزقهم، وكان ذلك المظهر من الامور التي شغلت المحتسبين الذين كانوا يلاحقونهم.

ويضيق المجال أمام ذكر كل ما يتعلق بمظاهر الحياة اليومية في الشارع الغرناطي. ويكفي أن نقوم اليوم بجولة في الاحياء القديمة من مدن المغرب ولاسيما فاس ومراكش وسبته لكي نأخذ من مظاهر الاسواق صورة عما كانت عليه المدن المغربية والاندلسية، فالحاضر هو في كثير من وجوهه امتداد للماضي. بل يكفي أن ننتقل في أزقة غرناطة ومالقة وألمرية الباقية من أيام العرب لندرك بوضوح أن الحركة في الشارع الغرناطي كانت بعيدة عن الرتابة وتضج بالحياة. فمنظر الاحياء الباقية من أيام العرب هي أشبه ما تكون بمقهى كبير فرغ من رواده بعد حفلة صاخبة.

ج ـ الاقتصاد النصري:

اهتم سكان مملكة غرناطة بالزراعة فكانت مورداً أساسياً ومن الدعائم الاقتصادية في البلاد. والذي ساعد على ازدهار الحياة الزراعية أن طبيعة الارض حوت الكثير من الأودية والهضاب والسهول الخصبة، فنهر شنيل الذي يعبر البلاد ساعد على وجود بسائط خضراء تتخللها الترع والقنوات وتكثر فيها الخضار والأشجار المثمرة من كل نوع. أما المرج الفسيح غربي العاصمة، فهو غني بالحقول الخصبة التي تعطي أكثر من موسمين في العام وينتج ما يفيض احياناً عن حاجات المملكة، وقد تغنى ابن الخطيب في غير مكان بغنى الارض وكثرة المياه[1].

برع الغرناطيون في فلاحة الارض وتربية المواشي وغرس الحدائق، فأعطوا الارض وجهاً باسماً. وقد نقلوا من المشرق والمغرب أنواعاً من النباتات كالقطن

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٣ و ٢٤.

والارز وقصب السكر والزعفران والنخيل، الى جانب ما كانت تعطيه البلاد أساساً كالزيتون والتوت والبرتقال والكروم والحبوب على أنواعها. وقد اهتموا بتنظيم قنوات الري وتوزيع المياه بطرق فنية ما يزال بعضها يطبق اليوم، واستعملوا معاصر الزيت والطواحين الهوائية والمائية، فمنطقة غرناطة وحدها عرفت مئة وثلاثين مطحنة. ويبدو أن الغرناطيين قل اهتمامهم بالزيتون فكانوا يستوردون محاصيله من قشتالة، فما كانت تعطيه لوشة وضواحي مالقة لم يكن يفي حاجة السكان. واشتهرت ألمرية ومالقة بالبرتقال ووادي آش باللوز وغرناطة بالرمان والمنكّب بالتين الذي نال شهرة فائقة، والجزيرة بالتمور، ومرتفعات المملكة بالتفاح والاجاص والكرز والجوز والكستناء، كما كثرت جنائن الموز وقصب السكر في المرج والسهول المحاذية للشاطىء. وراجت زراعة الكرمة في المناطق العالية وبخاصة جبال البشرات، ولم يأنف بعض السلاطين والاعيان من تذوق الخمرة في مجالسهم الخاصة، ولكن الناس بعامة كانوا يتذوقون العنب ويصدرون عصيره[١].

وما كان لافتاً كثرة الاكواخ في مرج غرناطة حيث أكوام من البيوت الصغيرة تبدو كأنها خلايا النحل يدخل اليها ويخرج منها المزارعون ويجمعون حولها المحاصيل لتنقل في عربات وعلى ظهور الحيوانات الى الاسواق المحلية أو الثغور تبعاً لحاجة البلاد أو ما يفيض عنها ووفقاً لكساد المواسم أو اقبالها. وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن للهجرة) بدأت تظهر في المرج بيوت كبيرة، في الطبقة السفلى منها أهراءات المؤن وعلف الحيوانات ومرابط الجياد وفي الطبقة العليا غرف النوم للمشرفين على العمال والفلاحين، وهذه البيوت كانت لكبار الملاكين من أبناء المدن[٢].

واهتم أبناء المملكة بتربية الماشية، واشتهرت مزارع الخيول العربية الأصيلة التي اولاها الغرناطيون عناية خاصة، كما اهتموا بسائر الحيوانات كالبقر والغنم،

(١) Ch. E. Dufourcq, La vie Quotidienne dans l'Europe Medievale, PP 96 - 98.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

وبالنحل والطيور على أنواعها لاسيما الدجاج والحمام. أما تربية البزاة فهي عادة ورثها الغرناطيون عن السلف ولاقت رواجاً وانتقلت الى بعض الممالك النصرانية. حتى أن بعض المدن كانت فيها اسواق خاصة تباع فيها طيور الباز، ويعتقد بعضهم أن حي البيازين في العاصمة سمي هكذا نسبة الى وجود سوق للبزاة فيه(١).

وتفيدنا المصادر المتنوعة أن السهول الواسعة والاراضي الخصبة في البلاد كانت لكبار الملاكين، فالقسم الشمالي الغربي من مرج غرناطة كان من «مستخلص» السلطان، وأملاك السلطان توزعت على شركاء يستثمرون الارض باشراف «صاحب الضياع» من قبل «ديوان الحرش». أما الاراضي المحبوسة أو الحبوس (الاوقاف) فكان يعهد في أمرها الى جماعة «المتقبلين»(٢).

وكان للزراعة نظامها المعروف الذي كان يطبق في معظم المناطق الاندلسية قبل انحسار السيطرة العربية وانكفائها الى غرناطة وضواحيها. فالعقود كانت تقام بين صاحب الارض والمزارع لعدة سنوات، وذلك وفق شروط معينة منها أن يقدم المالك للمزارع الارض والبذار، وبالمقابل يتعهد المزارع بتأمين النفقات وشراء الحيوانات ودفع أجور العمال وتأمين الحراثة والزراعة والحصاد واقتسام المحصول مناصفة وغير ذلك. ولحظت العقود احتمالات الجفاف والقحط والحريق وسائر الكوارث الطبيعية غير المتوقعة، كما راعت أنواع المزروعات وطبيعة الارض وكيفية استثمارها. وكانت العقود والاتفاقات على أنواع، منها «المزارعة» التي شملت الحبوب من قمح وشعير وذرة وغيرها، و «المغارسة» التي اهتمت بالاشجار المثمرة والبساتين على أنواعها، و «المساقاة» التي عنيت بالخضار والمزروعات الموسمية التي تحتاج الى الري. والمعروف أن المصادر المتنوعة لم تدخل في تفاصيل الاتفاقات بين المالك والمزارع بل اكتفت

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٢ . ١٠٤.

(٢) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٤.

بالاشارة الى مقاسمة ثمن المحاصيل مناصفة بعد احتساب النفقات المختلفة. وأكثر أنواع الاتفاقات وضوحاً ما تعلق بـ «المزارعة». كما ميّز الاندلسيون بين الارض البعل والأرض المروية، ومن التقاليد ترك بعض الاراضي بوراً لمدة عام بعد استثمارها فتحول الى مراع تطلق فيها الماشية[1].

واشتهرت شبه الجزيرة الايبيرية منذ القدم بوفرة مناجم الفضة والرصاص والحديد والزنك فيها. وفي العهد النصري استخرج الرصاص من مناجم بَرْجَه، وتعددت مناجم الحديد في منطقتي ألمرية ووادي آش، ووجد الذهب في ضواحي غرناطة فكان المنقبون يبحثون عنه في الرمال المحيطة بمجاري المياه وبعض الحفائر الجبلية، كما كثرت مقالع الرخام ولاسيما الابيض منه في منطقة ألمرية[2].

ومن الثروات الطبيعية التي كانت مورد رزق سكان الشواطىء الاندلسية صيد الاسماك، خصوصاً في منطقتي ألمرية والجزيرة. وفي أسواق مدينة المنكّب كانت تعرض أطيب الاسماك، واشتهرت مدينة مَرْبَله بصيد السردين. كما أن تحضير الطون كان من الصناعات المعروفة في مالقة. لكن وسائل الصيد البدائية لم تجعل من السمك مورداً حيوياً كافياً لسد حاجات السكان المعيشية[3].

من ناحية أخرى، ويوم كانت بلاد الاندلس خاضعة بكاملها لسلطان العرب، وصلت فيها الصناعة الى الذروة ابتكاراً واتقاناً، ولم يستطع المشارقة مضاهاة الاندلسيين في حقل الصناعة. ولما تقلص الظل العربي وانكمش الى الرقعة الغرناطية، حافظ العرب على مستوى الصناعة وتفردوا بحقول لم يعرف اسرارها سواهم. وكانت ثرواتهم الطبيعية كالحديد والنحاس والرصاص والذهب والفضة ومحافر الرخام، تمد الصناعة بأسباب الازدهار والتفوق، والمعروف أن كل مدينة

---

(١) Revista Al-Andalus, VI, 1941, P 107.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٠٠ و ٢٠١.

(٣) Ch. E. Dufourcq, La vie Quotidienne dans l'Europe Medievale, 104.

في الاندلس تفوقت بنوع من الصناعات[1]، ولما سقطت تلك المدن في يد الاسبان انتقل قسم من سكانها الى المناطق الغرناطية حاملين معهم خبراتهم في حقل الصناعة، مما أدى الى ازدهار شمل مختلف الحقول.

وقد اشتهرت المملكة النصرية بصناعة الاسلحة كالسيوف والخناجر والدروع والرماح مما كان من قبل معروفاً في طليطلة، وكثر انتاج السلاح وتصديره الى الشرق والغرب. واهتم الحدادون، الى جانب السلاح، بصناعة الصناديق والسلاسل والاقفال والمزالج والمقصات والخناجر والسكاكين والاواني المنزلية المصنوعة من الحديد والنحاس واهتموا بترصيع مقابض السيوف والخناجر وزخرفة المعادن المختلفة[2].

كما حافظ ابناء المملكة على جودة صناعة الصوف والحرير والاقمشة الملونة الممتازة. وشجع الحكام زراعة التوت وتربية دودة القز، مما جعل الحرير لباساً للخاصة والعامة. وقد انتشرت تربية دودة القز في منطقة البشرّات وضواحي مالقة وبلش ورندة، فكان أصحاب الارض يقدمون للمزارع أشجار التوت وبذور القز مقابل تقديمه ثلاثة أرباع موسم الشرانق وأخذ الربع، وكانت فيالج الحرير منتشرة في المناطق الجبلية وضواحي المدن. كما لاقت حياكة السجّاد وأصناف البسط والحصر اقبالاً من الغرناطيين، ولكنها لم تستطع أن تزاحم في الخارج الصناعة الفارسية الشرقية[3].

ومن الصناعات الاخرى التي لا تقل أهمية عن المعادن والاقمشة نذكر صناعة دبغ الجلود ونقشها وتحويلها الى أحزمة وأحذية وسروج وأغماد للسيوف وسائر الاوعية الجلدية، وقد انتقلت هذه الصناعة الدقيقة فيما بعد الى أوروبا.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.

(٢) Ch. E. Dufourcq, La vie Quotidienne dans l'Europe Medievale, PP 109 - 110.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٠ و ١١١.

كما اتقن الاندلسيون صناعة الخزف الذي استعمل في حقل البناء وتزيين الواجهات ومداخل القصور(١).

كما استعملت صناعة الخزف في الاواني المزخرفة التي ما يزال بعضها محفوظاً في المتاحف. ويلي ذلك الفخار الذي توارث الغرناطيون صناعته فعملوا منه الجرار والاباريق والصحون وقساطل المياه.

يبقى أن نذكر صناعة العاج المستورد من المناطق الافريقية. والمعروف أن مدرسة حفّاري العاج التي بدأت في قرطبة في القرن العاشر الميلادي (الرابع هجري) لم تضعف بسقوط هذه المدينة اذ انتقل قسم من الفنانين الى غرناطة. ومن العاج كانت تصنع الصناديق الصغيرة وعلب العطور وأحجار الشطرنج، كما طعمت السقوف والصناديق الخشبية بزخارف من العاج تمثل النجوم وآلات الطرب ورسوم الطيور وسائر الحيوانات.

ثم إن المخطوطات التي يعود تاريخهاالى المرحلة الاخيرة من الوجود العربي والمحفوظة في المكتبات العامة كمكتبة الاسكوريال، تشير الى ازدهار صناعة الورق من القطن والكتان. كما عرف أبناء المملكة صناعات أخرى كالزجاج والعطور والحلي، وكان الحرفيون يتجمعون في أحياء خاصة وأسواق تحمل اسماء صناعاتهم كأسواق الحدادين والنجارين والعطارين وغير ذلك.

يبقى أن نتحدث عن التجارة في العهد النصري، وهي بالطبع نوعان داخلية وخارجية. ويجدر بنا، قبل التحدث عن التجارة في الاسواق الداخلية للمملكة، أن نعرض لانواع الموازين والمقاييس والنقود المعتمدة في عملية البيع والشراء. فالاندلسيون استعملوا ما عرف بـ «المثقال» لزنة المعادن الثمينة والتوابل والابهار والطيوب، وكانت الفضة تزان بـ «الدرهم». كما استعملوا «الرطل» في زنة المواد الغذائية، ما عدا الحبوب، والرطل يساوي ثلاث عشرة أوقية (وتعادل الاوقية مئتي

(١) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.

غرام). وأما الحبوب والسوائل، فكان لها ميازين خاصة، فهناك «المد» ومن أقسامه «القفيز» و «القدح» من أجل الحبوب والطحين وسائر المواد الجافة، و «المكيال» المصنوع من الفخار المطلي أو من النحاس للسوائل بعامة والزيت بخاصة. وكان «الذراع» مقياس الطول ومن أجزائه «الشبر» و «القبضة»، واعتمدت وحدة الذراع في تجارة الاقمشة والجلود وغيرها[١]. أما المسافات، فكانت تقاس بـ «المرحلة» وهي مسيرة يوم، كما استعمل «الميل» وهو عبارة عن مسافة ليس لها حدّ معلوم، والرأي الغالب أن الميل هو قدر منتهى مدّ البصر من الارض المنبسطة[٢].

أما من حيث النقود، فقد تأثر بنو نصر بجيرانهم الموحدين، فجعل محمد الاول نقود المملكة دراهم فضية مربعة، وأبقى خلفاؤه على هذا الشكل مدة من الزمن، وفيما بعد رسم المربّع على الدنانير الذهبية المستديرة. ويخبرنا ابن الخطيب في «الاحاطة» عن العملة المتداولة في أيامه فنفهم أن من أجزاء الدرهم القيراط والربع، والقيراط هو نصف الدرهم[٣]. وكانت النقود تحمل كتابات معروفة، فعدا الاشارة الى القيمة كتبت على الوجه الاول الآية الكريمة: «لا اله الا الله» وعلى الوجه الثاني شعار بني الاحمر: «ولا غالب الا الله». ثم إن الدرهم كان يساوي ثلث وزن الدينار، ثم تغير ذلك عندما ظهر في القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة) ثلاثة أنواع من الدنانير هي الدينار الذهبي والدينار الفضي والدينار النحاسي، وكان الذهبي يساوي عشرة دراهم فضية، وأما قيمة الدينار النحاسي، فلم نستطع معرفتها قياساً الى الفضي والذهبي[٤].

بعد هذا العرض للموازين والمقاييس والنقود ننتقل الى الحديث عن الحركة التجارية في الاسواق الداخلية للمملكة. فالمصادر العربية والاجنبية التي اهتمت

---

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٣٧ . ١٣٩.

(٢) راجع: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، مادة «ميل».

(٣) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٣٨.

(٤) L. Seco de Lucena Paredes, Documentos Arabigo - Granadinos, Madrid, 1961, Introduction.

بحضارة المملكة النصرية سجلت أسعار بعض المواد الغذائية، وهي تشير الى أن الفاكهة لذيذة وأسعارها منخفضة، فثمن ثمانية أرطال من العنب لا يتعدى الدرهم أو الدرهمين بحسب نوع العنب وجودته، ونصف رطل من الزبدة يساوي ثلاثين درهماً، وخمسة أرطال من العسل تساوي عشرين درهماً، ورطل اللحم يباع بدرهم[1]. بينما يشير ابن خلدون في مقدمته الى أن المواد الغذائية في العاصمة أغلى منها في سائر المناطق[2]، وقد يعود ذلك الى ازدياد عدد سكان غرناطة بعد نزوح أبناء المدن والقرى التي وقعت في أيدي الاسبان اليها، فكثر بالتالي الطلب على المواد الغذائية في العاصمة. كما سجّل القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة) ارتفاعاً في ثمن الأرض داخل غرناطة وخارجها، ففي سنة (٨٣٣ هـ/١٤٢٨م) بيع احد البساتين بثمانمئة دينار ذهباً. أما الملابس والاثاث فقد استطعنا العثور على ثمن بعضها: فثمن الحذاء ثلاثة عشر درهماً، وثمن المعطف مئة وثلاثون ديناراً، وثمن الطاولة أربعة دراهم[3].

ننتقل الى التجارة الخارجية، فبفعل ازدهار الزراعة والصناعة تنشط التجارة، كما أن هذه تحرك عجلة الصناعة وتنمي الزراعة. وقد ساعد موقع مملكة غرناطة الجغرافي على رواج تجارتها الخارجية اذ كانت ملتصقة بالعالم الاوروبي ومجاورة للعالم الاسلامي. ويبدو أن المصادر العربية لم تعر موضوع التجارة الخارجية الاهتمام المطلوب، فاكتفى بعض الرحالة المسلمين بالاشارة الى تصدير الفخار من مالقة والفاكهة المجففة من بَلْش، لكن ما نقع عليه في بعض المصادر الاجنبية قد يسد ثغرة ويرضي فضول الباحث.

لقد عقدت غرناطة مع مملكتي قشتالة وأراغون وبعض جمهوريات وامارات ايطاليا معاهدات تجارية متنوعة. وتتحدث احدى الوثائق عن المعاهدة التجارية

(١) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٤٣ و ١٤٤ و ٢١١ و ٢١٨.
(٢) تاريخ ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٢ . ٣٦٤.
(٣) Revista Al-Andalus, VIII, 1943, P 121.

التي عقدت في سنة (٦٧٨ هـ/١٢٧٩م) بين سفير جنوى في غرناطة والسلطان محمد الثاني، يتعهد بموجبها السلطان بحماية الجنويين واعطائهم حقوق بناء كنيسة خاصة بهم وفندق وحمام، والسماح لهم بممارسة الصيد، كما تورد المعاهدة لائحة بالسلع التي يستطيعون المتاجرة بها. وكان تجار كتلونيا وقشتالة يدفعون أكثر من ثمانية بالمئة. ويبدو أن موانىء مالقة وألمرية والمنكب كانت مسرحاً للتجار الايطاليين من جنوى وتوسكانا وفينيزيا وسواها[١].

كانت المراكب التجارية تحمل الحرير الخام من مدن المملكة الى موانىء المتوسط في ايطاليا وفرنسا وأراغون وأفريقيا. كما كان السكر يغلف ويوضع داخل صناديق قبل تصديره الى الامارات الاسبانية والبلدان المتوسطية القريبة. أما الاثمار المجففة فشملت اللوز والتين والعنب، وكان الجنويون يتعهدون تصديرها. ومن الصادرات الغرناطية المعادن المصنعة والعطور والحلي والزعفران والرخام، والمعروف أن السفن الخارجة من موانىء المملكة كانت تصل أحياناً الى مصر والقسطنطينية وبلاد الشام[٢].

أما السلع المستوردة، فكانت متنوعة وأهمها الافاويه والابهار كالفلفل والجوز والقرفة والبخور والاصباغ من الشرق[٣]. وكانت المملكة تستورد الارز من بلنسيه والزيت من قشتالة والقمح من بلاد المغرب، والرصاص والنحاس والقطن من آراغون وايطاليا، والسمن والجلود وقطعان البقر والغنم من أفريقيا[٤].

وعلى الاجمال، فان الحياة الاقتصادية في مملكة بني الاحمر كانت مزدهرة، ولكن الحروب المتواصلة مع الاسبان جعلت الضرائب تثقل كاهل الناس وترهق

---

(١) J. Heers, Le Royaume de Grenade et la Politique Marchande de Genes au XVe Siecle, 1957, Bruxelles, P 93.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٩٢.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٩٩.

(٤) J. Heers, Le Royaume de Grenade et la Politique Marchande de Genes, P 67.

التجار فيصاب الاقتصاد بهزات تعيق ازدهاره. والمعروف ان واردات بيت المال السلطاني كانت تؤمن عن طريق محاصيل ممتلكات الدولة والضرائب المفروضة على الاراضي والرسوم على السفن والقوافل التجارية، ومن الزكاة ومغانم الحروب. وتجدر الاشارة في ختام الحديث عن الاحوال الاقتصادية في مملكة بني الاحمر الى أن بعض الالفاظ العربية الاصل والمستعملة في اوروبا اليوم، ومنها دينارو (دينار) وتعني المال بصورة عامة وألمسان (المخزن) وأميرال (أمير الماء) وتريف (تعريف) وغير ذلك، يشير الى الدور المهم الذي كان لعرب الاندلس في حقول التجارة.

الفصل الرابع

الحياة الدينية والفكرية

أ ـ الحياة الدينية:

في هذا القسم من بحثنا نحاول اقامة عرض تاريخي موجز للحياة الدينية والنشاط الروحي في الدولة النصرية، مع الابتعاد عن الدخول في التفاصيل الدقيقة وعن طرح المشكلات الجوهرية، لان ذلك يتعدى نطاقنا ويدخل في نطاق أصحاب الاختصاص في هذا الموضوع.

يقول لسان الدين ابن الخطيب: «احوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد احوال سنيه، والاهواء والنحل فيهم معدومة، ومذهبهم على مذهب مالك بن انس امام دار الهجرة جاريه»(1).

ولا بد هنا من تعريف موجز بصاحب المذهب المالكي الذي تقبله الاندلسيون. فالامام مالك بن أنس هو مؤسس مدرسة الشرع في المدينة (حوالى ٩٥ هـ/٧١٥م)، ويعد أقرب المشترعين لفهم حياة النبي وعقليته لكونه من أبناء المدينة. وله مصنفه المعروف بالموطأ وهو أقدم مجموعة للشريعة الاسلامية بعد مصنف زيد بن علي (ت ١٢٤ هـ/٧٤٣م). وفي الموطأ ، وقد حوى الفاً وسبعماية حديث ، دونت السنة وانعقدت للاجماع صيغته الاولى بموجب عرف المدينة فأصبح المرجع الاعلى للمذهب المالكي. ثم انتشر هذا المذهب في المغرب والاندلس، ولا يزال الى يومنا معمولاً به في أنحاء أفريقيا الشمالية باستثناء الوجه البحري من مصر وفي شرقي جزيرة العرب(2).

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٣٨.

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٤٧٠.

لا شك في أن المذهب المالكي كان له دوره الفعال في عملية تنظيم آخر دولة عربية في الاندلس، كما ان العلماء والفقهاء الذين لمع اسمهم وطارت شهرتهم كان لهم في المملكة الكلمة المسموعة والمقام السامي، الى جانب التأثير القوي على رجالات الحكم.

في القرن الرابع عشر لمع اسم العالم الفقيه ابي سعيد فرج بن لب، وقد ولد سنة ٧٠١ وتوفي سنة ٧٨٢ للهجرة (١٣٠١ ـ ١٣٨٠م) وكان من أشهر اساتذة المدرسة النصرية، ومن تلاميذه ابراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي (ت ٧٩٠ هـ/١٣٨٩م) صاحب كتاب «أصول الفقه»، ومحمد بن سراج المتوفى سنة (٨٤٨ هـ/١٤٤٤م) الذي له فتاوى عديدة، وأبو عبدالله محمد بن علي الفخار الالبيري. ومن ائمة المذهب المالكي في منتصف القرن الخامسّ عشر الفقيه محمد بن محمد الانصاريْ السرقسطي المتوفى سنة (٨٦١ هـ/١٤٥٩م) وقد شارك السلطان النصري نفسه في جنازته لما كان يتمتع به من شهرة[١].

وتجدر الاشارة الى أن هذا المذهب، في المراحل الاولى من الوجود العربي في الاندلس، أظهر من التشدد في الدين ما حمل ابن حزم القرطبي على التصدي له. الا أن ذلك التشدد خفّت حدته فيما بعد بسبب التطورات السياسية والاحداث غير المرتقبة التي عصفت بالبلاد. فقد اضطر الفقهاء الى مراعاة أوضاع «المدجّنين» الذين عاشوا تحت سيطرة الاسبان عن طريق فتاوى تجمع بين أوضاعهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية. وعلى سبيل المثال نذكر أن بعض المدجنين استفتوا فقهاء غرناطة حول شرعية شراء الاراضي التي انتزعها الاسبان من المسلمين، فكانت فتوى السرقسطي أن النصارى لا يحق لهم من حيث المبدأ بيع تلك الاراضي لانهم في الاساس

(١) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ٥٢ و ٦٩٩ . ج٣، ص ٦١٧ . ج٥، ص ٣٥٥ و ٤٢٩.

ليسوا أصحابها وانما هي أرض اسلامية. لكن أوضاع المسلمين الذين هم تحت رحمة غير المسلمين هي أوضاع خاصة، لذا جاز لهم شراء تلك الاراضي تلبية لحاجاتهم المعيشية(١).

من جهة أخرى قد يحمل القارىء على الظن، من خلال بعض ما ورد في الفصول السابقة، بأن المجتمع النصري عرف فتوراً ايمانياً وقلة اكتراث لممارسة الفرائض وذلك بسبب الرفاه الذي عمه حقبة طويلة وانصراف الناس الى ملء الفراغ باللهو على أنواعه. والواقع أن ذلك المجتمع لم تفتر في صدور أبنائه حرارة الايمان ولا ضعفت عندهم روح التقوى ولم يتخلوا عن الله لحظة وبخاصة في أوقات الشدة وعند مداهمة الخطر من الدول المجاورة.

وقد شهد المجتمع حركة زهد قويت في أوساط العامة والخاصة، فكثر الزهاد والنساك والمتصوفون. ومن الوجوه التي كرمها الناس أبو الحسن الششتري تلميذ المتصوف المشهور ابن سبعين. وقد تعدت شهرته حدود المملكة فعمت العالم الاسلامي وبخاصة في الديار المصرية. وفي مطلع القرن الرابع عشر (الثامن للهجرة) مال عدد من الادباء الى الشعر الزهدي والصوفي، منهم ابو عبدالله محمد بن خميس التلمساني الذي وفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه، ونزل بألمرية سنة (٧٠٦ هـ/١٣٠٦م)، وهو جد القاضي المعروف ابي البركات ابن الحاج(٢).

والذي ساعد على ازدهار حركة الزهد قدوم مهاجرين من الهند وسمرقند وتبريز وخراسان واستقرارهم في الاندلس ومساهمتهم في ابراز تيار الزهد.

ويشير ابن الخطيب الى وجود رابطة المتصوفين في حي البيازين بغرناطة باشراف أبي احمد جعفر الذي كان يجمع المصلين كل ليلة فيصار الى تلاوة

---

(١) J. Heers, Genes au XVeme Siecle Paris, 1963, P 99.

(٢) المقّري، نفح الطيب، ج٢، ص ١٨٥ . ج٥، ص ٣٥٩.

آي القرآن الكريم، والى عقد حلقات الذكر وسماع اشعار المتصوفين المشهورين ولاسيما الحلاج(١).

واذا كان المشرق قد لمع فيه اسم رابعة العدوية، فان الاندلس لهج، في عهد بني الاحمر، باسم عائشة بنت عبدالله الاندلسي التي أمضت حياتها داخل حجرة صغيرة مواجهة لمئذنة المسجد الجامع في «الجزيرة». فكانت تسجد في أوقات الاذان، وتردد اسمه تعالى في سائر الاوقات، حتى اتهمها بعضهم بالاختلال(٢).

في مدينة غرناطة عرف بين المشتركين في حلقات الصوفيين أحد زعماء المدينة من بني المحروق هو أبو عبدالله محمد بن المحروق. فهذا الرجل ترك أمجاد الدنيا الباطلة وقصد عزلة عرفت باسم رباط ابن المحروق، واليها كان يفد المصلون. وغير بعيد عن غرناطة كان يقع غربي المدينة رباط العقاب المشهور على سفح مشرف على المدينة، وفي هذا الرباط قضى ابن سبعين والششتري قسماً من حياتهما. وفي القسم الاعلى من حي «نجد» الغرناطي كان يقع رباط ابن المحروق الذي فيه عاش الشيخ أبو الحسن علي بن احمد بن المحروق(٣).

وفي مجال الحديث عن حركة الزهد والتصوف نتذكر أعظم متصوفة الاندلس وهو الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي المعروف بابن عربي. وقد ولد بمرسية سنة (٥٦٠ هـ/١١٦٣م) ونزح الى المشرق في شبابه، وحج وطاف بمعظم قواعده، وبقي به حتى وفاته سنة (٦٣٨ هـ/١٢٤٠م). ومن مصنفاته المعروفة كتاب فصوص الحكم، والفتوحات المكية، والتدبيرات الالهية، الى جانب مجموعة قصائد في التصوف. وقد حرصنا على ذكر الشيخ ابن عربي بالرغم من

---

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ٤٦١ ـ ٤٦٣.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٠٦.
(٣) Revista Al-Andalus, XIII, 1948, P 491.

عدم انتمائه مباشرة الى العهد النصري، وذلك لان هذا المتصوف كان له أثره الواضح في المجتمع الاندلسي[1].

ومن أقطاب التصوف في القرن الرابع عشر (الثامن للهجرة) أبو الحسن علي بن فرحون القرشي القرطبي المتوفى سنة ٧٥١ هـ/١٣٥٠م)[2]، وأبو اسحق ابراهيم بن يحيى الانصاري المرسي المتوفّى سنة ٧٥١ هـ/١٣٥٠م) وله كتاب «زهرة الاكمام» في قصة يوسف، وأبو عبدالله محمد الانصاري المالقي المتوفّى سنة ٧٥٤ هـ/١٣٥٣م) وله كتاب «بغية السالك في أشرف المسالك» في مراتب الصوفية وطرائق المريدين[3].

نستنتج من هذه اللمحة السريعة أن الحياة الدينية في المملكة النصرية كانت معززة، وان جذوة الايمان بقيت متأججة في الصدور حتى ما بعد سقوط غرناطة وانقطاع مسلمي الاندلس عن العالم الخارجي. ولنا في تاريخ «المدجّنين» و «الموريسكيين» وجهادهم في سبيل العقيدة خير مثال على ذلك. ويكفي أن نعلم أن المساجد كانت منتشرة بكثرة في المدن والقرى النصرية، وان كل حي كان مكتفياً بذاته، لندرك مدى حرص المسؤولين على تلبية حاجة الناس الى العبادة. والمعروف أن أعياد الفطر والاضحى والمولد كان لها الشأن الكبير في حياة الناس الدينية والزمنية، وكانت مناسبات للتأمل والصلاة وعمل الخير أكثر مما كانت فرصاً للتمتع بالمباهج الخارجية واللذائذ المادية.

ب ـ التربية والتعليم:

من خلال ما ورد في المصادر التاريخية نفهم أن المراكز الفكرية ودور التعليم المهمة كانت محصورة داخل التجمعات السكنية الكبرى، في المدن الرئيسية كغرناطة ومالقة وألمرية ووادي آش. وكان التعليم الابتدائي في المدن والقرى

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ١٦١ ـ ١٨٤.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٢٢٦.

(٣) Revista Al-Andalus, 1948, P 491.

مؤمناً في مدارس صغيرة اذ يجمع «المؤدب» أولاد الحي ويُكب على تعليمهم القراءة والكتابة والخط، ثم حفظ آي القرآن الكريم. ويذكر ابن خلدون في المقدمة أن التعليم تناول كذلك اشعار العرب ورسائلهم، وكان التلاميذ يحفظون قواعد اللغة العربية مما يساعد على مواجهة العلوم المتقدمة. ويؤكد ابن خلدون أنه لم يجد في المغرب معلماً يمكنه تدريس كتاب سيبويه بالكفاءة نفسها التي يتمتع بها الاندلسيون[1].

ثم إن مستوى التعليم العالي جعل الاندلس قبلة الانظار فكان الطلاب يفدون على غرناطة من الاقطار المجاورة الاسلامية منها وغير الاسلامية. أما في قصر الحمراء فكان الاقبال على العلم شديداً من قبل أبناء البيت المالك. فأولاد يوسف الاول تأدبوا على يد «رضوان» الذي أصبح فيما بعد وزيراً. كما تلقى اسماعيل الثاني علومه باشراف «عباد» وهو من الارقاء النصارى، أعتق بعدما تقبل الاسلام، وعين محمد الخامس تلميذ ابن الخطيب أبا عبدالله الشريشي مؤدباً لاولاده[2].

والحدث المهم في تاريخ التعليم الاندلسي هو بناء «المدرسة اليوسفية» بغرناطة في عام (٧٥٠ هـ/١٣٤٩م) وقد سميت هكذا نسبة الى مؤسسها يوسف الاول، كما عرفت بالمدرسة العلمية والمدرسة النصرية. بدأت مركزاً للعلوم الدينية واللسانية وفيما بعد أصبحت تهتم بأكثر أنواع العلوم المعروفة آنذاك، وقصدها الطلاب من المناطق النصرية كافة. وقد نالت شهرة واسعة مما جعل أبناء المغرب، طلاباً ومعلمين، يفدون للانتساب اليها، ومن علماء المغرب الذين درّسوا في اليوسفية الفقيه ابن مرزوق والكاتب عبد القادر بن سوار المغربي وسواهما.

وقد جاء في نفح الطيب أن ابن الجياب كتب على باب المدرسة:

يا طالبَ العلمِ هذا بابُه فُتِحا
فادخلْ تشاهِدْ سناه لاح شمسَ ضُحى

(١) تاريخ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٧.

(٢) المقّري، نفح الطيب، ج٥، ص ٢٦٨ ـ ج٧، ص ١٠٨، ١٦٦، ٢٨٢.

واشكرْ مجيدَكَ مِنْ حَلٍّ ومُرْتحلٍ
اذ قرَّبَ اللهُ مِنْ مرماك ما نزحا
وشرَّفَتْ حضرةَ الاسلامِ مدرسةٌ
بها سبيلُ الهدى والعلمِ قد وَضُحا
اعمالُ يوسفَ مولانا ونِيَّتُهُ
قد طرَّزَتْ صُحُفاً ميزانُها رَجَحا[1]

ولا نعرف بالتحديد عدد السنوات التي كان يقضيها الطلاب في المدرسة الغرناطية قبل تخرجهم، انما المتفوقون من الطلاب كانوا يحصلون على «اجازة» خطية يمنحون بموجبها حق تدريس مادة معينة أو كتاب معروف. وفيما يتعلق بالبرامج المعتمدة كانت المدرسة النصرية تعرض لائحة من الكتب مع أسماء الاساتذة الذين يؤمنون تدريسها. فالقرآن الكريم كان يتصدر اللائحة، ثم يأتي بالدرجة الثانية كتاب «الموطأ» للامام مالك بن أنس. وفي القرن الخامس عشر ظهر كتاب «تحفة الحكماء في نقاط العقود والاحكام» للقاضي ابي بكر بن عاصم الغرناطي، فيه توضيحات وتعليقات استقاها القاضي من كتاب «الموطأ» وأقوال السلف، وقد اعتمد الكتاب في المدرسة النصرية ونال شهرة واسعة في المغرب والاندلس. واهتمت مدرسة غرناطة بتعليم اللغة والادب، فاعتمد لذلك كتاب سيبويه وكتاب الاغاني للاصفهاني، وآثار الجاحظ ومقامات الهمذاني والحريري، وأقبلوا على تدريس أشعار العرب بعامة فكان ديوان الحماسة وديوان المتنبي وسقط الزند للمغري من الكتب المفضلة.

وقد تهدمت المدرسة اليوسفية كلياً بين عامي ١٧٢٢ و ١٧٢٩، ولم يبق منها اليوم الا قاعة الصلاة التي رممها المهندس الاسباني «كونتيرا»، وتقع

(١) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٥٧.

في الجهة المقابلة لكاتدرائية غرناطة. كما عثر على لوحة رخامية نقش عليها تاريخ بناء المدرسة على أيام يوسف الاول، وهي محفوظة في متحف غرناطة الاثري(١).

ج ـ العلوم والطب:

بدأت النهضة العلمية في الاندلس مع الفلكي والرياضي أبي القاسم مسلمة ابن أحمد المجريطي (٣٩٨ هـ/١٠٠٨م) الذي خلق مدرسة رياضية فكان له اتباع وتلاميذ. وفي مستهل القرن الحادي عشر (الخامس للهجرة) عصفت الفتنة المعروفة التي مزقت الاندلس فتفرق تلاميذ مسلمة ولجأ بعضهم الى طليطلة حيث تمتعوا بمركز مميّز، خصوصاً عندما تسلّم عرش قشتالة الملك ألفونس العاشر.

وفيما بعد، شهد العهد النصري نهضة شاملة ونبغ عدد من العلماء في حقول الهندسة والرياضيات والفلك والطب وغير ذلك. من هؤلاء نذكر محمد بن الرقاح المرسي الذي اشتغل بالهندسة والرياضيات، ومارس الطب في غرناطة، وتوفي في سن متقدمة عام (٧١٥ هـ/١٣١٥م) وقد نبغ أبو يحيى بن رضوان الوادي آشي المتوفى سنة (٧٥٧ هـ/١٣٥٦م) ووضع قصيدة في علم الفلك بعنوان «المنظوم في علم النجوم» ورسالة في الاسطرلاب(٢).

أما الاطباء فقد كثر عددهم واشتهر بعضهم في المشرق والمغرب، ومن الاطباء المشهورين محمد بن ابراهيم الانصاري المعروف بابن السرّاج الذي عاش في بلاط بني الاحمر فكان طبيب محمد الثاني الخاص، كما اشتهر بعمل الخير اذ كان يداوي الفقراء مجاناً ويفرّق أمواله على المحتاجين. وهناك الكاتب

(١) حول ما جاء عن المدرسة اليوسفية راجع: E. Levi Provencal, Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, Paris, 1931 PP 158 - 159.

(٢) Revista Al-Andalus, XXX, 1965, PP 15 - 45.

والطبيب يحيى بن هزيل التجيبي الذي كان استاذ ابن الخطيب، ومحمد الشقوري الذي كان طبيب دار الامارة أيام يوسف الاول. وفي ألمرية لمع اسم الطبيب والشاعر والمؤرخ أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الانصاري المتوفّى عام (٧٧٠ هـ/١٣٦٩م)، وله كتاب عن الوباء الذي عصف بالاندلس سنة (٧٤٩ هـ/١٣٤٨م) بعنوان «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»[١]. ومنهم القاضي احمد بن عبدالله بن عبد المؤمن الهاشمي الطنجالي الذي مارس الطب في مدينة لوشه وبذل من التضحيات ما جعل أبناء المدينة يبالغون في تكريمه[٢]. ولا ننسى لسان الدين بن الخطيب الذي كان من الاطباء المشهورين، وسنأتي على ذكر ما له من المآثر في مكان لاحق من هذا البحث.

من الكتب الطبية التي وصلتنا من عهد بني الاحمر «تحفة المتوسل وراحة المتأمل» لمحمد الشقوري، ومؤلفات ابن الخطيب الطبية ومنها «عمل من طب لمن حبّ» ألّفه للسلطان أبي سالم المريني، و «رسالة تكوين الجنين»، و «مقنعة السائل في المرض الهائل» الذي يصف فيه أعراض الوباء الكبير. وهناك «كتاب تحصيل الغرض القاصد في المرض الوافد» لابن خاتمة الذي ذكرناه، وكتاب «النصيحة» الذي يعدّ اختصاراً لكتاب الشقوري.

أما الاكتشافات الطبية التي توصل اليها أطباء العهد النصري فيضيق المجال أمام تعدادها، ونكتفي بذكر بعض ما توصلوا اليه. فالطبيب الشقوري وصف عشبة القرصعنة لمداواة الدمل البارزة، والطبيب المالقي الحسن بن محمد بن حسن القيسي قدم دواء ضد سموم الحيات الى السلطان يوسف الاول[٣]. ومن أجل مداواة الالتهابات المتنوعة وبخاصة النقرس استعان الاندلسيون بحشائش معينة توضع فوق المكان الملتهب، كما استعملوا الضماد في مداواة عرق النسا.

---

(١) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٤ (هامش) ج٦، ص ٣٧ - ٣٣.
(٢) المقّري، نفح الطيب، ج٥، ص ٣٨٩.
(٣) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ٤٦٧.

ويؤكد ابن الخطيب في كتابه «مقنعة السائل» أن مرض الطاعون ينتقل بالعدوى ويختفي في ثياب المريض، محاولاً بذلك الاشارة الى وجود الجراثيم مما لم يكن معروفاً في ذلك الوقت[1].

واهتم الاطباء الاندلسيون بأنواع المآكل وطرق الاكل والمواد المغذية. فالطبيب ابن الشقوري تحدث عن الشراهة في الاكل والاسراف في الشرب مستوحياً الحديث الشريف «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء»، مستخلصاً بذلك أن اصلاح الابدان يتم عن طريق اختيار المأكولات المغذية. كذلك شدّد معاصراه ابن خاتمة وابن الخطيب على أنواع المأكولات وكيفية تناولها بهدف ابعاد خطر الوباء الكبير أو الطاعون الاسود، ورأى الطبيبان وجوب الامتناع عن أكل اللحم المقدد، والاكتفاء بلحوم الدجاج المشوية جيداً والاكثار من شرب عصير الليمون والحصرم وتناول أنواع معينة من الفاكهة كالتفاح والاجاص والرمان والسفرجل والتين والعنب والتمور، ونصحا بغسل الخضار جيداً قبل أكلها مع تفضيل الجزر والكوسى. كما ينصح ابن الخطيب بعزل المصاب بالوباء الكبير أو الطاعون خوفاً من انتقال العدوى واحراق الاثواب وتطهير المكان بالبخور والكحول وعدم الاكل في أطباقه، ويطلب من الناس عدم ارتياد الحمامات العامة في أوقات انتشار الوباء. ويشدد الاطباء الاندلسيون على مسألة النظافة لان انتشار الاوساخ ووجود القاذورات من مسببات الامراض[2].

ونذكر أخيراً أن الاندلسيين أدركوا مدى تأثير تقلبات الطقس وأحوال المناخ على الصحة العامة، واختبروا مفعول المياه المعدنية ووصفوها لبعض الامراض. وفي ضواحي مدينة الحامة ينابيع مياه معدنية كان يقصدها أبناء المملكة للتداوي من آلام الظهر والجنب وغير ذلك. وعلى العموم فان الطب أيام بني الاحمر وصل الى درجة عالية من التقدم والتطور. ويكفي أن نذكر، من اجل

---

(١) خليل الجر، تاريخ العلوم عند العرب، المطبعة البولسية، ١٩٧٣. ص ٨٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨١ . ٨٥.

الاقتناع، بعض اعمال محمد الاول الذي أنشأ داراً للعجزة ومأوى للعميان، ومحمد الخامس الذي بنى البيمارستان (المستشفى) وقد جئنا على ذكره في الحديث عن الصحة العامة.

د ـ الحركة الأدبية:

نحاول في هذا القسم اعطاء لمحة سريعة ومختصرة عن الحركة الادبية في عهد دولة بني الاحمر، ذلك أن ايفاء الحركة الادبية حقها من البحث يستوجب عملاً مستفيضاً يخرج بنا عن نطاق الحصة المخصصة له في المخطط العام لهذه الدراسة. وفيما يأتي نحاول اقامة عرض لمختلف الحقول الادبية معتبرين أن هذه الحقول تشمل التاريخ والرحلة واللغة والشعر والنثر.

من المؤرخين المشهورين نذكر علي بن موسى بن سعيد الاندلسي المعروف بابن سعيد المغربي، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من المؤرخين. ولد في اشبيلية عام (٦١٠ هـ/١٢١٣م)، وترك الاندلس عام (٦٣٨ هـ/١٢٤١م) وانتقل الى افريقيا والمشرق، وتوفي بدمشق عام (٦٧٣ هـ/١٢٧٤م). له كتاب «المغرب في حلى المغرب»[1].

ومنهم أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الانصاري، ولد بألمرية سنة (٧٢٤ هـ/١٣٢٣م) وتوفي سنة (٧٧٠ هـ/١٣٦٨م). وقد ترك عن مدينته كتاباً بعنوان «مزية ألمرية على غيرها من البلاد الاندلسية»، وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الاسكوريال.

ومن الشخصيات المشهورة في حقل التاريخ أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي، ولد بمالقة سنة (٧١٣ هـ/١٣١٣م) وانتقل الى غرناطة وتولى فيها القضاء، وكان من خصوم ابن الخطيب ومن الساعين الى هلاكه، وقد توفي في

(١) Encyclopedie de l'Islam, T III, PP 950 - 951 (IBN SA'ID).

أواخر القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد). له كتاب «نزهة البصائر والابصار» في تاريخ الدولة النصرية، وتاريخ «قضاة الاندلس» الذي جمعه وحققه المستشرق ل. بروفنسال[1].

وهناك أبو القاسم بن سلمون الكناني الغرناطي قاضي الجماعة بغرناطة (ت ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م) صاحب كتاب «العقد المنظم للحكام فيما يجري بين ايديهم من الوثائق والاحكام»، والقاضي أبو البركات ابن الحاج البلفيقي وله كتاب «تاريخ ألمرية»، وأبو بكر بن خميس[2] صاحب «تاريخ الجزيرة»، ثم ابن الخطيب صاحب كتاب «الاحاطة في أخبار غرناطة».

ويعد أدب الرحلات مكملاً لعلم التاريخ، و «رحلة ابن جبير» من أشهر ما عرف الاندلس في هذا الحقل[3]. ومن الرحالة الذين دونوا مشاهداتهم في العهد النصري ابن رشيد السبتي، ولد سنة (٦٥٧ هـ/١٢٥٩م) ورحل الى الشرق عام (٦٨٣ هـ/١٢٨٤م) ومرّ في طريقه بألمرية حيث لقي الوزير ابن الحكيم الرندي، واستدعي الى غرناطة وعيّن قاضي الجماعة وخطيب المسجد الجامع وبعد مقتل صديقه الوزير في شوال سنة (٧٠٨ هـ/آذار ١٣٠٩م) عاد الى المغرب واتصل بالسلطان المريني عثمان بن أبي يوسف الذي عينه مشرفاً على الصلاة في مسجد مراكش، وقد مات في فاس في ٢٣ محرم (٧٢١ هـ/٢٢ شباط ١٣٢١م). له كتاب «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في رحلة الى مكة وطيبة»، وهو محفوظ في مكتبة الاسكوريال[4].

ومن الرحالة أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، وهو معاصر لابن الخطيب، رحل الى الاماكن المقدسة وزار تلمسان وتونس والاسكندرية والقاهرة والقدس

---

(١) راجع كتاب النباهي: تاريخ قضاة الاندلس، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت من دون تاريخ.
(٢) اتينا على ذكرهم في الحديث عن القضاء في العهد النصري.
(٣) رحلة ابن جبير، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٤٩٨.

ومكة واتصل بالعلماء والادباء، ووضع كتابه «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»[1]. كما وضع ابن الخطيب عن مشاهداته في المغرب كتاب «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».

ولم يكن الاندلسيون في العهد النصري بمنأى عن الحركة اللغوية في العالم العربي اذ ظهر عدد كبير من أقطاب اللغة في تلك الحقبة. ومن اللغويين المعروفين أبو بكر محمد بن أدريس الفراني القضاعي (ت ٧٠٧ هـ/١٣٠٧م)، وقد ترك في علم العروض كتاب «الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض». ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير النحوي، ولد بجيان سنة (٦٢٦ هـ/ ١٢٣١م) وتوفي سنة (٧٠٨ هـ/١٣٠٨م)، وكان عالماً بالقرآن والحديث. اتصل بالسلطان ابي عبدالله محمد بن محمد بن الاحمر فأكرمه وولاه القضاء بغرناطة، ومن آثاره المعروفة كتاب «صلة الصلة» الذي ذيّل به كتاب الصلة لابن بشكوال. وقد نشر الكتاب بتحقيق المستشرق ليفي بروفنسال[2].

ومن علماء اللغة أبو عبدالله محمد بن علي الفخار البيري الذي كان شيخ النحاة الاندلسيين في عصره وعليه درس ابن الخطيب وابن زمرك. وقد توفي بغرناطة سنة (٧٥٤ هـ/١٣٥٣م)[3].

يبقى أن نلقي نظرة على ما قام به الاندلسيون في العهد النصري منَ نشاط في مجالي النثر والشعر. ونعلم أنه قبيل نشوء الدولة النصرية غمرت الاندلس فوضى سياسية واحداث متسارعة سقط معها عدد من المدن في أيدي الاسبان، وأصبحت البلاد أرضاً سائبة يتنازع فيها المغامرون وطلاب السيادة زمام الامر حتى غدا في يد بني الاحمر. في تلك الحقبة المضطربة تصدعت الحركة الادبية فغادر الاندلس عدد من العلماء والادباء أمثال الشيخ محيي الدين بن

(١) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ٥٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص ٣٥٥.

عربي المرسي المتصوف المشهور[1]، وابن البيطار القضاعي[2]، وابن سعيد الاندلسي[3]، وغيرهم. الا ان قيام دولة بني الاحمر أعاد الاستقرار الى النفوس الحائرة والحركة الادبية الى سابق قوتها. وفي القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) شهدت المملكة النصرية ازدهاراً أدبياً على يد عدد من الكتاب والشعراء في طليعتهم ابن الخطيب وابن زمرك. واستمر الازدهار مرافقاً الوجود العربي حتى سقوط غرناطة، فكأن القلم والسيف تعاهدا على الجهاد ومواصلة الطريق حتى النفس الاخير. ونحاول فيما يأتي ذكر أهم الشعراء والكتاب الذين برزوا في تلك المرحلة، مراعين في ذلك التسلسل التاريخي لوجودهم.

من شعراء العهد النصري الذين اشتهروا أبو عبدالله محمد بن أدريس بن علي المعروف بابن مرج الكحل[4]، من جزيرة شفر. عاش في غرناطة وبرع بالغزل والوصف، وتوفي سنة (٦٣٣ هـ/١٢٣٥م)، ومن شعره الوصفي قوله:

عرّجْ بمُنعَرَجِ الكثيبِ الأَعْفَرِ ... بين الفُرات وبين شَطِّ الكوثر
ولتغتبقها قهوة ذهبية ... من راحتي أحوى المراشف أحور
والروض بين مفضّض ومذهّب ... والزهر بين مدرهم ومدنّر
والنهر مرقوم الاباطح والربا ... بمصندل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شطه ... سيف يسيل على بساط أخضر

ومن شعراء المرحلة الاولى عزيز بن عبد الملك القيسي، كان من زعماء مُرسية وقد حكمها مدة قصيرة، مات قتلاً سنة (٦٣٨ هـ/١٢٤٠م). من شعره قصيدة يصف بها حاله بعدما حلت به المصائب وابتعد عنه الاصحاب ومطلعها:

نصحْتُ فلم أفلَحْ وخانوا فأفلحوا ... فأَعْقَبَني نُصْحِي بدارِ هَوانِ

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٢، ص ١٦١ ـ ١٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩١.

(٣) هو المؤرخ الذي يستشهد المقري بأقواله في أماكن كثيرة من كتابه «نفح الطيب» وبخاصة الجزء الاول.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٥٠ ـ ٥٥.

ومنهم علي بن ابراهيم المعروف بابن الفخار الشريشي، وكان كاتباً وشاعراً، تولى القضاء مدة وتوفي سنة (٦٤٢ هـ/١٢٤٤م)، ثم ابراهيم بن سهل الاشبيلي(١) وهو من أصل يهودي، مات غرقاً وهو بعد في سن الشباب سنة (٦٤٩ هـ/١٢٥١م) وترك مجموعة موشحات منها التي مطلعها:

لـيـلُ الـهـوى يَـقْـظـانْ والـحُـبُّ تِـرْبُ الـسَّـهَـرِ
والـصَّـبْـرُ لـي خَـوّانْ والـنَّـوْمُ مِـنْ عَـيْـنِـي بَـرِي

أمّا ابن الابار، فهو فقيه وكاتب وشاعر ومؤرخ مشهور، واسمه أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، واشتهر بابن الابار. ولد سنة (٥٩٥ هـ/١١٩٣م) ثم عمل كاتباً عند الامير أبي جميل زيّان أمير بلنسيه. ولما حاصر الاسبان المدينة سنة (٦٣٦ هـ/١٢٣٨م) أرسل الامير كاتبه الى تونس ليستنجد بأميرها أبي زكريا الحفصي، فألقى ابن الابار بين أيدي أبي زكريا سينيته المشهورة التي مطلعها:

أَدْرِكْ بخَيْلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلُسا إنَّ السبيلَ الى مَنْجاتِها دَرَسا

وبعد سقوط مرسيه رحل ابن الابار مع عائلته الى تونس حيث لقي نهاية محزنة اذ قتله أميرها بتحريض من الخصوم في سنة (٦٥٩ هـ/١٢٦٠م). ومن آثاره المعروفة تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال، وكتاب «الحلة السيراء»، وكتاب تحفة القادم، وكتاب الاعتاب، وايماض البرق، كما ترك مجموعة قصائد في موضوعات متنوعة(٢).

كما عرف من الشعراء أبو الطيب صالح بن الشريف الرندي، ولد سنة (٦٠١ هـ/١١٩٩م) وتوفي سنة (٦٨٤ هـ/١٢٨٥م). عاش قسماً من حياته في غرناطة

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٦.
(٢) المصدر السابق، ج٤، ص ١١٩ ـ ١٢١.

واتصل ببلاط بني الاحمر في أيام محمد الاول، واشتهرت قصائده في رثاء الممالك الزائلة[١].

وتجدر الملاحظة الى أن النهضة الادبية بلغت ذروتها في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) وبخاصة في عهد السلطان ابي الحجاج يوسف الاول وولده محمد الخامس، وكان السلطان يوسف الاول عالماً اديباً محباً للقانون.

ومن الشخصيات الادبية المشهورة في ذلك العصر أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن اللخمي الرُندي المعروف بابن الحكيم نسبة الى جده الذي كان طبيباً. ولد في رُندة في سنة (٦٦٠ هـ/١٢٦١م) وانتقل الى غرناطة فتى في أيام السلطان محمد الفقيه الذي عينه في ديوان الانشاء. ثم تقلد مهام الوزارة على عهد السلطان ابي عبدالله محمد المخلوع، وقد استبد بالحكم حيناً الى أن قتل يوم عيد الفطر (٧٠٨ هـ/١٣٠٨م)[٢].

من شعره قوله:

مـا أحْـسَـنَ الـعـقـلَ وآثـارَهُ	لـو لازم الانـسـان ايـثـارَهُ
يـصـون بـالـعـقـلِ الـفـتـى نـفـسَـه	كـمـا يـصـونُ الـحـرُّ أسـرارَهُ

ومن قوله:

ألا واصـلْ مـواصـلـةَ الـعُـقـارِ	ودعْ عـنـكَ الـتـخـلُّـفَ بـالـوقَـارِ
وقُـمْ واخـلَـعْ عِـذارَكَ فـي غَـزَالٍ	يَـحُـقُّ لِـمـثْـلِـهِ خَـلْـعُ الـعِـذَارِ

وكان ابنه أبو بكر محمد بن الحكيم من اعلام الشعر والنثر أيضاً، كما تولى منصب الوزارة وكان من اساتذة ابن الخطيب[٣].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص ٤٨٦.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٤٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩٧.

ومن شعراء تلك الحقبة أبو عبدالله محمد بن خميس التلمساني(١)، وفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه، ثم انتقل الى ألمرية واتصل بحاكمها أبي الحسن بن كماشه. وقد مات قتلاً في اليوم نفسه الذي قتل فيه الوزير ابن الحكيم. واشتهر ابن خميس بشعر الغزل الذي جنح فيه نحو الاباحية، ومما قاله:

نظرتْ اليكَ بمثْلِ عَيْنَيْ جُؤْذُرِ ... وتبسَّمَتْ عن مِثْلِ سِمْطَيْ جَوْهَرِ
عنْ ناصِحٍ كالدُّرّ أو كالبرقِ أو ... كالطَلْحِ أو كالأُقْحُوانِ مُؤَشَّرِ
تجري علَيه منْ لَمَاها نِطْفَةٌ ... بلْ خَمْرَةٌ لكنها لمْ تُعْصَرِ
لو لم يكن خمراً سُلافاً ريقُها ... تَزْري وتلعَبُ بالنُّهَى لمْ تَخْطُرِ

ومنه قوله:

أَتَيْتُ ولكنْ بعدَ طولِ غِيابِ ... وفرطِ لجاجٍ ضاعَ فيه شبابي
وهيهاتَ منْ بعدِ الشبابِ وشَرْخِه ... يَلذُّ طعامي أو يَسُوْغُ شَرابي
خُدِعْتُ بهذا العيشِ قبلَ بلائِه ... كما يُخْدَعُ الصادِي بِلَمْعِ سَرابِ

كما عرف من الكتاب والشعراء أبو حيان الغرناطي الذي ولد بغرناطة في سنة (٦٥٤ هـ/١٢٥٦م) ورحل الى المشرق وتوفي بمصر في سنة (٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤م). والى جانب تضلعه في الفقه واللغة والنثر اشتهر بموشحاته، ومنها قوله:

ان كان ليلٌ داجْ وخاننا الإصْباحْ فنورُها الوهاجْ يُغني عنِ المِصباحْ

شُلافَةٌ تبدو ... كالكوكب الازهرْ
مزاجُها شهدُ ... وعَرْفُها عنبرْ
يا حبذا الوردُ ... منها وان سكرْ

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٩.

وهناك من الشعراء أبو عبدالله محمد بن جابر الاندلسي الضرير، وقد رحل الى المشرق واتصل بسلطان ماردين ومدحه. ترك مجموعة قصائد في المدح والغزل والحكم، ومن شعره قوله:

تجنَّتْ فَجُنَّ في الهوى كلُّ عاقلٍ	رآها وأحوالُ المُحِبّ جنونُ
وما وعدَتْ الا غلَتْ في مِطالها	كذلك وعدُ الغانياتِ يكونُ

وقد اشتهر في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) أبو عبدالله محمد بن سلبطور، ويشير اسمه الى أنه من أصل نصراني، فكلمة سلبطور تحوير لكلمة «سلفادور» (Salvador). نشأ في ألمرية وتدرب على قيادة السفن وأصبح نائباً لامير البحر أبي علي الرنداحي. ثم مال الى الادب ونظم الشعر واسترسل في حياة اللهو فأضاع ثروته وساءت أحواله، فانتقل الى المغرب حيث توفي بمراكش سنة (٧٥٥ هـ/١٣٥٤م)[١]. من شعره هذه الابيات التي استهل بها مديحه للسلطان يوسف الاول يوم حلّ بألمرية:

أثغركِ أم سمْطٌ من الدُرّ يُنظمُ	وريقُكِ أم مسْكٌ من الراحِ تُخْتَمُ
ووجهك أم بادٍ منَ الصبحِ نَيِّرٌ	وفرعُكِ أم داجٍ من الليلِ مظلم
أعللُ منكِ الوجدَ والليلُ ملتقى	وهل ينفعُ التعليلُ والخطبُ مؤلم
وأقنعُ من طيفِ الخيالِ بزَوْرةٍ	لَو انَّ جفوني بالمنامِ تَنَعَّمُ

ومن الكتاب والشعراء المعروفين أبو عبدالله محمد بن جزي، وقد ولد بغرناطة سنة (٧٢١ هـ/١٣٢١م) وأصبح فيما بعد كاتباً عند السلطان يوسف الاول. لكن غضب السلطان عليه حمله على مغادرة الاندلس والانتقال الى المغرب حيث اتصل بالسلطان ابي عنان المريني ومدحه. وقد توفي بمراكش في سنة (٧٥٧ هـ/١٣٥٦م) تاركاً مجموعة من القصائد في موضوعات متنوعة[٢].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص ٥٢٦.

كما اشتهر بالشعر قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني، وقد ولد سنة (٦٩٧ هـ/١٢٥١م) وتوفي بغرناطة سنة (٧٦٠ هـ/١٣٥٨م)، وله ديوان شعري أسماه «جهد المقل»[١].

أما ابن خاتمة الانصاري الذي ذكرناه بين المؤرخين فكان من الشعراء المجيدين، ومن شعره قوله:

مـن لـم يـشـاهـدْ مـوقـفـاً لـفـراقِ ... لـمْ يـدرِ كـيـف تَـوَلُّـهُ الـعـشَّـاقِ
ان كُـنـتَ لـم تَـرَهُ فـسائِلْ مَنْ رأى ... يُـخْـبِـرْكَ عـنْ وَلَـهـي وَعَـنْ أشـواقِـي

ومنه قوله:

لـولا حـيـائي مـن عُـيـونِ الـنَّـرْجِـسِ ... لَـلَـثَـمْـتُ خـدَّ الـوردِ بـيـن الـسُّـنْـدُسِ
وَرَشَـفْـتُ مِنْ ثَـغْرِ الأقـاحَـةِ ريـقَـهـا ... وَضَـمَـمْـتُ اعطافَ الغُصونِ المُيَّسِ

ومن الشخصيات التي عاصرت ابن الخطيب أبو سعيد فرج بن لُب[٢] (ت ٧٨٢ هـ/١٣٨٠م)، وكان فقيهاً خطيباً وشاعراً ترك مجموعة قصائد تتسم بالرقة والسهولة، ومن شعره قوله:

خُذوا لِلهَوى منْ قَلْبِيَ اليومَ ما أَبْقَى ... فـمـا زالَ قـلـبـي كُـلُّـهُ لِـلـهَـوَى رِقـا

ومن الذين درسوا على ابن الخطيب، القاضي أبو محمد بن عطيه بن يحيي المحاربي الذي اشتهر في النثر والنظم. ثم أبو عبدالله الشريشي الذي كان مساعداً لابن الخطيب ومؤدباً لابناء السلطان.

ولا ننسى، في مجال ذكر الكتاب والشعراء، الامير اسماعيل بن يوسف بن محمد بن الاحمر صاحب كتاب «نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان»، وفيه تناول سير الكتاب والشعراء المشهورين في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الاندلس، ص ١٧١.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص ٥٠٩ . ٥١١.

للميلاد). كما له كتاب «نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان» وفيه يتحدث عن شعر الملوك من بني الاحمر وبني حفص وبني مرين وبني عبد الواد. وقد توفي ابو الوليد اسماعيل في سنة (٨٠٧ هـ/١٤٠٤م).

في الحديث عن الحركة الادبية في عصر بني الاحمر لا بد من التوقف، ولو قليلاً، عند شخصيتين مهمّتين كان لهما الشأن الكبير في الحياة السياسية والادبية في ذلك العصر، وهما من الاعلام الذين اغنوا الادب العربي في شعره ونثره. وهاتان الشخصيتان هما ابن الخطيب وابن زمرك اللذان أوصلا الادب الاندلسي الى ذروته في العهد النصري.

١ ـ لسان الدين بن الخطيب(١):

حياته: هو لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن الخطيب، انتقلت أسرته من قرطبة الى طليطلة بعد وقعة الربض أيام الحكم الاول، ثم رجعت الى مدينة لوشه واستقرت بها. وقد عرفت عائلة ابن الخطيب بالنزاهة والتقوى وحب الادب. وبعد ولادة لسان الدين في شهر رجب سنة (٧١٣ هـ/ ١٣١٣م) انتقلت العائلة الى غرناطة حيث دخل والده في خدمة السلطان أبي الحجاج يوسف. وفي العاصمة النصرية درس لسان الدين الطب والفلسفة والشريعة والادب، وبرز منذ حداثته شاعراً مجيداً وكاتباً معروفاً. ولما قتل والده سنة (٧٤١ هـ/١٣٤٠م) في معركة طريف بين المسلمين والاسبانيين كان مترجمنا في الثامنة والعشرين، فحل مكان أبيه في أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجياب. ثم توفي هذا الاخير سنة (٧٤٩ هـ/١٣٤٩م) بالطاعون الجارف فتولى لسان الدين منصب الوزارة الى جانب كتابة السر. ولما قتل السلطان أبو الحجاج يوسف سنة (٧٥٥ هـ/١٣٥٤م) وانتقل الملك الى ولده الغني بالله محمد استمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة يعاونه ابن الخطيب.

(١) في عرضنا لحياة ابن الخطيب ومؤلفاته اعتمدنا: دائرة المعارف، ادارة ف.ا. البستاني. بيروت، ١٩٦٠، الجزء الثالث، (ابن الخطيب).

ثم وقعت الفتنة في رمضان من سنة (٧٦٠ هـ/١٣٥٩م) فقتل الحاجب رضوان واقصي الغني بالله وفرّ الى وادي آش، وتسلم الملك أخوه اسماعيل فولى ابن الخطيب الوزارة. ثم تغير عليه واعتقله، وكُبِسَتْ دوره وانتهبت. وبلغ الخبر الى سلطان المغرب أبي سالم المريني فتدخل في شأن السلطان المخلوع ووزيره، فأجابه السلطان الجديد الى مطلبه وجاز الغني بالله وابن الخطيب الى المغرب حيث استقبلا بالترحاب.

أمضى ابن الخطيب برفقة مليكه عامين في المنفى، الى أن تطورت الحوادث وأدت الى سقوط المغتصب وعودة الغني بالله الى الملك، وعاد ابن الخطيب الى الوزارة فقضى على منافسه عثمان بن يحيى شيخ الغزاة.

لكن استئثار ابن الخطيب بالسلطة وانفراده بالحل والربط جمع حوله الحسّاد والمبغضين الذين اثمرت سعاياتهم لدى صاحب الحمراء. وفي طليعة الذين أوقعوا بينه وبين أميره تلميذاه أبو عبدالله بن زمرك الشاعر وأبو الحسن النباهي قاضي الجماعة، وقد اتهماه بالزندقة. ولمّا شعر ابن الخطيب بتغير السلطان عليه استأذنه بحجة تفقد الثغور الغربية، ومن هناك عبر الى المغرب حيث أكرمه السلطان عبد العزيز المريني ولم تُجْدِ محاولات الخصوم بالرغم من الملاحقات والتحريض، فأفتوا بوجوب حرق كتبه فأحرقت بمحضر من الفقهاء سنة (٧٧٣ هـ/١٣٧١م).

وبعد وفاة السلطان عبد العزيز تسلم الملك ابنه السعيد وكان طفلاً. فنشبت ثورة في شمال البلاد وامتدت حتى استطاع الامير احمد ابن ابي سالم المريني خلع الطفل وتسلم الحكم. وقبض الجديد على ابن الخطيب بتدبير ابن الاحمر، وزجه في السجن حيث قتل خنقاً في أواخر سنة (٧٧٦ هـ/١٣٧٥م). ودفنت جثته خارج فاس في مقبرة باب المحروق، ثم أخرجت وجمعت لها أعواد وأضرمت عليها النار فاحترق شعره واسودت بشرته وأعيد الى حفرته. وقد خلف ابن الخطيب ثلاثة أبناء هم عبدالله ومحمد وعلي، كانوا من الادباء المقربين من الملوك. وقد ترك علي ملاحظاته في حواشي كتاب الاحاطة.

كان ابن الخطيب سياسياً ومؤرخاً وطبيباً وشاعراً. وأهم مؤلفاته: «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، «الاحاطة في أخبار غرناطة»، «رقم الحلل في نظم الدول»، «معيار الاختيار في ذكر المشاهد والاثار»، «أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام»، «مفاضلة بين مالقة وسلا»، «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف»، «مقنعة السائل عن المرض الهائل»، «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب»، «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، «كناسة الدكان بعد انتقال السكان»، «عمل من طب لمن حب»، «الوصول لحفظ الصحة في الصول»، «جيش التوشيح»، «التاج المحلى في مساجلة القدح المعلّى»، «الكتيبة الكامنة»... ومجموعة رسائل وقصائد...

الشاعر: ترك ابن الخطيب قصائد في أغراض متنوعة ولاسيما في المدح والسياسة، وله موشحات مشهورة، ويعده ابن خلدون شاعر الأندلس والمغرب. وهو يميل في شعره الى العناية باللفظ فقلّ الغوص على الفكرة، وهذا ما جعل التكلف بادياً في بعض قصائده، وغالباً ما يستهل مدائحه بالغزل ووصف الطبيعة.

وجدران الحمراء غنية بالابيات الشعرية التي نظمها ابن الخطيب في مناسبات مختلفة كانتصار الغني بالله واستعادته الملك، ومما نقش:

الحقُّ يَعْلو والاباطِلُ تَسْفُلُ   اللهُ عنْ أحكامِهِ لا يُسْأَلُ

ومن موشحاته قصيدته المشهورة في الغزل ووصف الطبيعة وتذكر الماضي، والقصيدة يرددها الناس ويغنيها المغنون ومطلعها:

جادكَ الغيثُ اذا الغَيْثُ هَمَى   يازمانَ الوَصْلِ بالأَندلسِ
لم يكنْ وصلُكَ الا حُلُما   في الكَرَى أو خِلْسَةَ المُخْتلسِ

الكاتب: اهتم ابن الخطيب بتاريخ الاندلس وبنوع خاص تاريخ بني الاحمر. وقد مكّنه منصبه الرفيع من الوقوف على احوال الدولة واسرارها، فجاءت كتبه «الاحاطة» و «اللمحة البدرية» و «اعمال الاعلام» مصادر أساسية لكل ما يتعلق

بتلك المرحلة من الوجود العربي في الاندلس. والحال نفسه بالنسبة الى رسائله السلطانية التي كان يكتبها باسم أميره الى ملوك المغرب واسبانيا، وفيها تظهر براعته في تدبير سياسة الدولة. ورسائل ابن الخطيب متنوعة الاغراض فمنها السلطانية ومنها الاخوانيات ومنها الفلسفية.

ولغته على الاجمال متينة التركيب الا أن الغموض يكتنفها أحياناً بسبب استرساله في استعمال المجاز والمحسنات المختلفة، كما يشعر القارىء في بعض رسائله بشيء من الملل لما في جمله من التداخل والتكرار. الا ان هذه الهنات لا تؤثر على قيمته ومركزه بين كبار أدباء العرب.

٢ ـ ابن زمرك[١]:

هو أبو عبدالله محمد بن يوسف بن أحمد الصريحي المعروف بابن زمرك، شاعر وكاتب معروف، ومن مشاهير رجال السياسة في مملكة بني الاحمر. أصله من شرقي الاندلس، ونزحت أسرته آلى حي البيازين بغرناطة حيث ولد سنة (٧٣٣ هـ/١٣٣٣م). درس في غرناطة على يد ابن الخطيب كما درس في مدينة فاس وعمل في بلاط السلطان ابي سالم المريني. ثم عاد الى غرناطة وعمل في كتابة السر في كنف ابن الخطيب وتحت رعايته. الا ان ابن زمرك جحد استاذه وسعى به حتى نكب وقتل خنقاً، على نحو ما ذكرنا في ترجمة ابن الخطيب. وقد ترقى في خدمة السلطان محمد الخامس وغدا من جملة وزرائه. ثم نكبه السلطان بسبب طغيانه وغطرسته وحدة لسانه، ونفاه خارج غرناطة، وفي عهد محمد بن يوسف الثاني أعيد الى الوزارة فأساء السيرة ثانية وكثر خصومه، ثم دهمه جماعة من المتآمرين في منزله فقتلوه مع خدمه وأبنائه سنة (٧٩٧ هـ/ ١٣٩٥م). وقد ترك ابن زمرك مجموعة قصائد في المدح والوصف والغزل، كما برع في الموشحات، وله أبيات شعرية منقوشة على جدران الحمراء. وأكثر شعره ذكره المقري في كتابيه «نفح الطيب» و «أزهار الرياض».

(١) راجع: دائرة المعارف، ادارة ف.ا. البستاني، بيروت، ١٩٦٠، الجزء الثالث (ابن زمرك).

وشعر ابن زمرك بوجه عام يمتاز بالرقة وطول النفس، ومن شعره قوله في مطلع قصيدة يمدح بها صاحب الحمراء:

لعل الصَّبا إنْ صافحَتْ روضَ نُعمانِ تُؤدي أمانَ القلبِ عن ظبيةِ البانِ

ومن قوله يصف قصر الحمراء:

وَتَهْوى النُّجومُ الزُّهْرُ لو ثبتت به ولـم تكُ فـي أفْقِ السمـاءِ جواريا

وله موشح مشهور بعث به من فاس الى ابن الاحمر متشوقاً الى بلاطه، يقول فيه:

أبلـغْ لغرنـاطـةَ سَلامـي وصِـفْ لهـا عهـدي السليـمِ
فلـو رعى طيـفَهـا ذِمـامـي مـا بِـتُّ فـي ليلـةِ السليـمِ

كما ان له موشحة يتحدث فيها عن جمال غرناطة ومطلعها:

نسيـمُ غرنـاطـةَ عليـلُ لكنَّـه يبـرىء العليـلَ
وروضهـا زهـرُه بليـلُ ورشْـقَـةُ ينقـعُ الغليـلَ

وعلى الاجمال فان ابن زمرك يتفوق على استاذه في بعض النواحي الشعرية، ولكنه يقصر عنه في عمق التفكير وغزارة الانتاج وتنوع الموضوعات، وهو لم يتوصل الى مجاراته في الشهرة الادبية.

الفصل الخامس

الفن النصري

نحاول في هذا الفصل عرض أهم خصائص الفن النصري فنتناول العمائر الثابتة ورسومها ومواد البناء والزخرفة، والتحف الفخارية والخزفية، والخشب والعاج والجلد والورق والنسيج. والغاية هي اعطاء القارىء فكرة مختصرة عن أهم خصائص الفن الاسلامي في مملكة بني الاحمر.

أول ما نلاحظه في الفن النصري على صعيد البناء غلبة الطابع المدني على الديني اذ لا بروز قوي للمساجد والحصون كما هي الحال في العهود السابقة لاسيما أيام المرابطين والموحدين[1]. وما يسترعي الانتباه في العمارة الاسلامية الغرناطية اعتماد البساطة من الخارج مع كثرة الزخارف من الداخل. والمواد المستعملة في عملية البناء والزخرفة هي الحجارة والآجر والجص والخزف والخشب والنحاس والحديد والرخام، وكان الخزف البراق لرصف الارض وبعض الواجهات، والخشب المصقول والجص والنحاس والذهب والحديد للجدران والسقوف والابواب والنقوش المتنوعة المشبكة والمفرغة، أمّا الرخام فاستعمل للاعمدة ورصف الغرف والممرات والابهاء، كما نجده حول البرك والنوافير، والمعروف ان الآجر أو القراميد[2]، يغطي معظم سطوح الحمراء بشكل هرم ناقص.

---

(١) مجلة: عالم الفكر، المجلد٨، العدد١، ابريل مايو يونيو ١٩٧٧، ص ١٠٢.

(٢) القراميد على انواع، فالنوع المعروف بالآجر يستعمل لتغطية السطوح، كما يستعمل حجر الآجر في البناء، والنوع المعروف بالخزف تصنع منه الادوات المنزلية المتنوعة كما يستعمل لرصف الارض، وتعرف القراميد أو البلاطات الخزفية في المغرب والاندلس باسم الزُلّيج، وتعرف في العراق باسم الكاشي، وهذه الكلمة مأخوذة عن اسم مدينة قاشان الايرانية التي اشتهرت بانتاجها.
راجع: محمد مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ، ص ٧٦.

من ناحية ثانية تكثر في قصر الحمراء البرك المحاطة بسقائف قائمة على عقود فوق أعمدة، كما تنتظم على حفافي البرك ادواح الريحان. أما الاعمدة فهي بعيدة اجمالاً عن الضخامة، وهي دقيقة رشيقة وتعلوها افاريز بارزة، وتأتي تيجانها أحياناً مكعبة الشكل ومكسوة بتوريقات من النخيل منحنية في تناسق وانسجام.

وعملية الزخرفة تقوم أساساً على تقسيم الحائط الى مستطيلات ومربعات ومضلعات متداخلة في تناسق وانسجام، ثم تدخل فيها التوريقات والكتابات المتنوعة. وهذا ما يعرف باسم الفسيفساء. وكثيراً ما تأتي الزخارف نافرة فيبدو الحائط من بعيد كأنه مغطى بسجادة أو بساط حيك بدقة فائقة قبل ان يعلّق. وقد اعتمد الفنانون من أجل التأثير الجمالي على خاصة الهروب من الفراغ، فكسوا الجدران الداخلية بزخارف موزعة من أسفلها الى اعلاها.

واهتم الغرناطيون بالسقوف الخشبية المصقولة والمطعمة برقوش من مادتي الجص والعاج، ومعظم هذه السقوف يزدان بالزخارف الهندسية الملونة تمثّل أشكالاً نجمية محفورة بالخشب ومزينة بخطوط ذهبية وفضية ونحاسية، ويحيط بهذه السقوف أفاريز خشبية أو جصيّة مكسوّة بالتوريقات والكتابات المتنوعة. وأروع ما في الاسقف الغرناطية تلك المُقَرْنَصات المتدلية من زوايا بعض السقوف. كل ذلك يدل على صبر ومهارة الذين قاموا بذلك العمل. لقد جعل الفنانون من البناء الجامد تحفة تقيّد الالحاظ في كل معالمها وتجمد العيون في كل جزء فلا تنتقل الى غيره قبل أن تستكمل متعتها من الجمال.

بعد هذه اللمحة السريعة لا بد من التوقف عند المواد وكيفية البناء والزخرفة. ويمكن القول أن المواد الاساسية التي استعملت في البناء في تلك المرحلة من تاريخ الاندلس تنحصر في الطوب أو الطين والحجارة المكسّرة والآجر. وقلما نجد بناء يقوم بكامله على الحجارة المصقولة، ذلك أن الحجارة المنحوتة لا تبرز الا في القسم الخارجي من المداخل. والواقع أن القراميد حلت مكان الحجارة في عملية البناء، خصوصاً في القسم الخارجي منه، وفي الاقسام التي

تتطلب الحفاظ بدقة على استقامة خط البناء: في بعض الاعمدة الجانبية وعوارض الابواب، وفي الاقواس والقباب. وكانت الاقواس تشاد عن طريق رصف طبقات من الاجر او الحجارة القرميدية بدءاً من نصف القوس الذي كان يعتبر الاساس، أو يبدأ رصف القراميد انطلاقاً من تاجي العمودين اللذين اعدا لحمل القوس فتلتقي الحجارة عند منتصف العقد، ويستعان في العمليتين بدعائم خشبية. وتجدر الملاحظة الى استعانة البنائين بميزان الزئبق بغية التأكد من توازي البناء، ويستعان بالطين من الطوب لتسوية الخلل. أما القباب فهي اجمالاً مداميك موادها من الحجارة المكسرة والاجر المهشّم والطين. واللجوء الى هذا النوع من البناء، قد يعكس الميل الى السرعة في الانجاز او الاقتصاد في النفقات[١].

أما المواد المستعملة في زخرفة المباني في القرنين الثالث عشر والرابع عشر فهي نفسها التي كانت في العصور السابقة، وقد ذكرناها في بداية هذا الفصل، ولم تتغير عملية الزخرفة الا قليلاً. فالحجر المنحوت كان يستعمل أساساً في تغطية الواجهات واحاطة المداخل والابواب والنوافذ بأطر تكون بمثابة براويز لها، مع التفنن في نحتها وزخرفتها، فالحجر اذاً كان له دور مهم في عملية التزيين، أمّا الرخام على أنواعه وألوانه فقد كان كما ذكرنا من اجل الاعمدة وبعض الاقواس، ونلاحظ ذلك في بعض مداخل الحمراء.

وقد حل الجص مكان الحجر المصقول في الغرف الداخلية وعلى جدران الابهاء. وقد اتقنت صناعته كي لا يتأثر بالتقلبات الهوائية والحرارية، وهو لم يتشقق أو يتساقط بدليل ما نراه في الابنية الغرناطية وسواها.

وفي مجال الزخرفة، هناك ما يعرف باسم «نقش الحديد» أو النقش على الجص بواسطة الحديد. وهذه الطريقة ترقى الى القرن التاسع حيث عرفت في المغرب، ثم ازدهرت في الاندلس خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

(١) Georges Marcais, Manuel d'Art Musulman, Ed. Auguste Picard, Paris 1927, T II, P 585.

وعملية نقش الحديد تقضي بأن يرسم الفنان بواسطة قطعة من الحديد دقيقة النقش أو الكتابة فوق الجص الطريء، وبعد جفافه يحفر الرسم بأزميل صغير ليصبح أكثر وضوحاً أو تنزع الزيادات ليبقى النقش وحده ويلصق على الواجهة[١].

ولم يكن للفخار العادي دور مهم في عملية الزخرفة، أما الفخار المطلي أو الخزف الذي عرف باسم الزليج فقد كان منذ القرن العاشر معروفاً في المغرب والاندلس، وأصبح استعماله شائعاً منذ النصف الاول من القرن الرابع عشر[٢]. وعملية الزخرفة بالزليج تقوم على حشره، عندما يكون بعد طيناً طرياً، بين الحجارة المنحوتة أو الحجارة القرميدية، ثم يطلى بعد جفافه باللون المناسب حسب ما يكون رسم الزليج. ويدخل الزليج عادة في زخرفة واجهات الابواب والنوافذ الخارجية وأفاريز المآذن العالية، وفي تزيين السقوف أحياناً. وصناعة الخزف تطورت بعدما أدخلت فيها الالوان المختلفة كالابيض والاسود والاخضر والاصفر والالوان الاخرى المتفرعة عن المزج بينها. والزخارف ذات الاشكال الهندسية الدقيقة أو المستوحاة من الطبيعة كالاوراق والازهار، هي في قسم منها من الخزف الملون، وهذا ما نلاحظه في قصور الحمراء بنوع خاص.

عدا عمّا ذكرناه من المواد المستعملة في مجال الزخرفة، فان الخشب استعين به في تزيين السقوف على نحو ما ذكرنا، وللابواب والمنابر والمقاعد. وقد أعطى الفنانون من الخشب أشكالاً متنوعة، كرصف قطع صغيرة بعضها قرب بعض، أو حفر الاشكال الهندسية المتداخلة كالمثلثات والمخمسات. وهذا ما نلاحظه في سقوف الغرف المحيطة ببهو بني سراج وفي غرفة الاختين في الحمراء، كما كثرت الاشكال النجمية في سقف وجدران قاعة قُمَارِش. وقد

(١) المرجع السابق، ص ٥٨٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٨٨.

عمد الفنانون الى تطعيم الخشب بالعاج والذهب والجص، كما اهتموا بصنع تماثيل من خشب الارز المستورد من جبال الاطلس فزينوا أعالي الجدران والابواب بأشكال الطيور كالبزاة والنسور. ونشير أخيراً الى أن النحاس كان عنصراً زخرفياً مهماً، خصوصاً في بعض الابواب الخشبية التي كانت تغطّى كلياً أو جزئياً بزخارف نحاسية ذات أشكال هندسية متنوعة.

وفي الفن النصري أشكال زخرفية كبيرة متمثلة في الاقواس والاعمدة والهوابط والخطوط والتوريقات والخطوط المشبكة.

أما الاقواس فان تنوعها واختلاف أشكالها أمر كان معروفاً في العصور السابقة، ومن الصعب التعرف الى كل الاصول التي تعود اليها، وأهم أشكال الاقواس في الابنية العربية:

١ . العادية لبعض الممرات الداخلية

٢ . البيضوية لمداخل الغرف العادية

٣ . نعل الفرس للمداخل الكبرى والواجهات الخارجية والشرفات.

٤ و ٥ . المنتفخة والمروسة لمداخل القاعات

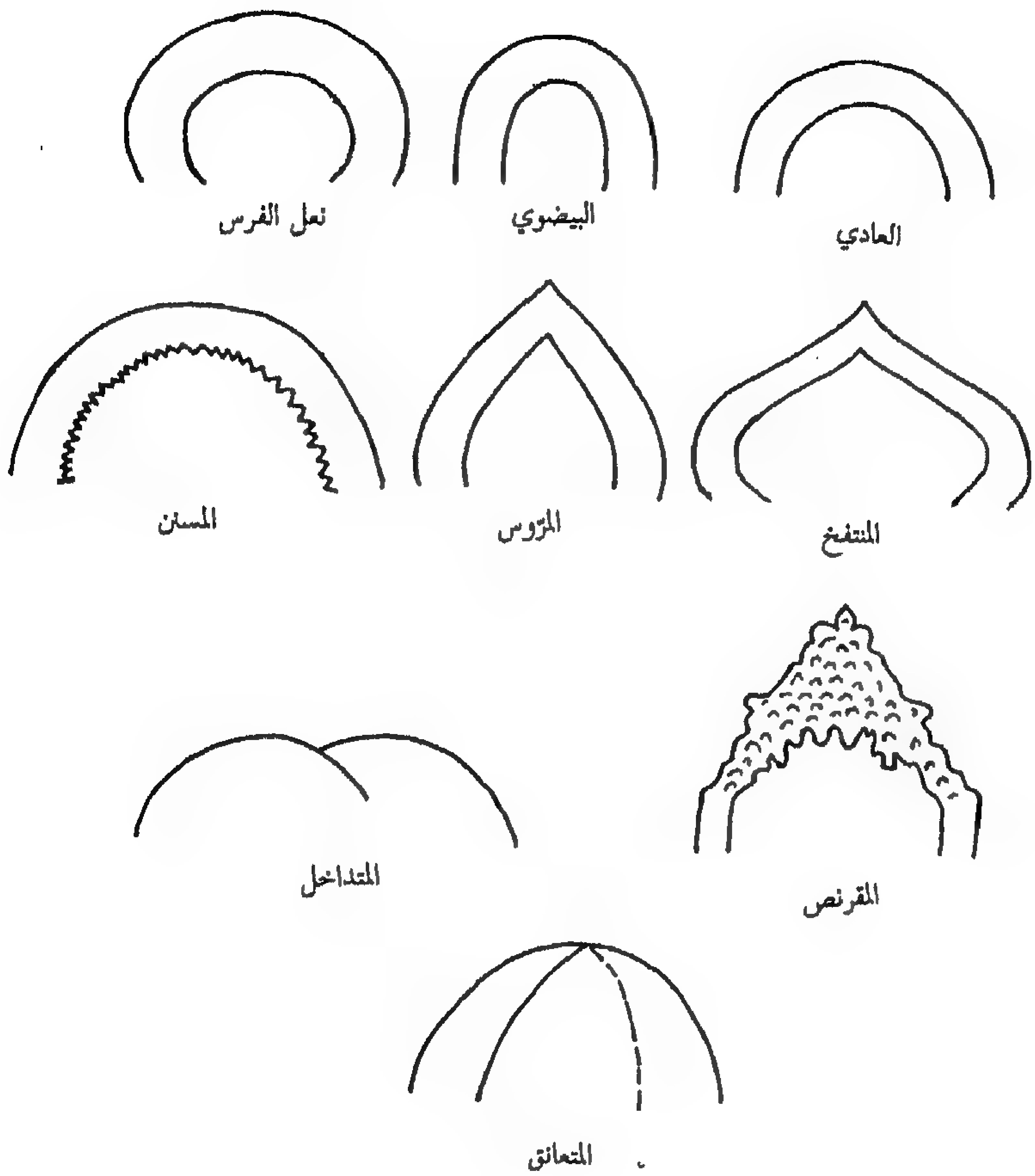
٦ . المسنّنة للعقود المحيطة بالابهاء.

٧ . المقرنصة للواجهات الداخلية في المجالس الرسمية والخاصة

٨ . المتداخلة لسقوف الممرات والابراج والاقبية.

٩ . الاقواس المتعانقة للقباب والمآذن.

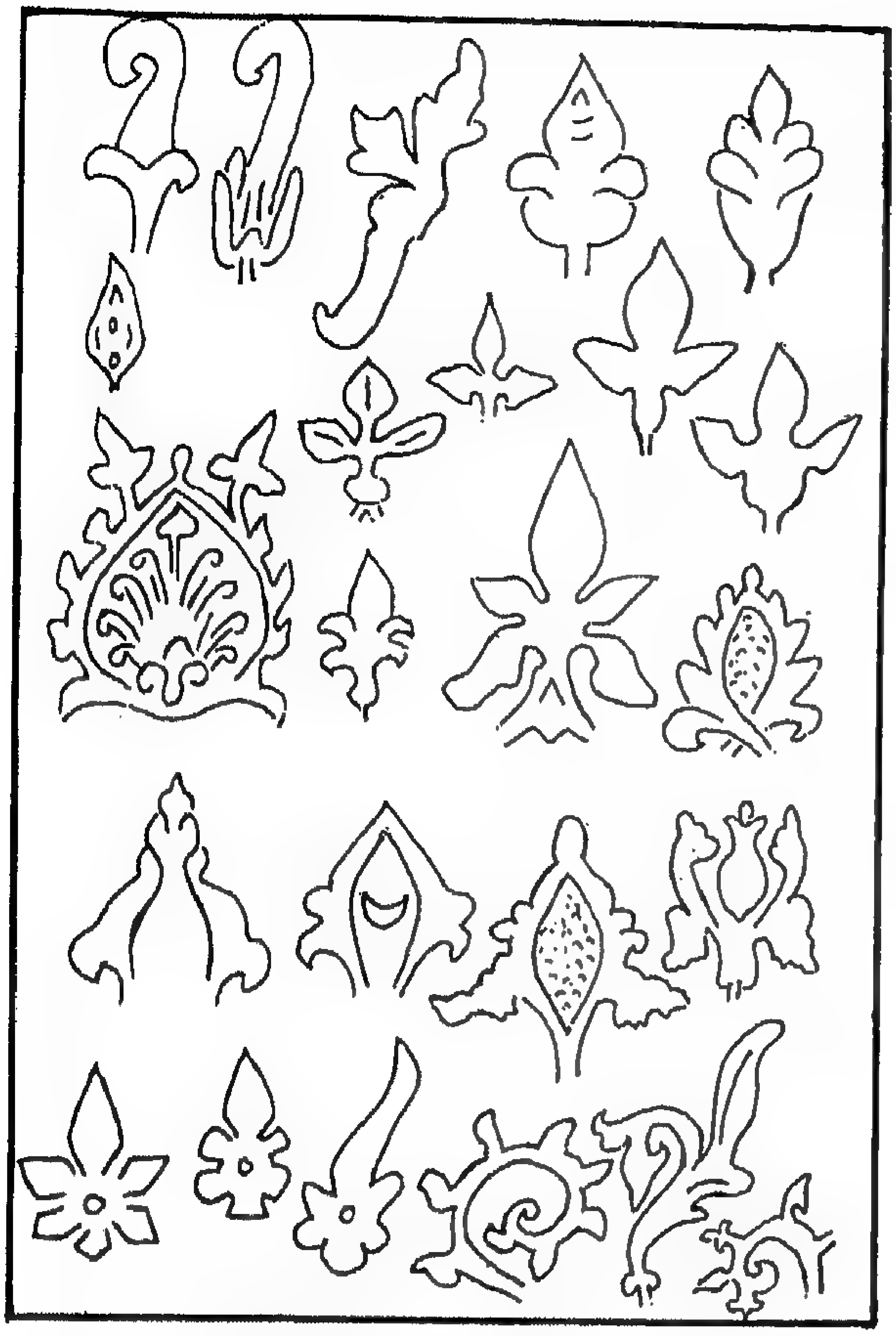
أشكال الاقواس في الابنية النصرية:



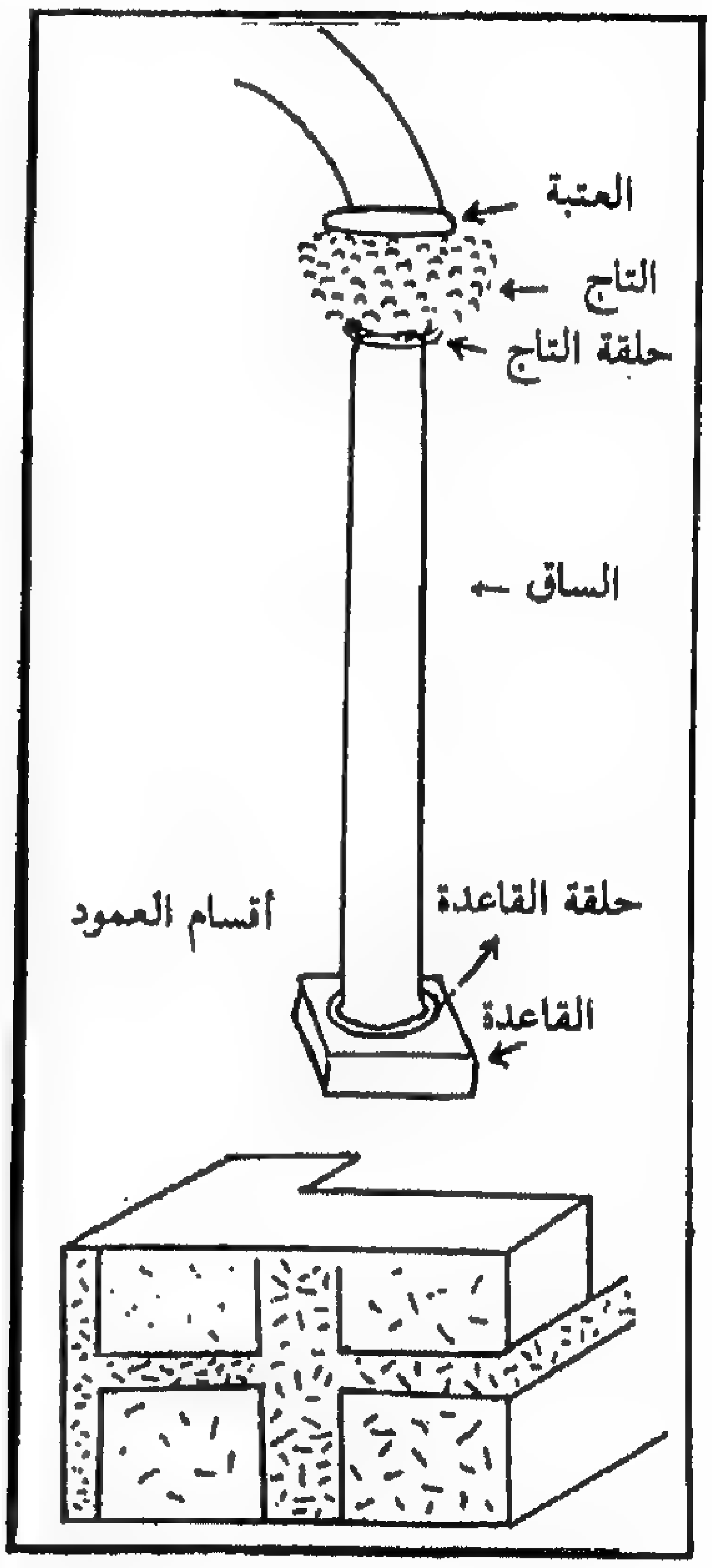
ولا يعني هذا التقسيم للاقواس ان كل شكل يصلح لنوع من البناء دون سواه، فقد نقع على شكل نعل الفرس فوق مداخل القاعات وعلى الاقواس المنتفخة فوق المداخل الخارجية، وانما ارتأينا أن نفرق الاقواس على النحو الذي ذكرنا بعد ملاحظة ذلك في قصر الحمراء وبعض الابنية العامة. فالاقواس على شكل نعل الفرس نجدها فوق باب الشريعة أو باب العدل وفوق أبواب الاسوار، والمقرنصة داخل قاعة العرش، والمسنّنة حول باحة الاسود، والمتداخلة في سقوف الحمامات. وسنأتي على ذكر ذلك في حديثنا عن قصر الحمراء وبعض الابنية الباقية من عهد بني الاحمر.

ننتقل الى العمود وأقسامه وأنواعه. نعلم أن اعتاب الاقواس تشكل القسم الذي يرتكز عليه القوس، وهي الحد الفاصل بين القوس وتاج العمود، وهي عادة خالية من الزخارف وتعد امتداداً للتاج. واللافت في تيجان الاعمدة في مختلف أنواع الابنية النصرية أنها تطورت ولم تعد كما كانت سابقاً، فهي أقل ضخامة وأكثر غنى في مجال الزخرفة، وبعض هذه التيجان لها شكل المكعب أو المخروط، والقسم الاعلى منها أوسع من القسم الاسفل. وفي الحمراء نلاحظ أن القسم الذي أضافه السلطان يوسف الاول ثم ولده فيما بعد تمتاز أعمدته بالدقة، وتبدو زخارف تيجانها نافرة شديدة البروز وهي من الاوراق والازهار، وقلما نقع على تاج زخارفه من الخطوط الهندسية. وبعض الاعمدة في القاعات الداخلية يحمل اكثر من تاج أو لنقل تاجاً مزدوجاً وزخارفه من النوع الهابط المقرنص.

أما ساق العمود، سواء كانت من الرخام الملوّن أو الابيض، من الحجارة المصقولة أو القرميدية، وسواء كانت عارية أو مغطاة بالزخارف أو ملونة، فانها تمتاز عامة بالرشاقة والبعد عن الضخامة، كما ذكرنا سابقاً. وفي قصر الحمراء نلاحظ أن عدداً من الاعمدة تنتهي ساقها من الجهة العليا بحلقة هي غالباً من الجص وتكون فاصلاً بين الساق والتاج، وبدل الحلقة تنتهي بعض الاعمدة



بعض الاشكال التوريقية



منظر بعض جدران الحمراء الخارجية

بانتفاخ جصّي هو بمثابة قاعدة للتاج، وقد يأتي هذا الانتفاخ بسيطاً أو مسنناً أو مزخرفاً. وترتكز الساق أمّا مباشرة على الارض أو فوق قاعدة مربعة أو مستطيلة، وقد تنتهي الساق بحلقة تفصل بينها وبين القاعدة (لاحظ الرسم صفحة ١٦٠).

ومن الاشكال الزخرفية الكبيرة الخاصة بالفن النصري ما يعرف باسم المقرنصات[١]. فالمقرنصات أو الهوابط التي تراها في عقود الحمراء وسقوفها، هي في الاساس من الجص الذي يفرغ في قوالب. فالفنان يحضّر الاشكال في قالب خشبي يعلق في المكان المعد ليفرغ فيه الجص، ثم ينزع القالب بعدما يجف الطين. فعملية الزخرفة تقوم اذاً على القالب الذي تتنوع أشكاله ويستلزم العمل فيه الكثير من الدقة والمهارة. فالقالب الخشبي تكثر فيه الفجوات والكوى الصغيرة المتجاورة ويأتي بعضها فوق بعض، مع تزيين جوانبها بالرسوم المتنوعة، وهذه كلها تعطي شكلها للجص الذي يفرغ في القالب[٢]. وهكذا تبدو المقرنصات شبيهة بما نشاهده في بعض المغاور من الهوابط الغريبة الساحرة. وقد استعملت المقرنصات في تزيين فتحات الابواب والنوافذ وزوايا المداخل وبواطن العقود وسقوف القاعات.

نصل الى دور الخطوط في عملية الزخرفة، وقد أولاها النصريون عناية فائقة، فقد كثرت الكتابات المنقوشة من آيات وأشعار وشعارات وثناء على السلطان وأقوال مختلفة نجدها على الواجهات والابواب والجدران الداخلية والافاريز وغيرها، والخط الكوفي غالب على تلك الكتابات.

(١) كلمة مقرنص مأخوذة، كما يظن بعضهم، من الكلمة العربية «مقرفص» أيّ جالس القرفصاء. ويقول دياز Diez في مقاله بدائرة المعارف الاسلامية أنّ كلمة مقرنص مأخوذة من الكلمة اليونانية كورنيش ويطلق الاوروبيون على هذه الزخرفة كلمة «ستالكتيت» Stalactite وهي النوازل أو الهوابط التي تتدلى من سقف بعض الكهوف والمغاور كمغارتي جعيتا وقاديشا في لبنان، وقد شاعت الكلمة في كتب تاريخ الفن بين المشتغلين بالآثار الاسلامية (محمد مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية، ص ٨٨).

(٢) G. Marcais, Manuel d'Art Musulman, P. 609.

ومن العناصر المهمة التي تعد خاصة مميزة في زخرفة البناء الاندلسي أيام بني الاحمر ما يعرف باسم «التوريق»، وقد سمي هكذا لاعتماده على الاوراق والازهار. وكان فن التوريق رائجاً قبل العصر النصري ثم عرف ازدهاراً منقطع النظير في القرن الرابع عشر[1] (الثامن للهجرة). وتنطلق التوريقات من قاعدة أساسها المربعات والمستطيلات والاشكال الاخرى كالمعين ومتعدد الزوايا، ومن تراكم الاوراق وتكثيف الازهار والثمار.

ومن أجمل التوريقات ما أنجز على عهد محمد الخامس في قصر الحمراء. ومع أن هذه التوريقات تبدو عربية المظهر فان فيها من السمات ما يجعل بعضهم يشك بنسبتها الى الاصل العربي. فزخارف الجدران في باحة الاسود وباحة البركة هي امّا من عمل فنانين نصارى، وامّا أن النصارى أدخلوا فيما بعد تعديلات أبعدت الزخارف عن أصالتها. والمعروف، بحسب ما يؤكد المؤرخون، ان اكثر تلك التوريقات نفذ أيام محمد الخامس الذي استعان بخبراء وفنيين نصارى من اسبانيا وايطاليا[2].

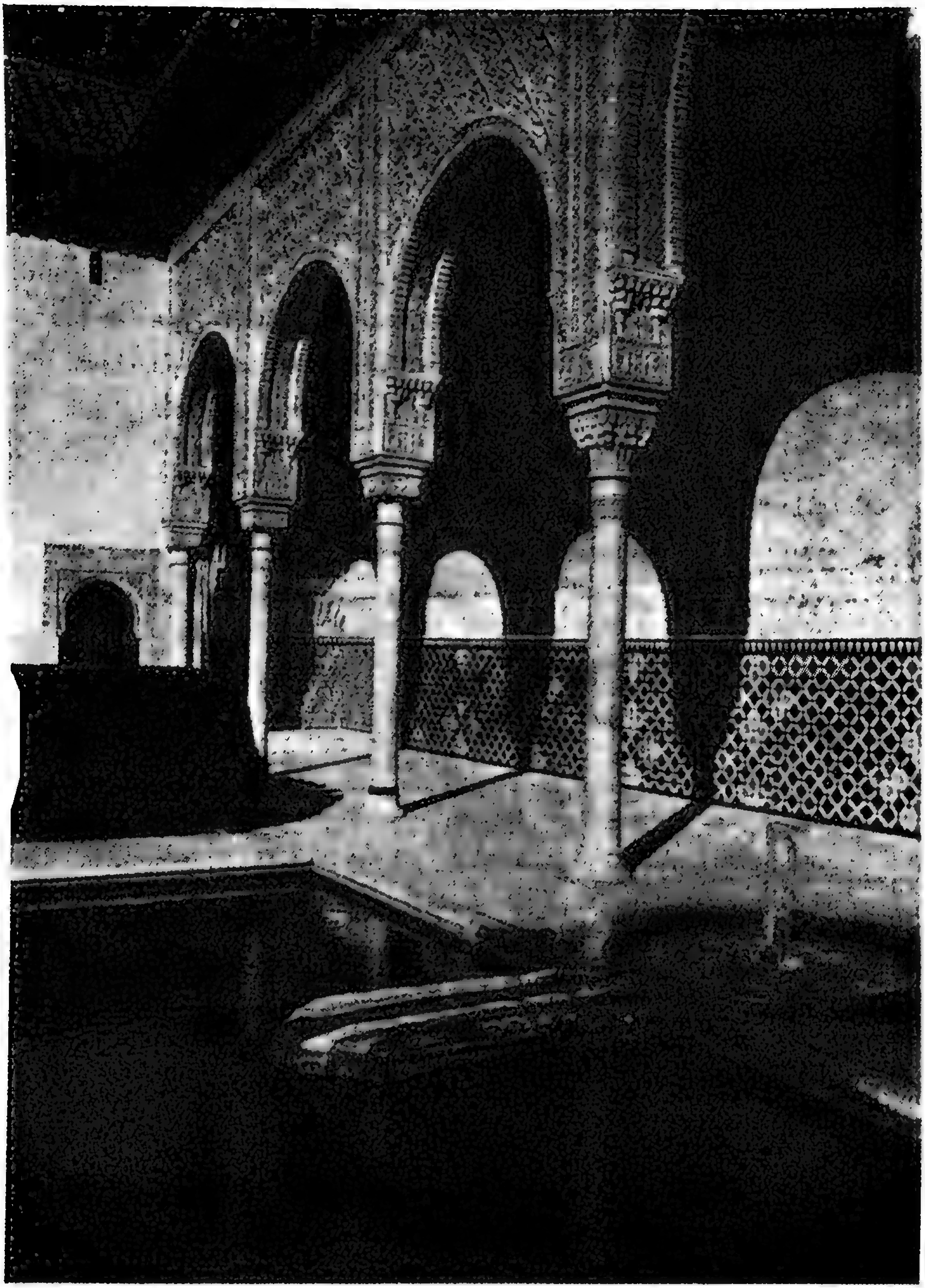
ان مساهمة فنانين غير مسلمين في عملية التزيين ساعدت على تطوير فن الزخرفة بشكل عام والتوريق بشكل خاص. ولا بد من القاء نظرة فاحصة وسريعة على بعض تلك التوريقات للتعرف الى اشكالها (رسم ص ١٦٠):

١ . ورقة مثلثة تنطلق من عقب بفلقتين قصيرتين، والورقة امّا قصيرة صلبة وامّا طويلة ملتوية

٢ . عنقود تغلفه باقة من الاوراق مسننة الشكل

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦٤٣.



٣ . أوراق داخل شكل صدفي

٤ . مجموعة أوراق صغيرة مستديرة الشكل أو مروسة وموزعة على غصن ملتو

٥ . أزهار ذات بتلات متنوعة الاشكال

هذا بعض ما يميز التوريقات في قصر الحمراء، وهناك أشكال كثيرة أخرى تبتعد عن خصائص الفن الاسلامي الصرف، مما يعطي التوريقات في الفن النصري طابعاً مميزاً.

أما الاشكال الهندسية القائمة على الخطوط المشبكة فقد عرفت في فن الزخرفة باسم «الأرَابِسْك»، ومما لا شك فيه أن فكرة رسم المضلعات والاشكال ذات الزوايا المتعددة هي خاصة اسلامية معروفة. وقد ركز الفنانون إهتمامهم على التنوع في الاشكال الهندسية أكثر من ذي قبل فغطوا بها الجدران والسقوف والابواب وأفاريز المنائر وواجهات المداخل، كما رصفوا به أرض بعض الابهاء والغرف. وتأتي الرسوم الهندسية بشكل نجوم متعددة الزوايا، فمنها ما هو بثماني زوايا ومنها باثنتي عشرة أو ست عشرة زاوية، وفي داخل النجوم أمثال وشعارات أو كلمة الجلالة «الله».

في قصر الحمراء يكثر «الارابسك» في بهو بني سراج وغرفة الاختين وفي سقف قاعة السفراء وعلى جدرانها. والمواد المستعملة في فن «الارابسك» هي الجص والخشب والنحاس.

ومجمل القول ان القرنين الثالث عشر والرابع عشر قد وصل فيهما فن الزخرف في الاندلس الى مرحلة النضج، فلم تعد هناك محاولات بسيطة كالتي نقع على بعضها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وانما غدا الزخرف في الدولة النصرية، وفي بلدان المغرب، مدرسة لها خصائصها المميزة وطابعها

البارز. والمعروف أن الصنّاع قد ورثوا عن اسلافهم وسائل التعبير الاساسية، وأصبحوا أساتذة في هذا المضمار، بعدما أكملوا الطريق التي بدأها السابقون وأوصلوا فن الزخرفة الى ذروة الابداع.

ننتقل الى الحديث عن الفن النصري المتمثل في الأشياء المنقولة، تلك التي ضاع اكثرها فلم يصلنا سوى القليل الذي يعطي فكرة عما بلغه ذلك الفن من تطور ورقي. وقد ألمحنا الى بعض خصائص الفن النصري في حديثنا عن النشاط الصناعي.

راجت في مملكة غرناطة صناعة الاواني الفخارية والخزفية، ويقول المقّري بأنه كان يُصنع في مرسية وألمرية ومالقة الفخار المزجّج المذهب أي الفخار المغطى بمادة الزجاج الذائب والمزين بخطوط ذهبية[1]. وقد وصلنا من قصر الحمراء مزهريتان لهما طابع خاص، فأسفل الجسم دقيق وكذلك الرقبة، والمقبض يشبه الجانح. والمزهريتان متشابهتان وعليهما زخارف حيوانية ونباتية وكتابة بالخط الكوفي، وقد عثر عليهما في قبو يقع تحت حصن قمارش وعرضا في المتحف الاثري بالحمراء.

أما الاواني المعدنية كالحديد والنحاس فقد راجت صناعتها لاسيما في مدينة ألمرية. فالتحف المعدنية كالثريات والتماثيل كانت تزين المساجد والقصور، كما صُفّحت الابواب بالنحاس. واستخدم الحديد والنحاس لصنع المسارج والمباخر والاسطرلابات والكرة الارضية وغيرها. ومن التحف الباقية ثريا في متحف غرناطة كانت في المسجد الجامع تعرف بتاج الاضواء، وهي تتكون من قرص معدني يتصل به اثنا عشر ذراعاً، وينتهي كل ذراع بثقب واسع كان يوضع فيه اناء صغير يحتوي على الماء والزيت والفتيل. كما عثر على سراج مزخرف بأشكال نباتية وحيوانية وكلمة «مبارك»، ومبخرة ذات غطاء مخروطي

(١) المقّري، نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.

يعلوه طائر ذو منقاد معقوف. وهناك ثريا مسجد الحمراء الملحق بالقصر، وهي في متحف مدريد الاثري وتزدان بزخارف نباتية مخرّمة وبكتابات تشير الى انه قد تم صنع الثريا في شهر ربيع الاول من سنة (٧٠٥ هـ/١٣٠٥م) بأمر من السلطان محمد الثالث[١]. أما السيوف الاندلسية فتعد من أروع ما صنعه المسلمون، وهناك واحد في المتحف الحربي بمدينة مدريد ينسب الى السلطان أبي عبدالله آخر سلاطين بني الاحمر ويتجلى في مقبضه جمال الزخرفة.

وقد ورث العرب عن البيزنطيين استخدام العاج في تطعيم التحف الخشبية وصناعة الصناديق والعلب[٢]، وكان غطاء الصناديق على هيئة سنام الجمل وغطاء العلب الاسطوانية منفوخاً.

أما النسيج، فقد ازدهرت صناعته في مملكة غرناطة أكثر من سواه، وقد جئنا على ذكر ذلك في الحديث عن الصناعة. فمدينة ألمرية كان فيها عدد كبير من دور الطراز اهتمت بالمنسوجات الحريرية التي تدخل فيها خيوط الذهب والفضة. ولا تختلف الطنافس في موادها الخام عن الاقمشة، وهي تشمل الابسطة على أنواعها. وكانت تصنع في مدينة بَسْطة القريبة من غرناطة المصلّيات البسطية المصنوعة من الديباج وتباع في أسواق الشرق بأثمان مرتفعة[٣].

يبقى أن نذكر اهتمام الغرناطيين بالكتب والفنون المتصلة بالخطوط، شأنهم في ذلك شأن العالم الاسلامي بعامة. فأتقنوا المصاحف والكتب المصورة وزخرفوا الصفحات والغلافات. وقد استعملوا ألواح الخشب في التغليف أول الامر، وكسوا الخشب بالجلد المزخرف بطريقة الضغط. وفي الزخرفة كان التذهيب يؤدي دوراً بارزاً، اذ تلصق صفائح رقيقة من الذهب على الجلد بوساطة

(١) محمد مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية، ص ١١٢ ـ ١١٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٨١.
(٣) محمد مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية، ص ١٣٣.

آلة ساخنة، ثم استبدل الخشب بالورق السميك (الكرتون)[1]. وأبرز الالوان التي ظهرت فيها غلافات الكتب هي الازرق والاسود والذهبي، كما استعمل المداد الذهبي لعناوين الكتب. وزخرفة الغلافات تكثر فيها النجمة ذات الثمانية رؤوس.

هذه لمحة سريعة تناولنا فيها أهم الفنون الزخرفية الاسلامية التي ازدهرت في مملكة غرناطة. وتجدر الملاحظة الى ان هذه الفنون كان لها أثرها الواضح في العالم الاوروبي، فقلّد الغربيون الخط الكوفي، وأطلقوا على الزخارف التي أخذوها عن العرب اسم «أرابسك» وهي الكلمة التي استعملناها في حديثنا عن الزخرفة. ويبدو الاثر بارزاً في الابنية التاريخية الاوروبية وفي بعض الاواني المحفوظة في المتاحف.

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٤.

الفصل السادس

غرناطة ومعالمها الاثرية

أ ـ غرناطة

تقع غرناطة في وسط جغرافي زاخر بالجمالات الطبيعية، وجوّها مليء بالايحاءات الفنية. عدد سكانها اليوم مائة وخمسون ألف نسمة، مناخها معتدل وهواؤها نقي وسماؤها صافية الاديم، ويتراوح ارتفاعها بين حدّه الادنى ٦٥٠ متراً وحدّه الاعلى ٧٥٠ متراً، وتبعد عن البحر مسافة سبعين كيلومتراً. ويحدّ المدينة من الجنوب نهر شنيل ينبع من جبال سييرا نيفادا أي جبال الثلج Sierra Nevadaالتي تظلل غرناطة، كما يخترق فرعه نهر حدره أو الدارو (Eldarro) المدينة من الوسط[1].

وقد شهدت غرناطة حضارات كثيرة تعاقبت عبر العصور. منذ فجر الحضارات الايبيرية حتى عصر النهضة الاوروبية، مروراً بعهود الرومان والقوط والاسلام، ما تزال الآثار ماثلة في أحياء وشوارع وأزقة غرناطة، في المنازل والقصور والقلاع والجسور، حتى في ملامح الناس وعاداتهم وتقاليدهم. وأكثر المعالم بروزاً ما تركه المسلمون الذين أعطوا المدينة طابعها المميّز.

من الصعب اعطاء تحديد شاف لمدينة غرناطة، كما يصعب تفسير معطياتها عن طريق مقارنتها بسائر المدن التاريخية، فالقواسم المشتركة التي تجمع مدن الاندلس لا تشمل كلها غرناطة. فعلى أرض الاندلس عدد كبير من المدن التي تفيض بالمعالم الدالة على أمجاد الماضي، ولكن واحدة منها لا تحافظ على

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ٩١.

ماضيها ولا تجدده لتجعله حياً كما في غرناطة. فأشبيلية هي بين المدن العربية القديمة الاكثر صخباً وعربدة، وقرطبة هي الاكثر سكوناً واصالة وتحمل ماضياً من القوة والعظمة، ولكن ماضي المدن الاندلسية يبدو باهتاً ولا ينعكس بشكل بارز على الحاضر ولا يترك أثره الواضح في نفوس أبناء هذه المدن اليوم كما هي الحال في عاصمة بني الاحمر. لقد مرت حضارات متنوعة على غرناطة ولم تكن الحضارات اللاحقة تطمس السابقة بل تكملها، فوصلت الينا متفاعلة مما أعطى المدينة طابعاً قلما نجده في سواها.

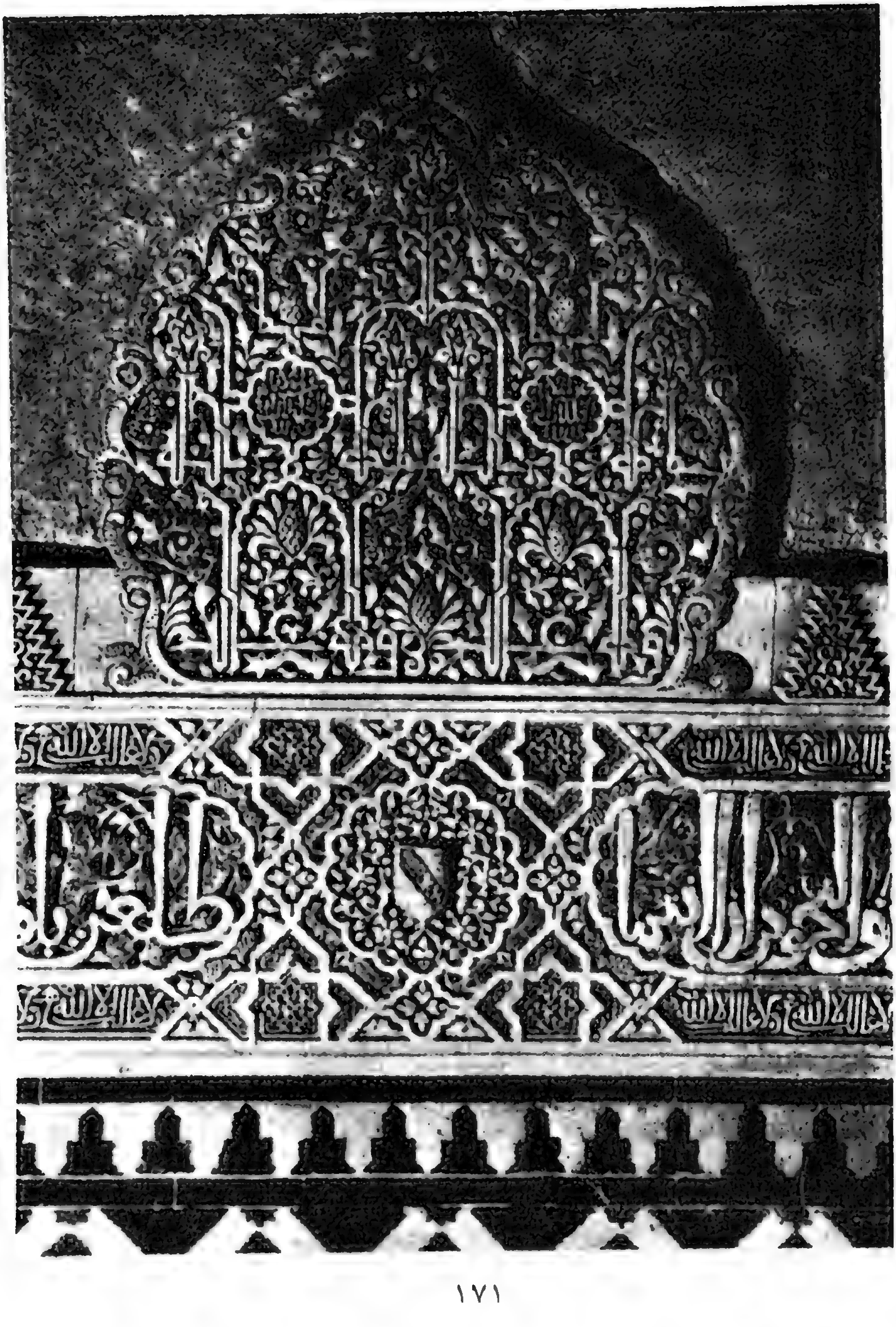
ويحاول المؤرخ الاسباني برياتو مورينا Prieto Morena تعليل ميزات غرناطة وتوضيحها فيرجعها الى الطبيعة الجغرافية التي تجمع بين السهول الفسيحة والجبال الشاهقة، ويعني ذلك المناظر الجميلة والمناخ الجيد مما ينعكس على اطباع الناس الذين رافقوا التطور الحضاري ولم يهملوا الاصالة التاريخية التي استمرت حية في النفوس والعقول[١]. لذلك فان السائح الذي يقصد غرناطة من أجل التأمل بمعالمها الاثرية لا تكتمل غايته اذا اكتفى برؤية الجماد وأغفل العادات والتقاليد وبقي غريباً عن النفسية الغرناطية وعن المغريات المتنوعة التي تنفرد بها المدينة.

ان تاريخ غرناطة يرتبط في قسم منه بموقعها الجغرافي الذي يمتاز باستراتيجية خاصة، فالمرج الفسيح (الفيكا) الذي تخترقه الجداول والانهار وتتزاحم فيه البساتين كثيراً ما كان يغري الغزاة القادمين بحراً باقتحامها. لكن سلسلة الجبال العالية التي تحيط غرناطة كانت تشكل سوراً طبيعياً منيعاً لابناء تلك المنطقة أمام الهجمات الكثيرة التي تعرضوا لها.

أول من سكن منطقة غرناطة قسم من قبائل الايبيروس، وقد اتخذت هذه القبائل من المغاور في سفوح الجبال مأوى ومسكناً. وعندما مرّ بها الفينيقيون

---

(١) Enrique Sordo, Al-Andalus Puerta del Paraiso, P. 107.



في طريقهم الى أبعد نقطة لهم، مدينة قادس، أسسوا قرب غرناطة محطة تجارية تحولت الى مدينة تعرف اليوم باسم «ألمونيكار» Almunecar(أي المناكب). وبعد الفينيقيين وصل اليونان الى شبه الجزيرة الايبيرية مزاحمين مدينة صور على الزعامة البحرية، وقد تغنى هوميروس على لسان عولس بجمال السهول الخضراء والجبال البيضاء في غرب المتوسط. وقد التقى الفينيقيون واليونان بالقبائل المحلية التي كانت على جانب كبير من التمدن، واطلقوا على تلك البقعة اسم «البيرجي» Elybirge، وعلى العملات القديمة وجد رسم الشمس محفوراً مع اسم «اليفارير» الذي ترجمه «همبوليت» بمعنى المدينة الجديدة. من تلك العهود القديمة يبقى اليوم بعض الرسوم والمعالم الاثرية. أما الرومان فقد جعلوا مدينة «أليبيري» عاصمة اقليمية، والمعروف أن كنيسة القديس سيسيليو San Cecilio قد بنيت في حدود سنة ٦٢، كما أقيم في المدينة سنة ٣٠٣ المجمع الكنسي الاسباني الذي يعدّ من أهم احداث الكثلكة(١).

مع استهلال العصور الوسطى بدأت غزوات القبائل الجرمانية لشبه الجزيرة الايبيرية، ووصل بعض تلك القبائل الى الاقاليم الغرناطية ولم تستطع اقتحامها والسيطرة عليها الا بصعوبة، بفعل وعورة المسالك الجبلية وعناد السكان الذين شنوا حرب العصابات فجعلوها طريقة اتبعها الاسبان فيما بعد لمقاومة الغزاة. وعندما سيطر القوط على البلاد الاسبانية حافظت منطقة «اليفيري» على معالم الماضي فلم تندثر مع الفاتحين الجدد(٢).

وفوق احدى التلال القريبة من المدينة تشكلت مجموعة سكنية أيام القوط عرفت باسم غرناطة اليهود، ويعتقد ان اسم المدينة يعود في الاصل الى تلك

---

(١) Antonio Ramos Olivera, Historia de Espana, La Antiguedad, Ed. Oasis, Mexico, 1974 P. 63, 109.

(٢) Enrique Sordo, Al-Andalus Puerta del Paraiso, P 108.

التسمية، والمعنى اللغوي لكلمة غرناطة هو شجر الرمّان. والمعروف ان اليهود سهلوا دخول العرب الى المدينة التي كانت معروفة سنة دخولهم اليها باسم غرناطة[١].

ويبدو أن العرب والبربر فضلوا تلك المنطقة على غيرها لجمال طبيعتها، فقد سحروا بخضرة السهول وبياض الثلوج وغزارة المياه واعتدال المناخ، مما خلق عندهم ليونة في الطبع وميلاً في الاستقرار واستيفاء اللذات المتنوعة. ويسترسل المؤرخون العرب في الحديث عن غرناطة وملحقاتها، فيقول المقّري: «ومن أشهر بلاد الاندلس غرناطة، وقيل أن الصواب أغرناطة، بالهمز، ومعناه بلغتهم الرمّانة، وهي دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمع الانفس، ولو لم يكن لها الا ما خصّها الله تعالى من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها، وفيها قيل:

غرناطةٌ ما لها نظيرُ ما مصرُ ما الشامُ ما العِراقْ؟
ما هي الاّ العروسُ تُجلَى وتلك من جُملَةِ الصَّدَاقْ

وتسمى كورة ألبيرة التي منها غرناطة، دمشق، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل إنها سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الانهار وكثرة الاشجار[٢].

قبل المقّري أفاض لسان الدين بن الخطيب في وصف غرناطة ومرجها فقال: «ويشتمل شكل هذه المدينة العظيمة، وما يرجع اليها من أرباضها، على جبال خمسة وسهل فسيح الساحة بعيد الاقطار تخترقه الجداول والانهار وتتزاحم به القرى والجنات، ويشق البلد النهر الشهير آتياً من جهة الشرق ويجتمع بخارجها بوادي شنجل الآتي من قبليها. أمّا ما حازه السهل من جوفيه (شماليه) فمنى

---

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ٩١.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ١٤٧.

عظيمة، منها ما يغل في السنة شطر الألف من الذهب، يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز ثلاثين منية... ويحف بسور المدينة البساتين المستخلصة والادواح الملتفة، ويشتمل السور وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء على أزيد من مائة وثلاثين رحى»[1]. والحقيقة أنه يصعب الوقوع على مدينة فيها ذلك الغنى المتمثل في تنوع الطبيعة، فالمدينة تستلقي على سفح أقدام جبال «سييرا نيفادا» وفوق تلال تطل على السهول وعلى ملتقى نهري شنيل وحدره (الدارو). أمّا التلال التي شيدت فوقها المدينة فهي: سان كريستوبال، الحمراء، البيازين والشهداء.

وتشتمل غرناطة الحديثة على شوارع كبيرة وساحات واسعة. فيخترقها من القلب شارعها التجاري الرئيسي المسمى شارع الملكين الكاثوليكيين Calle de los Reyes Catolicos وينطلق من الساحة الجديدة Plaza Nueva التي يبدأ منها مرتفع بني غمرة Cuesta De Gomores. ومن هذا الميدان يمتد جنوباً طريقان شاسعان متوازيان هما طريق شنيل Carrera de Genil وطريق حدره أو الدارو Acera del Darro وعلى جانبي شارع الملكين الكاثوليكيين تقع أهم أحياء غرناطة بشوارعها وساحاتها وأبنيتها المتنوعة، منها ميدان باب الرملة Plaza Bibrambla والقيسرية القديمة بمتاجرها ذات الطابع الشرقي، والمدرسة القديمة. ويمتد من الساحة الجديدة شارع غرناطة القديم على ضفة نهر حدره (الدارو) فيصل الى حي البيازين ومنه الى خارج المدينة وينتهي الى «السكرومنتي» حيث مساكن الغجر. ومن منتصف شارع الملكين الكاثوليكيين يخرج شارع Calvo Sotelo الذي ينتهي عند محطة السكة الحديدية.

وتجدر الاشارة الى أن جامعة غرناطة تأسست سنة ١٥٣١ أي بعد سقوط غرناطة بأربعين سنة. واهتمت في البدء بدراسة اللاهوت والطب والقانون والفنون باشراف رجال الدين، وتضم اليوم كليات الفلسفة والآداب والعلوم والحقوق

---

(١) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٢٣.

والطب والصيدلة. ويلحق بكلية الاداب معهد الدراسات الذي أصدر بالتعاون مع مدرسة «ميجيل آسين» للابحاث بمدريد المجلة المعروفة باسم «الاندلس» Al-Andalus.

في عهد ملوك بني الاحمر بلغت مدينة غرناطة أقصى مدى من الاتساع وأصبحت أغنى مناطق الاندلس. وعندما بدأت المدن تتساقط في أيدي الاسبان كثرت الهجرات العربية الى غرناطة، ووصلتها الهجرات الكبيرة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وبايسة وسواها. ورراح الوافدون يستقرون في قلب المدينة والقصبة والبيازين، حتى بلغ عدد السكان اكثر من مئتي ألف نسمة في أواخر عهد بني نصر، ولا تحوي غرناطة اليوم أكثر من هذا العدد. وكان السكان في البداية خليطاً من الاجناس، فقد عاش في غرناطة اليهود والقشتاليون والجنويون والبنادقة الذين عملوا بالتجارة، ثم راح عدد هؤلاء يخف فرحل معظمهم بعد تكاثر الحروب واشتدادها بين النصريين والدول المجاورة[1].

وكانت غرناطة النصرية تشتمل على عدد كبير من الاحياء، فالحمراء في الجنوب الشرقي من المدينة، يليها بسيط السبيكة، ثم الحي المعروف بغرناطة اليهود الذي يعتقد أنه أصل غرناطة، وفي القسم الجنوبي ربض الفخارين وربض قمارش وربض المنصور. أما القسم الشمالي، فكان يشغله ربض البيضاء والقصبة القديمة وربض المرابطين واحياء اخرى.

وبالرغم من التغيير الذي خضعت له مدينة غرناطة فانه ما يزال فيها معالم باقية من العهود النصرية سنحاول التعرف اليها.

نبدأ بحي البيازين Albaicin وهو أكبر الاحياء الغرناطية وأكثرها احتفاظاً بطابعه الاندلسي. يقع هذا الحي شمالي شرقي غرناطة على الهضبة المجاورة للمدينة الاساسية، ويمتد صاعداً حتى الاسوار القديمة وينفصل عن هضبة الحمراء

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ١٠٦.

بوادي نهر «الدارو». فيه تحتفظ الشوارع والساحات بطابعها العربي بالرغم من التعديلات التي أدخلت مع تعاقب السنين، والمنازل مبنية على شكل سلالم لدرجة أنها تنعم برؤية قصور بني نصر، وفي الوقت نفسه تشكل منظراً جميلاً لدى مشاهدتها من الحمراء. ويقال إن سبب اطلاق اسم «البيازين» على تلك الرقعة من غرناطة هو أن اللاجئين من مدينة بايسة، بعد سقوطها في يد الافرنج سنة ١٢٢٧، أعطوا اسم مدينتهم الى الحي الذي نزلوا فيه، ويرى فريق آخر أن الاسم أخذ عن احدى الاسواق التي بحي البيازين حيث كانت تربى وتباع طيور الباز، كما يعتقد بعضهم ان الاسم تحريف لكلمة «بائسين»[١].

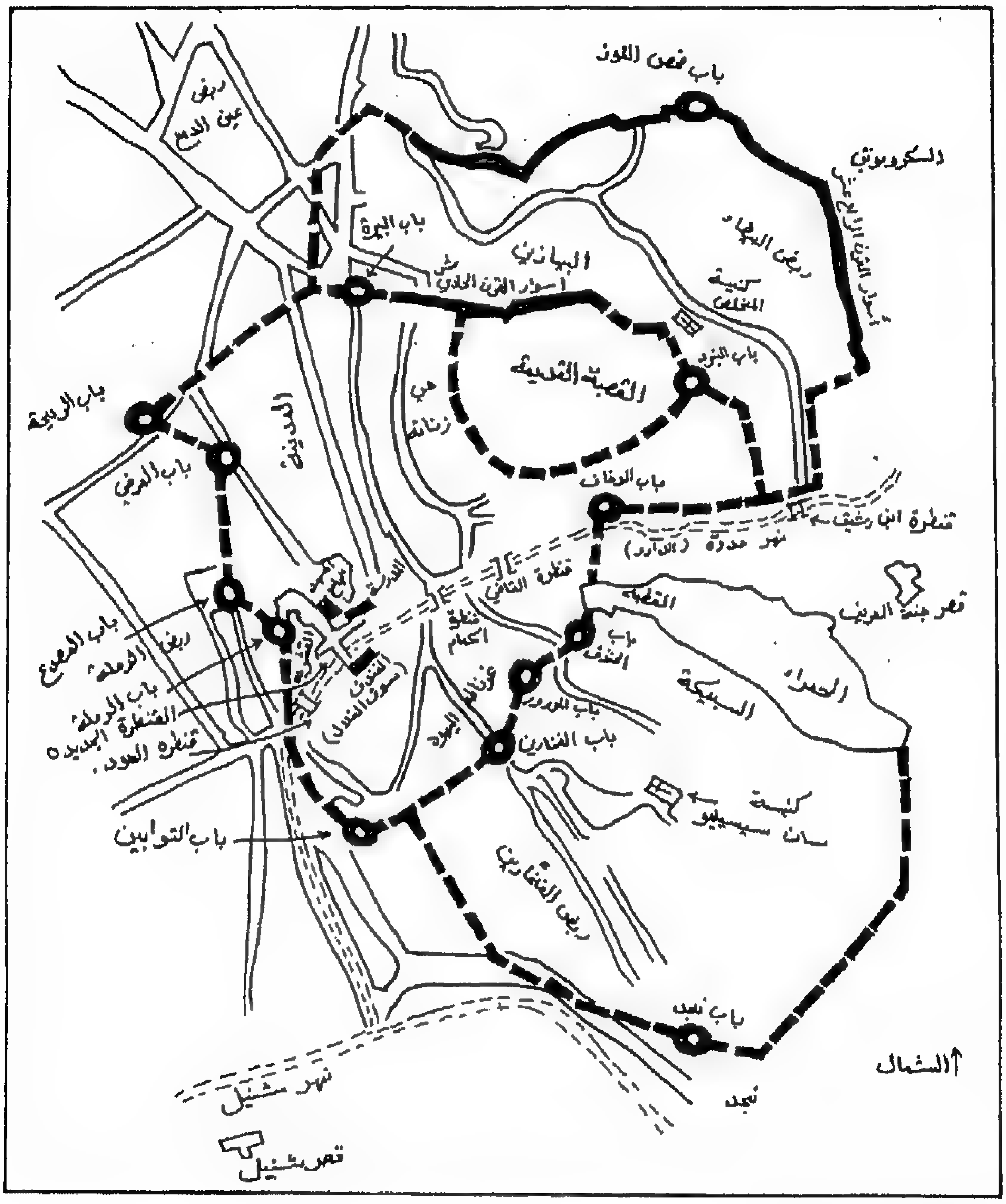
وبيوت البيازين ضيقة صغيرة الحجم اجمالاً ومتلاصقة، يتراكم بعضها فوق بعض في بعض النواحي لدرجة أنه يمكن التنقل من سطح الى آخر، ولبعض المنازل افنية داخلية. أمّا أبواب البيوت فكانت اقفالها ومزالجها أيام العرب من الخشب على غرار البيوت الافريقية والشرقية.

في عهد ملوك بني نصر كانت الاسواق، وما يزال بعضها كما كان، ضيقة يتعذر على العربات المرور بها، وكان عدد منها مسقوفاً. والذي يلج اليوم حي البيازين المحاط بأسوار وعبر باب «البيره»، يجد نفسه أمام «دهاليز» من الازقة الملتوية والمتشعبة، وبعضها عبارة عن ادراج صاعدة أو هابطة، والارض مرصوفة بحجارة أصبحت مع مرور الزمن ملساء ناعمة لدرجة يخشى معها من الانزلاق. أمّا الساحات التي تزينها الازهار من كل صنف فهي اجمالاً صغيرة تلتقي عندها الازقة، فتبدو الساحة أشبه ببحيرة تنصب فيها عشرات السواقي. وكلما توغل السائح في الداخل واتجه نحو العمق كلما لاحظ ان الجو يزداد سكوناً، فبين وقت وآخر تسمع خطوات عابر أو يرى متسول ينتظر تحت نافذة تزينها الازهار ليصطاد من المارة الحسنة، ولكن هل يجد من يطرق باب قلبه في ذلك العالم بعدما «خلت من أهلها الدار؟».

---

(١) Enrique Sordo, Al-Andalus, Puerta del Paraiso, P 189.

مدينة غرناطة كما كانت أيام بني الأحمر



اسوار تهدمت
أسوار باقية
طرق
انهر

كان حي البيازين أشبه بمدينة ملاصقة لغرناطة، وفيه بلغ عدد المساجد اكثر من ثلاثين مسجداً. وقد بلغت كثافة سكان البيازين حداً عالياً عندما انصبت فيه دفعات المهاجرين اللاجئين من المدن المجاورة بعد سقوطها تحت الاحتلال الاسباني. فبعد احتلال مدينة «أبّده» وصل منها الى حي البيازين نحو ثلاثين ألف لاجيء، فسكن هؤلاء بيوتاً صغيرة حقيرة في الخارج ولكنها في غاية النظافة والترتيب في الداخل. ولا بد من الاشارة هنا الى أن بيوت البيازين تبدو بسيطة من الخارج ولكنها غنية في الداخل، وتشير زخارف السقوف والجدران الى ذلك الامس الذي فيه كان أصحاب تلك المنازل ينعمون بالغنى.

وفي حي البيازين ثلاثة من أبواب غرناطة القديمة ما زالت قائمة بعقودها العربية، وهي باب البيازين Puerta de Albaicin وباب فحص اللوز أو فج اللوز Puerta de Fajalauza وباب الزيادة P. de las Pesas وقد حول المسجدان الكبيران اللذان كانا بحي البيازين الى كنيستين فبنيت كنيسة «سان سلفادور» (المخلّص) على انقاض المسجد الجامع، وما زالت في مؤخرتها بقية من البناء القديم، وبنيت كنيسة «سان خوسيه» (القديس يوسف) سنة ١٥٢٥ على انقاض مسجد المرابطين، وكان موقعه بحي القصبة الملاصق لحي البيازين، وما زالت منارة المسجد قائمة وقد حولت الى برج لاجراس الكنيسة. كذلك حول مسجد آخر في البيازين هو مسجد التائبين الى كنيسة سميت «سان خوان دي لوس ريّس» (القديس يوحنا) San Juan de los Reyes وما زالت تحتفظ بمنارة الجامع كما كانت، وهي من عصر الموحدين، مربعة الشكل على طراز منارة المنصور في اشبيلية (لاجيرالدا).

إن الفوضى التي قامت عليها هندسة حي البيازين تعكس السرعة التي بنيت فيها أقسام ذلك الحي، فان اللاجئين كانوا يأتون بكثرة وعلى دفعات، مما كان يفرض ايجاد مأوى لهم من دون الاهتمام بالتنظيم وبالتخطيط الهندسي. لذلك يجد السائح صعوبة بوضع خريطة معيّنة في السير عبر الدهاليز والممرات

والساحات والحدائق، لان كل زاوية لها مفاجأة وفي كل ساحة قصر وتحت كل حجر خبر. فحي البيازين لوحة غنية من التاريخ ومتحف في الهواء الطلق.

واللافت في احدى زوايا البيازين وجود قصر عربي يعرف باسم دار الحرة، بناه ملوك بني نصر. وقد سمي هكذا لان الاميرة عائشة والدة ابي عبدالله قضت حقبة من حياتها في ذلك القصر مع ولدها القاصر. وبعد سقوط المدينة وهب الملوك الاسبان القصر لدير القديسة ايزابيلا، وقد اشترته الدولة في منتصف القرن الحالي ورمّمته. ويرجع تاريخ بناء القصر الى القرن الخامس عشر، وهو يتألف من بهو تحيطه الابواب والعقود فوق الاعمدة، ومجموعة غرف ومجالس تكثر في سقوفها وعلى جدرانها الزخارف. وعلى مسافة قريبة من دار الحرة كان بنو زيري قد بنوا على أيام باديس قصرا امتاز بالضخامة والاتساع، وقد تهدم كلياً واختفت معالمه.

أما القصبة القديمة، فهي في القسم الاعلى من البيازين، ويبدو أنها بنيت في المكان الذي كانت فيه مدينة «البيبرس» الرومانية. وعندما دخل العرب غرناطة هدموا القديم الروماني والقوطي وبنوا فوق الانقاض قلعتهم، وما تزال هناك معالم تشير الى ذلك القديم، وقد أطلق المؤرخون على ذلك القسم من حي البيازين اسم القصبة القديمة تمييزاً لها عن القصبة الجديدة حيث الحمراء. وأول من باشر البناء بالقصبة القديمة من العرب كان عاصم بن عبد الرحمن الشيباني حاكم مدينة البيرة، فلم يستطع انجاز البناء. وبقي العمل متوقفاً الى أن جاء الأمير حبوس بن زيري (١٠٢٠ ـ ١٠٣٧) فأنجز قسماً مما تبقى، الى ان اكتمل بناء القلعة أيام باديس بن حبوس (١٠٣٧ ـ ١٠٧٣) كما اضاف قصراً حمل اسمه. أما اليوم فلم يبق من القصبة القديمة سوى الجدران وبقايا بعض الابراج وانقاض ارتفعت فوقها المنازل.

وفي نهاية حي البيازين مسالك ودروب ضيقة تؤدي الى حي «السكرومنتي» (الجبل المقدس) الذي يسكنه الغجر. وهؤلاء يعيشون في أكواخ وكهوف

ويشتغلون بالعزف والرقص، ولهم براعة في الرقصة الاندلسية المعروفة باسم «الثامبرا» Zambraوأصلها العربي الزمر.

ثم إن سكان حي البيازين كانوا سريعي الهياج، يغضبون لدوافع بسيطة أحياناً، وكثيراً ما كان سلاطين بني الاحمر يطلبون عونهم لرد الهجمات على مدن وحصون المملكة. كما أدّى أبناء البيازين دوراً مهماً في مصائر ملوكهم، خصوصاً عند وقوع الخلاف بين طلاب العرش، فكانوا يميلون مع هذا أو ذاك وفق ما تمليه ظروف الخلافات وتطوراتها.

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر قام في أحد جوانب البيازين حي جديد عرف باسم حي المغاربة La Moreria الذي جمع الهاربين من القرى المجاورة بعد سقوطها في يد الافرنج. وبعدما انزل العلم النصري ورفعت راية النصارى فوق أبراج الحمراء لم يستطع سكان البيازين، وفي طليعتهم أبناء حي المغاربة، تحمل العبء الجديد، لاسيما بعد تكاثر شروط الحكام الجدد وقيودهم. فقاموا بعدة انتفاضات أهمها ثورتهم عام ١٤٩٩ أي بعد سقوط المدينة بسبع سنوات، ولم يكتب لها النجاح. والانتفاضة الكبرى والاخيرة كانت سنة ١٥٦٨ عندما اعلنوا عصيانهم المشهور الذي انتهى بترحيلهم الى المغرب.

بعد ذلك راح عدد سكان البيازين يتضاءل برحيل أبنائه. ثم فقدت الصناعة الغرناطية تألقها وراحت تنوس على ايدي النصارى الذين اقتبسوا الفنون الحرفية عن المسلمين ولم يتوصلوا الى مهارتهم. ومع اطلالة القرن السابع عشر كان حي البيازين قد خلا من أهله وغدا مدينة أشباح. وبالرغم من أن الملك فيليب الثاني أمر باعادة الحياة الى البيازين فان قلة من الاسبان لبت نداءه، وفي مطلع القرن الثامن عشر كان سكان البيازين أقل من ألفي نسمة. وحتى اليوم لم يصل سكان ذلك الحي الى العدد الهائل الذي وصلوا اليه أيام العز النصري.

ننتقل الى قلب مدينة غرناطة، فما تزال فيه الآثار العربية الواضحة، وهناك أبنية تقف بإباء وشموخ بالرغم من تراكم القرون، في محاولة، ناجحة حتى الان، لتحدي الزمن ومعانقة الخلود. فمن الآثار العربية التي وصلتنا معالمها هناك القصر العربي أو المدرسة التي بناها يوسف الاول في منتصف القرن الرابع عشر وعرفت باسم دار العلوم. وما يزال موقع المدرسة قائماً في الدرب الضيق المحاذي لشارع الملكين الكاثوليكيين، تجاه الكاتدرائية حيث المدفن الملكي. ولكن بناءها القديم ازيل في اوائل القرن الثامن عشر وأقامت البلدية مكانه بناء جديداً. ولم يبق من البناء القديم سوى الجناح الذي يحتوي على المحراب. وقد نزعت لوحات ونقوش عربية كثيرة من المدرسة ونقلت الى المتاحف، ويحتفظ متحف غرناطة الاثري بعدد من هذه اللوحات كتب على بعضها تاريخ انشاء المدرسة:

«أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونورا، وأدامها في علوم الدين على الايام، أمير المسلمين أظلّه الله بعونه، العلي الشهير الرفيع الهمام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف ابن العلي الكريم المجاهد الفاضل أمير المسلمين ابي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر... وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعماية». وقد كانت هذه المدرسة من مفاخر غرناطة بعد انشائها بحسب ما جاء عام (٧٥٠ هـ/١٣٤٩م).

ومن ساحات غرناطة النصرية التي ما تزال في مكانها ميدان **باب الرملة**، ففيه كانت تقام الحفلات العامة كالفروسية. ويقع هذا الميدان قرب شارع الملكين الكاثوليكيين، ومنه تتفرع عدة شوارع ما تزال تحمل أسماء أندلسية مثل شارع أبي عبدالله Boabdil وشارع السقّاطين Zacatin وشارع الفندق Alhondiga.

أما **القيسرية** Alcaiceria أو سوق غرناطة الكبرى لتجارة الحرير فهي ما تزال كما بنيت[1] ولم تخسر سوى الابواب التي كانت على مداخلها. وفي القيسرية

(١) في سنة ١٨٤٣ شب حريق في القيسرية فأتى على قسم من المعالم فيها. وقد رممت الدولة ما أتلف وأعادت المعالم كما كانت.

اليوم أكثر من مئتي متجر لمختلف المنتوجات الحرفية المحلية، فدروبها الضيقة وحوانيتها المتلاصقة تزخر بالبضائع الحريرية والتحف المعدنية الدقيقة وكان للقيسرية قديماً عدة أبواب تحول دون مرور الخيل والعربات اليها، ثم تغلق ليلاً لحفظها.

وقد اهتمت الدولة الاسبانية مؤخراً بترميم **الحمامات** العربية الواقعة على ضفة نهر «الدارو» ولكن هذه الحمامات لا تعطي فكرة واضحة عن خصائص فن العمارة الاسلامية الا من حيث شكل البناء. فالترميم لم يستطع أن يعيد اليها طابعها الذي فقدته مع تعاقب السنين.

ومن الآثار العربية الباقية في غرناطة من أيام بني نصر ما يعرف باسم الفندق أو سوق الغلال التي خصصت لتجارة الحبوب على أنواعها، ويقع الفندق شرقي شارع الملكين الكاثوليكيين على مقربة من دار البريد الحالية، وهو عبارة عن بناء قديم ذي باب معقود ضخم نقشت في عقده كتابات كوفيه يمكن قراءة بعضها: «قل هو الله أحد». ومن الباب نلج رواقاً مسقوفاً يقودنا الى بهو فسيح مربع الشكل طول ضلعه نحو ثلاثين متراً، في وسطه صحن لنافورة ماء وحوله أروقة تعلوها عقود فوق أعمدة دقيقة. وحول الفناء مجموعة غرف وقاعات يعلوها جناح آخر مماثل، وقد أعدت هذه الغرف لتكون فندقاً للتجار الذين كانوا يلتقون في سوق الغلال قادمين من أماكن بعيدة. وقد شيّدت هذه السوق التي عرفت باسم الفندق الجديد في منتصف القرن الرابع عشر، واستعملت مدة أيام الافرنج مخزناً للفحم فأطلق عليها اسم دار الفحم Casa del Carbon ويعرف به اليوم. والفندق تحوّل في القرن السادس عشر الى مسرح عرضت فيه الاعمال المسرحية الكلاسيكية، وهو اليوم واحد من المعالم السياحية المهمّة التي يقصدها المعجبون بتاريخ العرب وحضارتهم.

ننتقل الى **الابواب والاسوار** الغرناطية، وقد كان للمدينة أكثر من عشرين باباً ما يزال بعضها في حالة مقبولة. منها باب البيازين وباب فحص اللوز وباب

الزيادة، وقد أشرنا الى هذه الابواب في الحديث عن حي البيازين. ومن الابواب الاخرى التي ما تزال في حالة جيدة «باب البيرة» الواقع شمالي غربي المدينة على مقربة من ميدان الثيران. ويبلغ ارتفاع الباب نحو اثني عشر متراً والى جانبه بقية من السور القديم. وفي أعلاه مشارف واسعة. ثم باب البُنيدة وباب سيّدة وهما يقعان على خط الاسوار الشمالية القديمة، هذا عدا أبواب قصبة الحمراء. أمّا الاسوار فقد بقيت منها أجزاء كبيرة في الجهة الشمالية الغربية حيث تمتد نحو كيلومتر، وهي متينة كثيفة تُرى كاملة من أعلى ربوة الحمراء.

من الاثار الغرناطية الباقية «**قصر شنيل**» Alcazar Genil ويقع خارج المدينة على الضفة اليسرى من نهر شنيل. وهو بناء شبه متهدم بابه عربي الشكل نقش في أعلى عقده: «ولا غالب الا الله» وهو شعار بني الاحمر. ومن المدخل نلج فناء مربعاً فيه أربعة عقود مع قبة مزخرفة، وقد نقشت على جوانب الفناء كتابات متنوعة يمكن قراءة بعضها مثل «عز لمولانا السلطان» و «لا غالب الا الله»، «الحمدلله على نعمة الاسلام». ويروي لنا ابن الخطيب في كتاب «الاحاطة»[١] ان الامير الموحدي اسحق بن الخليفة ابي يعقوب يوسف قد بنى هذا القصر سنة (٦١٥ هـ/١٢١٨م). وقد عرف باسم قصر السيد، واستعمله بنو الاحمر منزلاً للراحة والضيافة وأجروا فيه بعض التعديلات.

أما الجسور والقناطر العربية فوق نهري شنيل وحدّره فقد تهدمت ولم يبق من أيام بني الاحمر سوى **قنطرة شنيل** الواقعة عند ملتقى النهرين عند نهاية الشارع المسمى طريق حدره ACERA DE DARRO وقد بنيت فوق خمسة عقود. وفي مطلع القرن السابع عشر أضر الفيضان بالقنطرة فرمّمها الاسبان على طرازها الاصلي.

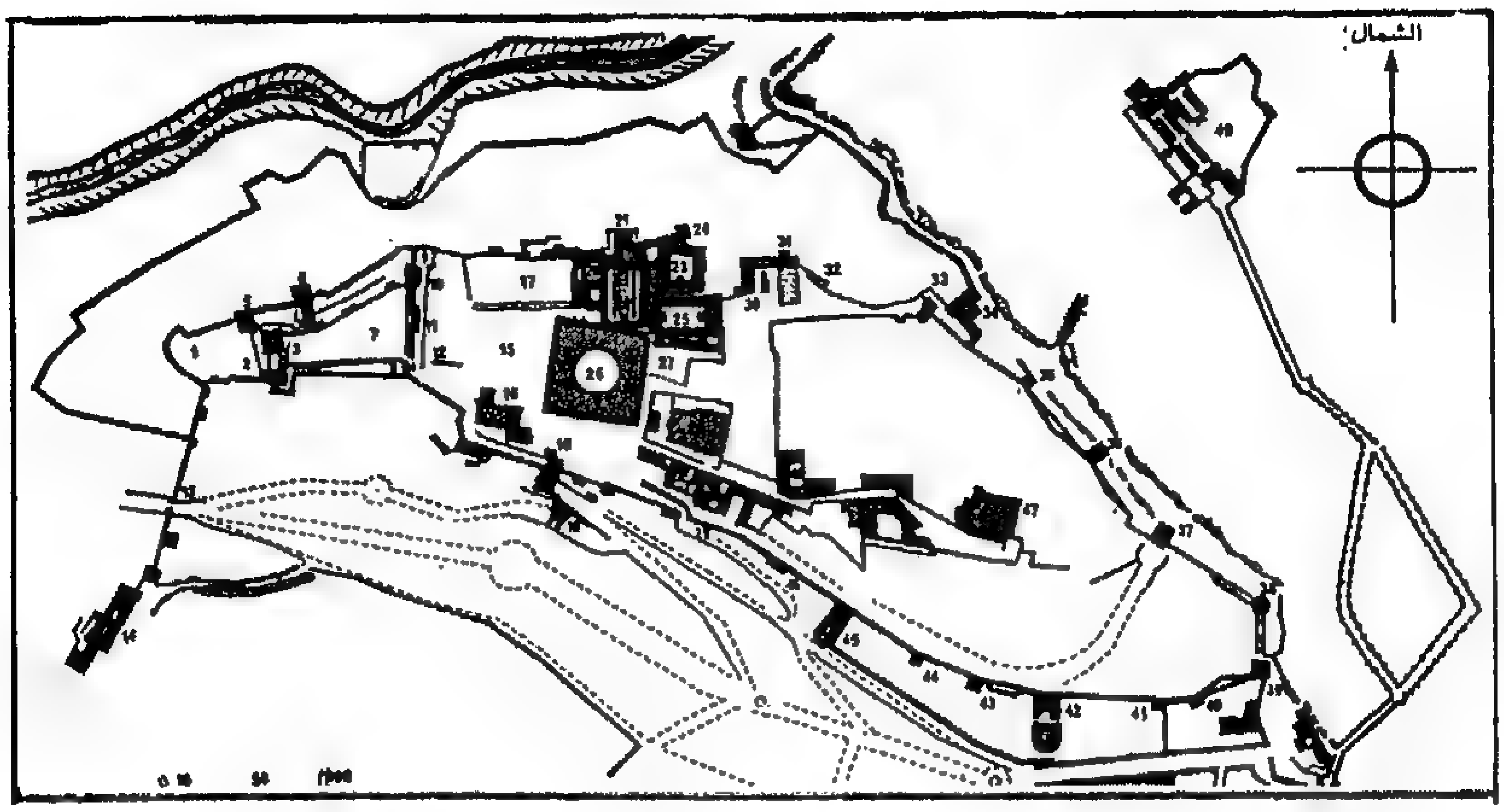
وفي غرناطة متاحف عدة تحوي **آثاراً عربية أخرى**، منها متحف الحمراء على مداخل القصر في مواجهة قصر شارلكان وفيه مجموعة من القطع الاثرية

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص ٤٤٧ . ٤٥٠.

من مخلفات الابنية. من هذه القطع لوحة رخامية نقش فيها انشاء المارستان (المستشفى) النصري على يد السلطان الغني بالله وقد جاء: «الحمدلله، أمر ببناء هذا المارستان، رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة نافعة لرب العالمين... واجرى صدقته على مر الاعوام وتوالي السنين... المولى الامام، السلطان الهمام... صاحب الفتوح والصدر المشروح،... أمير المسلمين الغني بالله ابو عبدالله محمد بن السلطان الجليل الرفيع المجاهد أمير المسلمين أبي الحجاج... وكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر محرم من عام سبعة وستين وستماية... والله لا يضيع أجر العاملين ولا يخيب سعي المحسنين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وآله وأصحابه أجمعين». والمعروف أن هذا المارستان كان قائماً على الضفة اليمنى لنهر حدره وهدم في القرن التاسع عشر وله مخطط كامل.

وفي متحف الحمراء أشياء كثيرة من مخلفات العهد النصري نذكر منها على سبيل المثال لوحتين من الحرير على كل منهما شعار بني الاحمر «ولا غالب الا الله»، وصحن نافورة كبيرة، ولوحات خشبية من قصري الحمراء وجنة التعريف، وقطع فسيفساء وجرار وغير ذلك. وما يلفت الانتباه لوحة خشبية مذهبة اخذت من قصر جنة العريف كانت ملكاً لاسرة «بنيغش» الذين تنصروا بعد سقوط غرناطة، وعليها خمس رمانات هي شعار غرناطة النصرانية والعبارة اللاتينية Cris Vinicit أي «المسيح هو الغالب»، وربما أريد بها معارضة شعار بني الاحمر والى جانب متحف الحمراء متحف آخر على طريق «السكرومونتي» كان في الاصل منزل «آل ثفرا» Zafra الذين كان عميدهم فرناندو دي ثفرا مساعداً للملكين الكاثوليكيين واشترك في وضع معاهدة التسليم. ويحتوي هذا المتحف على لوحات خشبية ورخامية وأقواس وقطع أبواب وشبابيك من أيام العرب...

وهناك متحف ثالث يضم صوراً تاريخية يعرف باسم دار الرماية Casa de Los Tiros وفيه صورتان للملكين الكاثوليكيين وصورة لابي عبدالله آخر ملوك



أسوار الحمراء وابراجها كما هي اليوم

١ – طاقة الرماية ومركز المدفعية
٢ – مدخل القصبة
٣ – حمامات القصبة وبرج الاشراف
٤ – برج البارود
٥ – برج الحراسة
٦ – براج الدروع
٧ – ساحة السلاح
٨ – حديقة القصبة
٩ – شرفة نهر حدرّه (الدارو)
١٠ – برج الأكرام
١١ – البرج المكتّر
١٢ – مدخل القصبة الحالي
١٣ – باب غرناطة وبرجه
١٤ – البرج الأحمر
١٥ – ساحة الجباب
١٦ – باب الخمر
١٧ – حديقة المعشوقة
١٨ – باب الشريعه (أو العدل)
١٩ – نصب كارلوس كينتو (شارلكان)
٢٠ – بهو المقصورة
٢١ – برج قمارش
٢٢ – بهو الريحان (البركة)
٢٣ – حديقة اللندراخه
٢٤ – استراحة الملكه
٢٥ – باحة الاسود
٢٦ – قصر كارلوس كينتو (شارلكان)
٢٧ – الروضه
٢٨ – كنيسة القديسة مريم
٢٩ – باب العربات
٣٠ – حديقة البرطال
٣١ – برج السيدات
٣٢ – شرفة البرطال
٣٣ – برج الرماح
٣٤ – برج الفرسان
٣٥ – برج القنديل
٣٦ – برج الطريق
٣٧ – برج الأميرات
٣٨ – برج الأسيرة
٣٩ – برج المياه
٤٠ – برج جان دارك
٤١ – برج يوحنا
٤٢ – باب السموات
٤٣ – برج القبطان
٤٤ – برج الساحرة
٤٥ – برج الرؤوس
٤٦ – برج الدروب
٤٧ – مكتب السياحة
٤٨ – الحمامات الشعبية
٤٩ – قصر جنة العريف
٥٠ – نهر حدرّه (الدارّو)

بني الاحمر، والرسام مجهول الهوية، وصورة أبي عبدالله نصفية يبدو فيها متوّج الرأس ومغلول العنق (دلالة على أسره). كما يضم المتحف خنجر ابي عبدالله وشجرة نسب ملوك سرقسطة، وصوراً أخرى لآل بنيغش منها صورة عميدهم المسمى سيدي يحيى الذي عرف بعد تنصره باسم «بدرو دي غرانادا فينيغاس». وهناك أخيراً متحف للبلدية يحوي صوراً متنوعة منها صورة للرسام «باراديليو» Paradillo الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، وقد عرض في الصورة منظراً خيالياً لتسليم غرناطة وفيه يظهر أبو عبدالله راكباً جواده والى جانبة الملكة ايزابيلا على جوادها وحولهما الجنود الاسبان. وعناية الدولة الاسبانية بشؤون المتاحف ساعدت على حفظ الكثير من بقايا الماضي، ولولا ذلك لبقيت أمور كثيرة طي النسيان.

ب ـ قصور بني نصر (الحمراء)

قلما نجد في بلاد الاندلس جبلاً شهد احداثاً تاريخية وارتوى من تقلبات العصور مثل ما شهدت تلة «السبيكة» المشرفة على مرج غرناطة الفسيح. فوق تلك التلة بنيت مدينة «أليبيرس» القديمة، وفيها مرّ الفينيقيون ثم اليونان في طريق بحثهم عن المحطات التجارية. وهناك أقام الرومان معسكراتهم الحصينة، وبعدهم ترك القوط آثار قلاعهم وأسوارهم. ولما دخل العرب الفاتحون مدينة غرناطة تسابقوا الى السكن فيها والاقامة في احيائها العالية والمشرفة. وفي عهد ملوك الطوائف توقف زاوي بن زيري مذهولاً فوق تلة «السبيكة» حيث ارتفعت قلعته. ولما جاء ابن الاحمر شيّد فوق انقاض الماضي قصراً ما يزال حتى اليوم من عجائب الفن المعماري الدال على عبقرية من شيّده. وفي قصور بني الاحمر من الروعة ما حمل ابن زمرك الى القول:

يا من يحنُّ الى نَجْدٍ وناديها	غرناطةٌ قد ثَوَتْ نَجْدٌ بواديها
قِفْ بالسَّبِيْكَةِ وانْظُرْ ما بساحَتِها	عقيلة والكثيبُ الفَرْدُ جاليها
تَقَلَّدَتْ بوشاح النَّهْرِ وابْتَسَمَتْ	ازهارُها وَهْيَ حَلْيٌ في تَراقيها

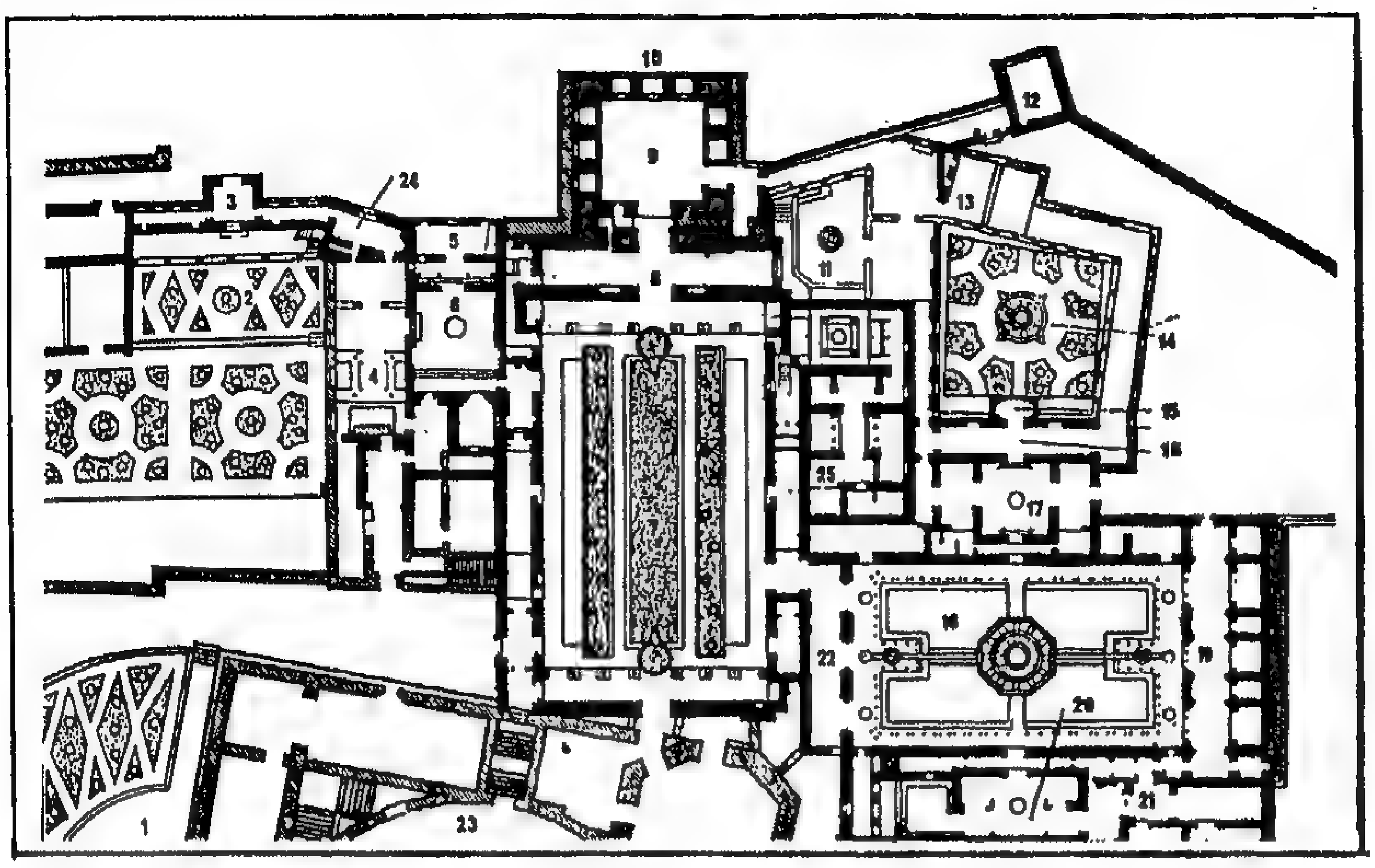
ولـلسَّـبِـيْـكَـةِ تـاجٌ فـوقَ مَـفْـرِقِـهـا   تَـوَدُّ درُّ الـدَّراري لـو تُـحـاكـيـهـا
فـانَّ حَـمْـراءَهـا والـلـهُ يَـكْـلأُهـا   يـاقـوتَـةُ فَـوْقَ ذاكَ الـتـاجِ يُـعـلـيـهـا
بُـروجُـهـا لِـبُـروجِ الأُفْـقِ مُـخْـجِـلـةٌ   فشُهْبُهَا في جَمَالٍ لا تُضاهيها(١)

فوق ربوة السَّبيكة وداخل أسوار طويلة تتحدى السنين، عالم من الذكريات يرجعنا القهقرى في الزمن وينقلنا الى دنيا العرب الضائعة، الى جزيرة شرقية في بحر حركتْ رياحُ الغرب مياهه فغمرت أرضاً كانت من قبل ملعباً لجياد أبناء نجد والحجاز والشام واليمن، وطمست أمواجُه آثار أمسهم، الامس الذي كان كحلم لذيذ يقظتُه مرة. فوق تلة السبيكة وداخل جدران قصور بني الاحمر يجد المرء نفسه على موعد مع القرون الغابرة، فيشعر بقفزة الحاضر الى الماضي: هنا داخل غرفة ساكنة طيف جارية تخبىء نظراتها النافذة وراء حجاب رقيق، وهناك في الممرات المعتمة خنجر يترقب مرور غريم في السياسة أو الحب. ولو قدر النطق لتلك الجدران لراحت تروي اليوم ما عاينت بالامس من ضروب البطولة والمروءة ومن ألوان الاهواء الجامحة والانفعالات اللاهبة.

سنون عديدة مرّت فأوقعت ثقلها فوق تلة السبيكة وما عليها من قصور خلابة، فلم ترزح التلة ولا ناخ البناء. فلا الاهمال الطويل ولا الزمن المتسلط ولا الحروب المدمرة استطاعت أن تشوه روعة القصور، ذلك أن هناك قوة غريبة أبقت ذلك الماضي كما كان بالرغم من الافتقار الى المناعة التي توفرت في كثير من المعالم، ولم تستطع تلك المناعة الابقاء عليها سليمة كسلامة قصور بني نصر.

اذا اتكأنا الى احدى نوافذ الحمراء أو شرفاتها فاننا نرى المدينة مستلقية على أقدام القصر، وصفوف المنازل المتشابهة، القديمة منها والحديثة، والشوارع الضيقة وقبب الكنائس والاديرة. وفي البعيد يمتد المرج الفسيح ببساتينه المتعددة الاشكال المتنوعة الالوان، وبينها تنساب السواقي بهدوء. وفي الوقت نفسه

(١) المقَّري، نفح الطيب، ج٧، ص ١٧١.



تصميم عام لقصر الحمراء

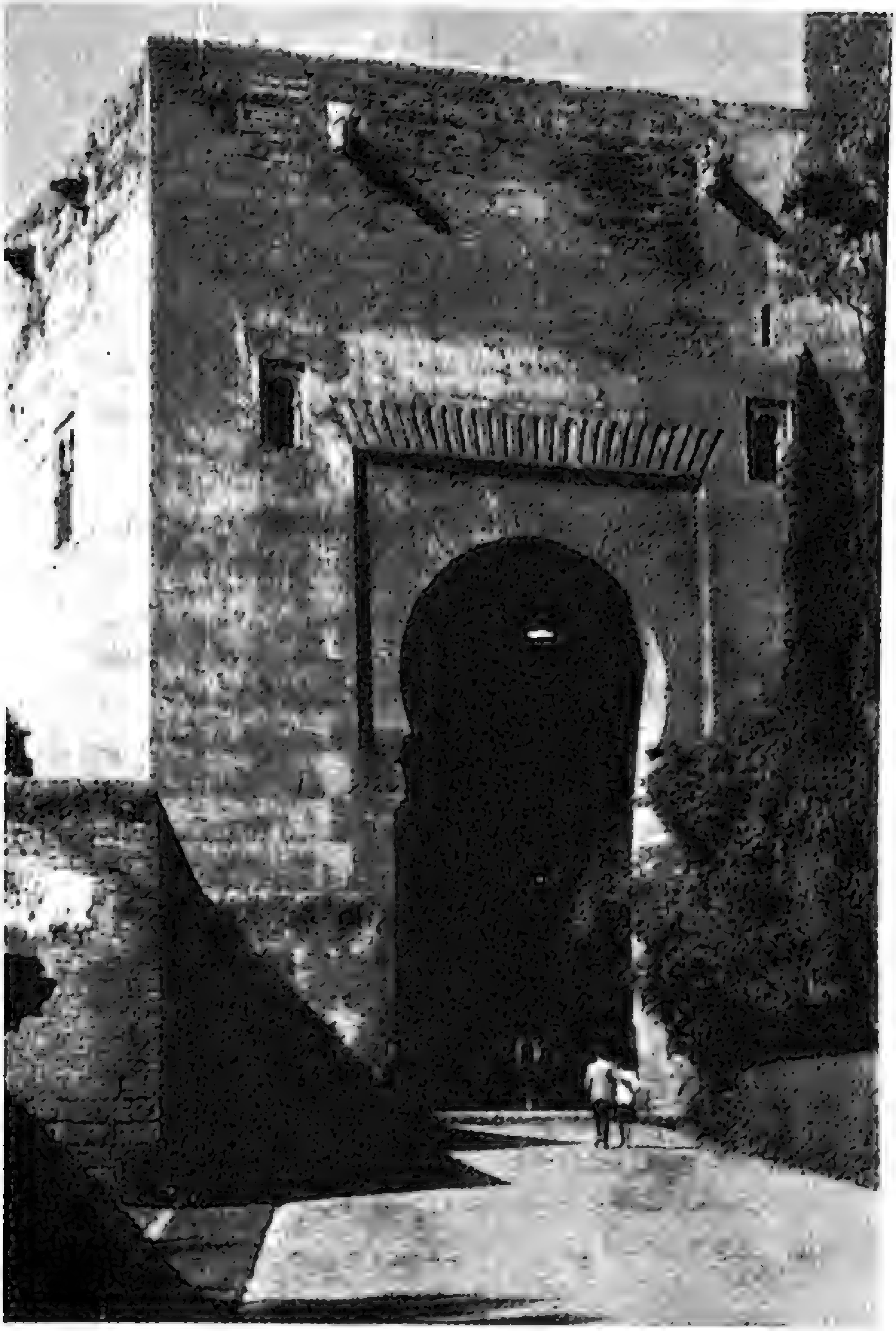
١ - ساحة الجباب
٢ - حديقة المعشوقه
٣ - برج المعشوقه
٤ - المقصورة
٥ - الغرفة المذهبة
٦ - بهو المقصورة
٧ - بهو الريحان (البركه)
٨ - غرفة البركة
٩ - قاعة السفراء
١٠ - برج قمارش
١١ - بهو الحديد
١٢ - استراحة الملكة
١٣ - استراحة الملك
١٤ - حديقة اللندراخه
١٥ - شرفة اللندراخه
١٦ - غرفة الأختين
١٧ - باحة الاسود
١٨ - غرف الملكه
١٩ - قاعة بني سراج (البهو وحوله الغرف)
٢٠ - الروضة
٢١ - قاعة المقرنصات
٢٢ - قصر كارلوس (شارلكان)
٢٣ - استراحة المقصورة
٢٤ - الحمامات

تصلنا أصوات العربات ممزوجة بهدير النهر في الوادي القريب، وتشنّف آذاننا قيثارة على ايقاعاتها ينطلق غناء ينقلنا في مده وتموّجه الى عالم البادية.

ان قصر الحمراء الذي شبهه ابن زمرك بتاج على جبين غرناطة، يجسّد عبقرية خلاّقة تركت تحفة شاءت يد القدر أن تخلدها بالرغم من كونها مصنوعة من مواد هشّة. فانها تفتقر الى الصلابة، وهي مجموعة أعمدة نحيلة، وخشب وآجر ورخام ومياه كثيرة، وقد وصلتنا سليمة مع مئات السنين التي تحملها حتى لتبدو كأنها بنيت في أيامنا. وتعكس تلك القصور ميل أصحابها الى الراحة الجسدية والهدوء النفسي، نتعرف الى ذلك من رحابة الغرف وسعة النوافذ والشرفات المطلة على المناظر البعيدة والطبيعة الجميلة. أما الممرات فهي ضيقة نسبياً والساحات صغيرة ما عدا بعضها كساحة الريحان وساحة البركة وباحة الاسود.

والحمراء مجموعة أبنية محاطة بأسوار طولها سبعماية واربعون متراً وعرضها نحو مئتي متر، وهي ثلاثة أقسام: القصبة الجديدة أو القسم العسكري شمالي شرقي القصر وهي عبارة عن قلعة تحرس الحمراء ولها برجان عظيمان احدهما يدعى برج الشمعة أو الحراسة الذي يسهر على رقاد المدينة، ثم القصر الملكي في الوسط، ثم الحمراء العليا المؤلفة من مجموعة بيوت متهدمة، وهذا القسم الاخير كان مخصصاً للخدم والحرفيين الذين يؤمنون حاجات القصر. والمعروف أن المسجد ودار السّكّة ومنازل بعض الاعيان كانت أيضاً في هذا القسم.

يرجع تاريخ بناء قصور بني نصر الى سنة ١٢٣٨ عندما أراد مؤسس الدولة محمد بن الاحمر ان يجعل مقره على تلّة «السبيكة»، فرفع البناء وأحاطه بالاسوار والابراج وأنشأ المراكز العسكرية ومخازن المؤن وأجرى المياه بكثرة. ثم جاء ابنه محمد الثاني فأكمل عمل أبيه، ثم محمد الثالث الذي أضاف بناء المسجد الملكي الذي تحتل موقعه اليوم كنيسة «سانتا ماريا». وظلت الحمراء تخضع لتعديلات وزيادات طفيفة حتى جاء يوسف الاول ثم ابنه محمد الخامس اللذان



اكملا الحمراء فأصبحت على الصورة التي وصلت الينا. وقد أضاف يوسف الاول غرفتي البركة والقنديل وباب الشريعة والحمامات، واهتم محمد الخامس بتجميل البرك والجنائن، وبزخرفة أقسام القصر الداخلية.

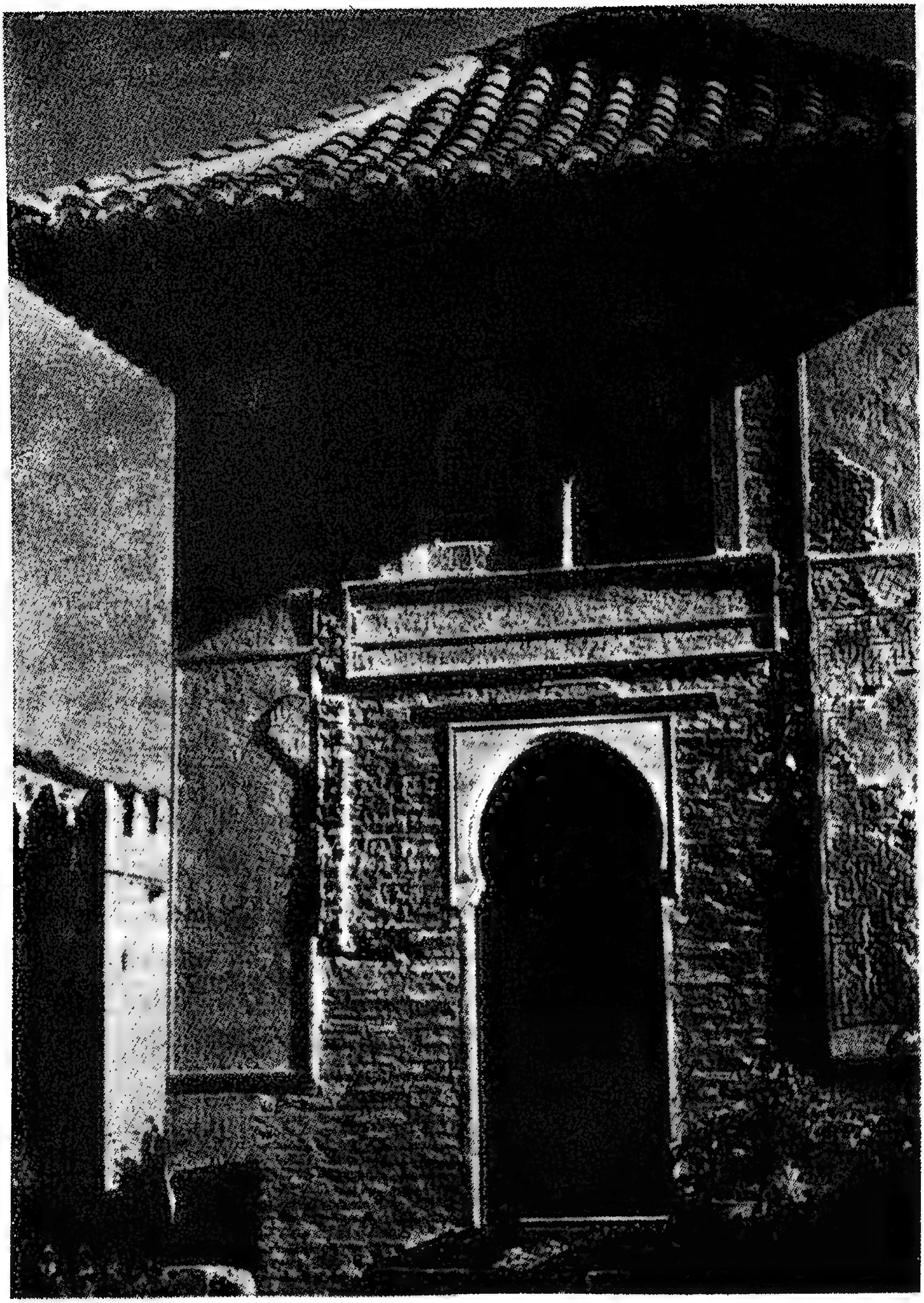
وعندما وقعت غرناطة بين أيدي الاسبان (١٤٩٢) اهتم الأسياد الجدد بترميم ما بدا متصدّعا، وأوكلوا عائلة من الاشراف رعاية الحمراء (Conde de Tendilla). ولما جاء الامبراطور شارلكان أضاف بناء جديداً عرف باسم القصر الملكي، وعندما تسلم فيليب الثاني (قرن ١٦) الملك رصد ميزانية خاصة من أجل صيانة الحمراء. ثم كان النسيان والاهمال في بداية القرن الثامن عشر بسبب الحروب التي دارت بين طلاب العرش ولم تنفع استغاثات الغرناطيين، فبقيت الحال هكذا حتى عهد كارلوس الثالث الذي اعاد الى القصر عافيته وجماله. وقد تحولت الحمراء الى ثكنة عسكرية عندما وقعت اسبانيا تحت الاحتلال الفرنسي أيام بونابرت، وقيل إن عدداً من الجنرالات الفرنسيين دهشوا بجمال ذلك البناء فقاموا ببعض الاصلاحات. وفي سنة ١٨٣٠ تسلم الحكم الملك فرديناندو السابع فخصص للحمراء خمسين ألفاً من الفضة أعادتها الى سابق عهدها. وفي سنة ١٨٧٠ اعتبر القصر بناء وطنياً ثم أصبح ابتداء من سنة ١٩٣٨ تابعاً لوزارة التربية والفنون الجميلة. ولا شك في أن الحمراء لم تعد اليوم تماماً تلك التي شيدها أصحابها، فالتعديلات والزيادات غيرت بعض الشيء من الاصل النصري، ومع ذلك يمكننا بسهولة معرفة القديم من الجديد.

من أجل الوصول الى الحمراء، علينا أن نسلك طريقاً تبدأ من «الساحة الجديدة» (Plaza Nueva) في قلب المدينة ونمر عبر باب البشرى (المتهدم) ثم باب الخندق الذي كان من قبل احد المداخل التي تتخلل سور المدينة، وعلى انقاض باب الخندق بنى الامبراطور شارلكان سنة ١٥٣٦ بوابة غرناطة، وبالرغم من حرص العاهل الاسباني على اعطاء تلك البوابة من حيث شكلها وزخارف عقدها طابع الفن التوسكاني، فان البناء لم يستطع التحرر من الاثر العربي الماثل أمامه في الرسوم والتوريقات الشبيهة بما نجده في الحمراء.

بعد عبور بوابة غرناطة التي يبلغ ارتفاع برجها ثلاثين متراً، نصل الى طريق متعرجة تصعد بنا الى التلة، على جانبيها أشجار الحور الضخمة، والطريق الصاعدة تسمى مرتفع بني غمرة C. De Gomores. وفجأة تطل علينا أبراج ثلاثة تخطف النظر هي أبراج الحمراء التي سميت هكذا للونها الضارب الى الحمرة، ذلك أن حجارتها من الاجر. ولا تظهر الحمراء بكاملها من بعيد لكونها محاطة بأشجار كثيفة عالية تحجب الرؤية. وقد تبدو فكرة زرع الاشجار حول القصر غريبة، لان أصحابه حرصوا على توفير الرؤية الواضحة والانوار الساطعة. وهذا الامر اوصل الباحثين الى معرفة قصة تلك الغابة المحيطة بالحمراء، وحقيقة الامر أن ذلك المنحدر كان من قبل مقبرة للمسلمين، وقد زرعت أشجار الحور والسرو في ذلك المكان نزولاً عند رغبة القائد الانكليزي «ويللنغتون» الذي قصد غرناطة للراحة وأقام فيها مدّة من الزمن. وبنو نصر أغنوا قصورهم بالبساتين والحدائق والاشجار الوارفة، وانما بين الاقسام الداخلية وليس خارج الاسوار.

قبل أن تصل بنا الطريق الى محجتنا يستوقفنا بناء غريب عن الفن الاسلامي وله شكل قوس النصر وهو عقد حجري بني فوق الطريق. وقد بني على انقاض برج متهدم ويعرف باسم «نصب شارلكان»، شيّد سنة ١٥٤٣ بأمر من حاكم المدينة تخليداً لذكرى الملك، وهو على طراز النهضة وغني بالزخارف المتوجة بالشعار الملكي، وقد نصبت في أعلاه ثلاث رمانات على هيئة مثلث.

وتنتهي الطريق عند «باب العدل» الذي سمي كذلك «باب الشريعة»، ومعه يبدأ عالم «الحمراء». وقد بنى باب العدل السلطان يوسف الاول سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م) بحسب ما تشير الكتابات المنحوتة في القسم الداخلي منه، ومن باب الصدفة ربما ان تنسجم ألوان حجارته المائلة الى الحمرة مع ألوان أشجار السرو والغار المحيطة به. ويبلغ عرض باب الشريعة خمسة وعشرين متراً وارتفاعه عشرين، وقنطرته على شكل نعل الفرس، ويرى منقوشاً في قسمه الاعلى مفتاح يرمز ربما الى مدخل «الحمراء»، وفي وسط العقد نقشت يد مفتوحة ترمز أصابعها



الى أركان الدين الخمس (وحدانية الله، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج). ويعتقد أن هذا الباب كان مجازاً لذوي المظالم، وفي الساحة التي تليه كان السلطان أو نائبه يجلس للفصل في المظالم وفي يوم معين.

بعد عبور باب الشريعة ندخل ممراً محصناً تكثر فيه الطاقات التي تمكن الحرس من رمي النبال والمواد المحرقة على العدو في حال اقترابه. وحتى اليوم ما تزال مغروزة في حائط الممر أوتاد كان الجنود يعلقون بها الثياب والسلاح.

وينتهي الممر عند فسحة كبيرة تعرف باسم «ساحة الجباب» P. DE LOS ALJIBES وقد سميت هكذا لان الحاكم الاول الكونت دي تنديلا CONDE DE TENDILLA الذي عينه الملوك الفرنجة على غرناطة أمر بأن تبنى مجموعة من الاحواض بغية اختزان المياه لوقت الحاجة. وبين باب العدل وساحة الجباب صف من الحوانيت تباع فيها تذكارات غرناطية. وتطل ساحة الجباب من جهة على المنازل المتزاحمة في حي البيازين وعلى الوادي السحيق حيث ينساب نهر حدرّة (الدارو) بهدوء متجهاً نحو مرج غرناطة الفسيح.

وتطل ساحة الجباب على القصبة، وهي القسم العسكري من الحمراء، وقد بناها محمد الاول على أنقاض قلعة قديمة، وهي مستقلة عن القصر ولا يجمعهما سوى السور الطويل الذي يلفهما. والقصبة أشبه بثكنة مثلثة الشكل، جدرانها العالية كثيفة وعريضة، وأبراجها مرتفعة وأهمها: برج الدروع، برج الاكرام، برج الاشراف، برج البارود، الى جانب برج الحراسة المشهور. ويبلغ ارتفاع برج الاكرام خمسة وعشرين متراً وكان مقراً لحاكم الحمراء في القرن السادس عشر. أما برج الحراسة فهو يخبىء ذكريات تاريخية كثيرة، ويبلغ ارتفاعه ستة وعشرين متراً، وهو مبني كسائر الابراج والجدران بحجارة رملية تميل الى اللون الاحمر. وكان هذا البرج يحمل في احدى جهاته جرساً قديماً كان يقرع بانتظام محدداً ساعات النهار مما يساعد أبناء المدينة على تنظيم اعمالهم ومعرفة بدء العمل وانتهائه، كما كان ينظم أعمال الري في مرج غرناطة. والى برج الحراسة أو

الشمعة صعد القادة الاسبان في الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ وفوق شرفاته رفعوا الصلبان وراية «شنتياقوب» والعلم الملكي، وذلك بحضور الملكة ايزابيلا والملك فرديناندو.

واللافت في ساحة الجباب لوحة عليها كتابة اسبانية لشاعر له مع الحمراء قصة طريفة، وهي ان ذلك الشاعر كان ضريراً فأراد زيارة الحمراء برفقة أمه، ولما عبرا «باب العدل» استوقفهما متسول هو الاخر ضرير. فأبت الام أن تحسن اليه، ولكن الشاعر صرخ بأمه: «أعطيه صدقة يا امرأة فما أقبح العمى أمام جمال الحمراء». وقد نقشت جملته على لوحة وضعت على مدخل الحمراء.

بعد ساحة الجباب ندخل عالم النوافير والحدائق عبر بوابة تبدو من بعيد كأنها مزخرفة بنقوش عادية. وعندما نقترب يتضح لنا أن تلك النقوش ليست سوى كتابات عربية فيها تمجيد لله، كما نقرأ شعار ابن الاحمر «ولا غالب الا الله»، فندرك حينئذ اننا داخلون القصر الملكي.

يتألف القصر الملكي من ثلاث مجمعات شبه مستقلة: المقصورة أو الجناح الذهبي، بيت السلطان أو جناح قمارش ثم باحة الاسود. فالقسم الاول كان مخصصاً للاعمال الادارية، والقسم الثاني كان مقر السلطان، والقسم الثالث خصص لعائلة الملك وهو دار الحريم.

كانت المقصورة مخصصة لحياة الملك البيروقراطية والقضائية، وفيها تعقد مجالس الشورى. نصل الى المقصورة عبر فناء يقودنا الى قاعة كبيرة وبالقرب منها مسجد خاص بالسلطان يتجه محرابه نحو القبلة. ويبدو أن القاعة والمسجد قد أعيدت اليهما الزخرفة بعد الاضرار التي لحقت بالنقوش اثر انفجار مستودع للبارود قريب من القصر، وذلك سنة ١٥٩٠. ويتوسط المقصورة بهو فيه نافورة ماء وتحيطه واجهات غنية بالزخارف المتنوعة، واحدى هذه الواجهات تنفتح على غرفة عرفت باسم غرفة الغابة لكونها

تشرف على الطبيعة الخارجية، كما عرفت باسم الغرفة الذهبية، وهذه الغرفة فيها ثلاثة أروقة تفصل بينهما أعمدة تحمل عقوداً كبيرة. أما الواجهة المقابلة للغرفة الذهبية في بهو المقصورة فانها تخطف النظر بغنى زخارفها، وقد يعجز الكلام عن شرح ما تتمتع به من جمال أخاذ. ولعل العناية البالغة بزخرفة هذه الواجهة سببها أنها خصصت لتكون مدخلاً الى السراي أو بيت السلطان أو جناح قمارش. وما يمكن قوله هو أن واجهة بيت السلطان تعطي الصورة الحقيقية لفن الزخرفة الاسلامي وما فيه من غنى قائم على التكثيف مع تناسق في الخطوط والتوريقات المتنوعة والكتابات الكوفية.

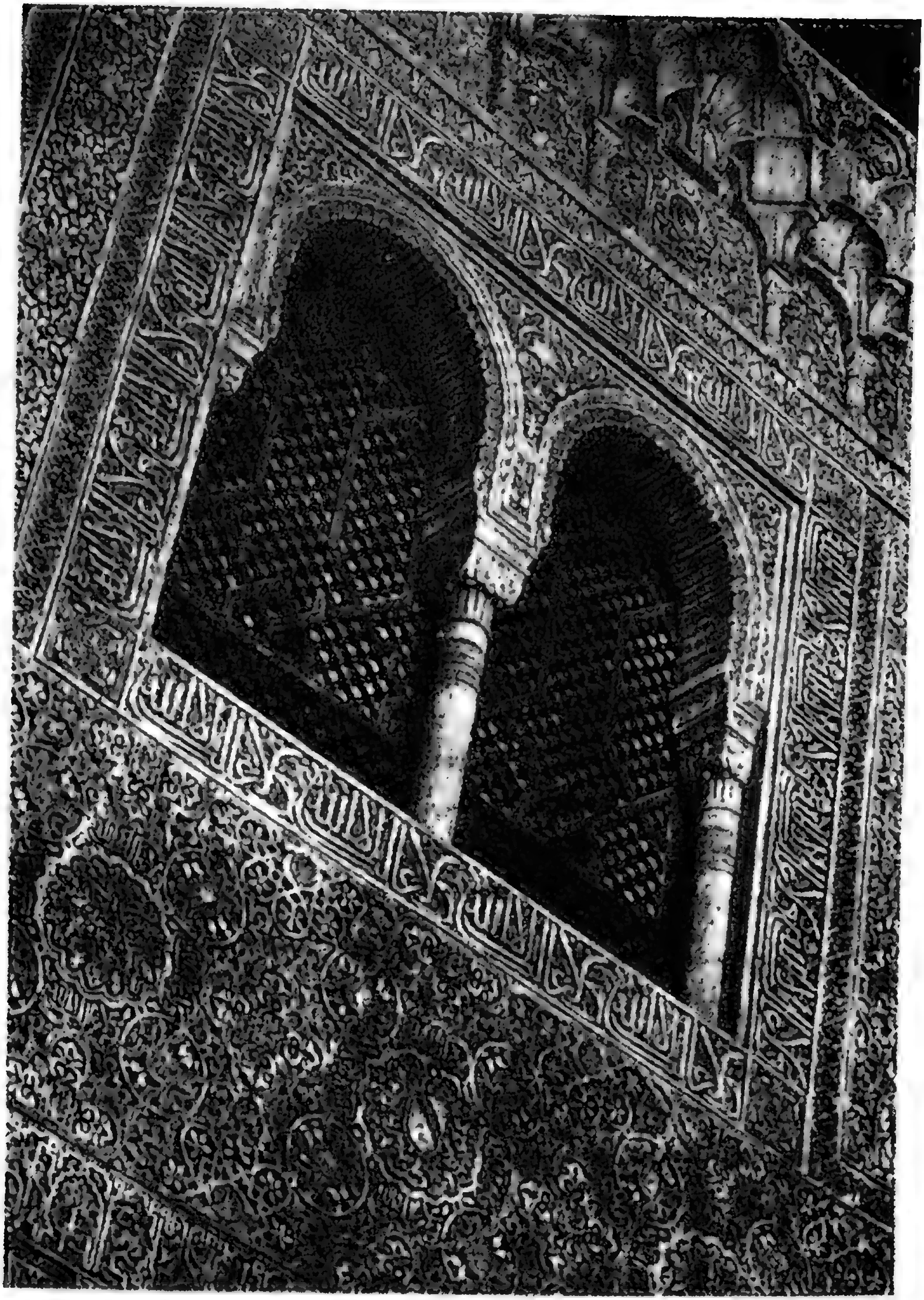
أما القسم الثاني من القصر الملكي فهو جناح السلطان، وفيه قاعة كبيرة جدرانها الداخلية مليئة بالنقوش والكتابات المتنوعة، وفي احدى واجهات القاعة بابان تعلوهما اعتاب مزينة ترتكز فوق اعمدة رخامية، كما تملأ الزخارف الجدران، وسقف القاعة مغطى بالخشب المزين بنقوش وخطوط متناسقة. ويقود احد ابواب القاعة الى البركة الكبيرة أو بهو الريحان، وهو الاكثر اتساعاً. وما تمتاز به هندسة هذا البهو هو التناسق الدقيق بين اجزائه، وهو يجمع بين المياه الكثيرة والأزهار والرياحين التي تنعكس على صفحة المياه الهادئة، كما تنعكس الجدران والابواب والاعمدة بأقواسها على الماء في بركة ساحة الريحان. والساحة مستطيلة الشكل تصب النوافير في بركتها من كل جانب، والعقود المزخرفة المتقابلة لها أقواس مسننة وترتكز فوق اعمدة رخامية دقيقة. وقد نقشت على أفاريز الاعمدة الايات والاقوال وأبيات شعرية ركيكة تكثر فيها الاخطاء من جراء عمليات الترميم المتكررة على أيدي الاسبان.

في الجهة المقابلة للمدخل الذي يؤدي الى باحة الريحان يرتفع «برج قمارش» أو برج القمرية الذي يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً. ضمن جدران هذا البرج تختبيء ذكريات مريرة على قلوب أصحابه وعذبة على قلوب

الذين أصبحوا فيما بعد أسياده. ففي القاعة الكبرى بداخله تم الاتفاق الرسمي على تسليم غرناطة الى الافرنج، وفيها سمع أبو عبدالله آخر ملوك بني نصر تحذير أمه من مغبة السياسة الحمقاء التي يتبعها. ويروى أن الملكة ايزابيلا سلّمت فيها حليها الى كريستوف كولمبس لتساعده على نجاح مغامرته، تلك التي أدت الى اكتشاف العالم الجديد. ومن على هذا البرج تقع انظارنا على مناظر محملة هي أيضاً بالذكريات الاليمة: فعلى احدى التلال المواجهة نرى خرائب بينها بناء عال ويطلق عليه اسم «كرسي المغربي» Silla del Moro حيث لجأ أبو عبدالله هرباً من ثورة اندلعت داخل مدينته. كما تستوقف نظرنا احدى التلال البعيدة التي وقف فوقها أبو عبدالله وهو في طريقه الى المنفى وألقى النظرة الاخيرة على البرج وذرف دمعته المشهورة، ويعرف ذلك المكان باسم «تنهّد المغربي» El Suspiro del Moro.

والقاعة الكبرى داخل برج قمارش تعرف باسم صالة السفراء أو قاعة العرش. وهي مربعة الشكل طول ضلعها اثنا عشر متراً ويبلغ ارتفاع سقفها اثنا عشر متراً، وفيها كان العرش الملكي، وتكثر في القسم الاعلى منها النوافذ الزجاجية الصغيرة أو القمريات، وهذا ما أعطاها اسم قاعة القمرية ثم تحول الى «قمارش». ويتخلل جدران القاعة ثماني شرفات تعلو مداخلها الاقواس وحولها توريقات ورسوم هندسية وكتابات متنوعة. أما سقف القاعة فهو مغطى بالخشب الملوّن والمزين بالنجوم.

عودة الى ساحة الريحان لنتعرف منها الى غرفة البركة المستطيلة، وهي تفصل بين الباحة وقاعة العرش. وقد سميت الغرفة هكذا لان الكتابات الكثيرة المنقوشة على الخشب الذي يغطي جدرانها تردد اسم البركة، وتجدر الاشارة الى ان قسماً من زخارف هذه الغرفة قد أتى عليه الحريق



الذي اندلع في القصر عام ١٨٩٠[1]. ويبدو أن غرفة البركة اعدت لكي تكون استراحة للحجاب ولحرس السلطان. وتطل الغرفة من احد جوانبها على ساحة فيها نافورة ماء محاطة بشجيرات من السرو، وتعرف الساحة باسم البهو الحديدي. وهذا البهو يطل بدوره على حديقة باسم «اللندراخا» Lindarajeلم تكن موجودة أيام بني الاحمر، وهي ذات طابع أوروبي يبعدنا عن أجواء الفن النصري الذي نعيشه داخل الحمراء. ويشاء بعضهم أن يكون الاسم تحريفاً لثلاث كلمات عربية هي «عين دار عائشة» وعين تعني نافذة.

عبر البهو الحديدي ندخل الحمامات الملكية، وأول ما يقع عليه النظر غرفة فسيحة زخارفها متعددة الالوان مع بروز اللون الذهبي ثم الازرق والاخضر والاحمر، وفي وسطها نافورة ماء صغيرة، وتعرف باسم غرفة الانتظار. أما الحمامات فتغمرها الانوار الداخلة عبر كوات بشكل ثريات، وأرضها مرصوفة بالرخام الابيض الذي يتخلله مجرى لتسريب المياه، وما زالت أماكن الاحواض ظاهرة وكذلك أماكن المواسير، والمعروف أن الحمام كانت تتوفر فيه المياه الباردة والساخنة، عدا الحمام البخاري. ومن الحمام نلج غرفة الامتشاط والاستراحة التي تكثر فيها الرسوم الغريبة عن الفن الاسلامي، ذلك أن الامبراطور شارلكان كان قد طلب من بعض الفنانين الاسبان والايطاليين وضع رسوم تمثل مشاهد من حملة الملك على تونس (١٥٤٦).

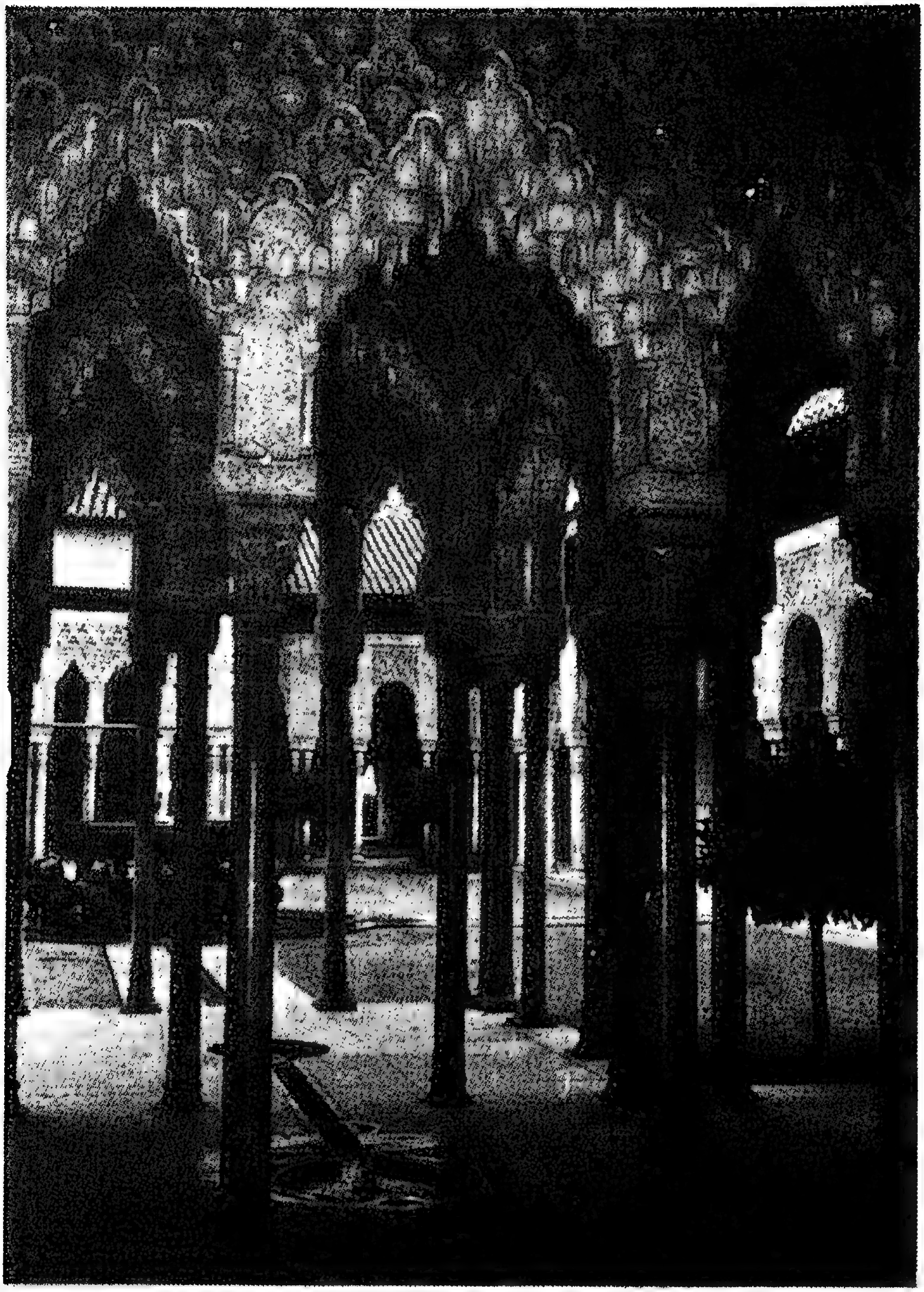
يبقى أن نلج قسماً مليئاً بالاسرار والاخبار في قصر الحمراء هو دار الحريم المعد لحياة الملك الخاصة مع نسائه من حرائر وسرائر. في وسط هذا القسم تقع باحة الاسود التي يبلغ طولها ثمانية وعشرين متراً وعرضها خمسة عشر متراً، وفي الباحة نافورة حوضها المرمري مستدير الشكل وتحمله مجموعة تماثيل لاثني عشر أسداً منحوتة بشكل فيه شيء من البدائية، وقد صفّت التماثيل بشكل

Enrique Sordo, Al-Andalus Puerta del paraiso, P. 158. (١)

دائري. وتجدر الاشارة هنا الى أن «المارستان» الذي بني في غرناطة والذي تهدم عام ١٨٤٣ كان فناؤه شبيهاً بباحة الاسود. ثم أن صحن النافورة الذي نشاهده اليوم في باحة الاسود لم يكن هو نفسه أيام بني نصر، والصحن الاصلي نزع ونقل الى احدى حدائق القصر، وفيه زخارف متنوعة وأبيات شعرية تصف تماثيل الاسود التي كانت تحيطها، والابيات للشاعر ابن زمرك. واللافت في تلك الباحة كونها محاطة بعشرين عموداً دقيقاً تعلوها أقواس مسننة وجدران مغطاة بالزخارف التي تبهر النظر مع كتابات متنوعة أهمها الجملة المعروفة: «ولا غالب الا الله».

أما الغرف المجاورة لباحة الاسود فأهمها المسماة «غرفة الاختين» التي تعلوها قبة جميلة تزينها الزخارف الملونة، أما جدرانها فغنية بالتوريقات وتعلو نوافذها النقوش وقد سميت الغرفة بهذا الاسم لان أرضها تحتوي على قطعتين متساويتين من الرخام فريدتين من حيث ضخامة الحجم. ومن غرفة الاختين نجتاز عبر باب غني بالرسوم الى غرفة الملكة، وزخارف هذه الغرفة تمتاز بالدقة المتناهية مما يتناغم مع الذوق الانثوي الرفيع، كما ان السقف تتدلى منه المقرنصات والهوابط المتنوعة. ومن غرفة الملكة نطل عبر شرفة مسقوفة على بستان كانت أشجاره فيما مضى ترتفع فتطول رؤوسها الايدي، ويبدو أن الملكة كانت تجلس أرضاً فوق الطنافس بدليل أن نوافذ الشرفة واطئة بخلاف النوافذ الاخرى العالية.

في الجهة الثانية من باحة الاسود والمقابلة لغرفة الاختين يمكننا الدخول الى بهو امراء بني سراج، وهو اسم الاسرة الغرناطية الشهيرة التي كان لها دور كبير في حوادث غرناطة الاخيرة. وقد حمل البهو هذا الاسم بعدما راجت اسطورة نكبة بني سراج في البهو المذكور، وذلك أيام أبي الحسن علي بن الاحمر وابنه ابي عبدالله. وتقول الرواية بأن عميدهم محمد بن سراج حاول مساعدة عائشة الحرة مع ولدها على الفرار من برج قمارش، فكُشف الامر ودبر السلطان أبو



الحسن مكيدة لاهلاكهم باغراء من زوجته ثريا. فدعا أكابرهم الى حفل أقامه وأدخلوا واحداً بعد واحد وقتلوا على حافة النافورة، فسمي المكان «بهو بني سراج»[1] وعلى جانبي بهو بني سراج غرف متعددة أهمها غرفة الامراء أو الملوك وغرفة المقرنصات.

في نهاية المطاف نستطيع في سيرنا عبر ممرات الاسوار المحيطة بالحمراء أن نشاهد مجموعة من الابراج منها برج القاضي وبرج الاسيرة. وتروي الاخبار أن ايزابيلا سوليس (ثريا) امرأة أبي الحسن الثانية سجنت في البرج الذي أطلق عليه اسم برج الاسيرة. ثم نمر على برج الاميرات الذي حمل اسم ثلاث فتيات هن زايدة وزريدة وزريحة، وتروى الاسطورة أنهن وقعن في حب ثلاثة من الفرسان النصارى حبسوا في ذلك البرج لمنع كل اتصال مع الاخوات الاميرات اللواتي عمدن الى تحريرهم والهرب معهم. وأهم أبواب السور المحيط بالحمراء باب الشريعة، باب النبيذ، باب السلاح وباب الحديد. وترى داخل أسوار الحمراء بيوت متفرقة عربية الطراز وبعضها متهدم وبعضها يبدو صالحاً للسكن.

أما قصر شارلكان، المجاور لقصر الحمراء، فانه لا يدخل في نطاق بحثنا ولا نجد دافعاً للتوقف عنده، وقد بني سنة ١٥٢٧ على الطراز الروماني وفي ابهائه العليا محفوظات قصر الحمراء. وما يمكن قوله هو أن العاهل الاسباني قد غيّر أو شوّه معالم الحمراء، دونما قصد، عندما حشر بناءه داخل مجموعة بني نصر، لكن ذلك لم يؤثر على اصالة الحمراء التي لم تستطع السنون والتقلبات أن تشوه جمالها.

ج ـ جنّة العريف

يقع قصر جنة العريف، وهو مجموعة من الابنية والحدائق، فوق تلة السبيكة شمالي الحمراء، في ركن منعزل هادىء. والطريق المؤدية اليه صاعدة وعلى

(١) Enrique Sordo, Al-Andalus Puerta Del Paraiso, P 159.

جوانبها أشجار السرو والدلف. وجعل سلاطين بني الاحمر «جنة العريف» على بعد ألف متر تقريباً في مكان هادىء كي يخلدوا فيه الى الراحة بعيداً عن هموم الحكم. ولا يعرف بالتحديد متى بوشر ببنائه، ولكن المعروف أنه بني قبل ١٣١٩م عندما أجرى السلطان أبو الوليد اسماعيل بن فرج بعض التصليحات فيه وملأ جدرانه بالكتابات المتنوعة، والمرجح أنه انشىء في أواخر القرن الثالث عشر. ويبدو أن هذا القصر لم يحافظ على أصالته كما هي حال الحمراء، فقد أدخل عليه التعديل بما أنشأه الملوك الاسبان من أبنية.

ومدخل القصر بسيط يفضي الى ساحة مستطيلة الشكل تعرف باسم بهو الساقية. على جانبي البهو رواقان طويلان وفي الوسط بركة تصب فيها المياه من نوافير عديدة، وحول الساحة غرست الرياحين والازهار المتنوعة. وفي صدر الساحة مدخل ذو ثلاثة عقود تعلوها الزخارف مع أبيات شعرية تصف جمال البناء. ويقودنا المدخل الى بهو آخر تحيطه الواجهات المزخرفة فوق أعمدة دقيقة، وتكثر على الجدران كتابات متنوعة منها: «ولا غالب الا الله»، «الملك لله وحده»، «الحمدلله على نعمة الاسلام».

والطبقة السفلى من القصر كانت في الاساس القصر الذي بناه النصريون، ولكن الملكة ايزابيلا أنشأت فيما بعد طبقة عليا فوق البناء القديم. وقد ضم أحد الاجنحة صورا لملوك قشتالة وصورة لابي عبدالله، ثم نقلت هذه الصور مع غيرها الى متحف في غرناطة.

واللافت أن غرف هذا القصر ليست في حجم غرف الحمراء. كما تكثر في القصر الممرات والجنائن، وتتدفق المياه في كل مكان حتى أن بعضهم يطلق على جنّة العريف اسم قصر المياه، وبعض الجدران مكسو بالنبات الذي يصل الى الشرفات. وانشئت مؤخراً حدائق حول مسرح بُني في العراء على الطراز الروماني، وفيه تقام مهرجانات دولية للموسيقى والرقص.

ن «جنة العريف» كان بمثابة حديقة فيها يتنزه ملوك بني نصر ويستريحون، ويطلون من الافنية على منظر المدينة ويساتينها وعلى قصر الحمراء. والقصر لوحة فنية مكوّنة من الاجر والجص والنبات والمياه، وهو يجسّد الفن المعماري الاسلامي، وفيه يقول ابن زمرك:

يا ساكني جنّةَ العريفِ	أُسْكِنْتُمْ جنَّةَ الخُلُودِ
كم تمَّ من مَنْظَرٍ شَرِيْفِ	قد حَفَّ باليُمْنِ والسُعودِ
وَرُبَّ طَوْدٍ بهِ مُنِيفِ	أَدْراجُهُ الجُضْرُ كالبنودِ[1]

بعد سقوط غرناطة أعطي القصر الى عائلة «بنيغش»، وآخر من امتلكه كان «المركيز كومبوتيخار» Compotejar، ومنذ ١٩٢١ أصبح ملك الدولة الاسبانية.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٧، ص ٢٤٦.

خاتمة

مما سبق تبين لنا أن ابن الاحمر سطع نجمه في آفاق الاندلس عندما بدأ الضعف يدب في هيكل دولة الموحّدين، فبسط نفوذه على غرناطة والمناطق المجاورة التي تقلص عنها ظلهم. لكن موقع المملكة النصرية الجغرافي كان ينبىء عن المصير الذي انتهت اليه.

وقد دخل سلاطين غرناطة مكرهين في الحماية القشتالية ودفعوا غالياً ضريبة الصداقة. وعندما أرسوا قواعد المملكة ورأوا في أنفسهم القدرة على الوقوف في وجه الطامعين، حاولوا التملّص من قيود تلك الصداقة بعدما طلبوا العون من المرينيين والحفصيين وسائر ملوك المغرب. فأدّت تلك السياسة الى ايقاع البلاد فريسة أطماع الممالك المجاورة من كل جهة، مما اضطر أصحاب غرناطة الى التنقل بين هذه الدول وتبديل السياسة بحسب تبدل الاجواء، وكانوا يعادون حلفاء ويحالفون اعداء، يتمردون ويخضعون، وبذلك استطاعوا اطالة عمر مملكتهم أكثر مما كان يتوقع لها. وفي القرن الخامس عشر راحت رقعة الدولة تتقلص وبدأت المدن تنهار الى أن جاء دور غرناطة، وبسقوطها انتهت دولة بني الاحمر. والذي دفع البلاد خطوات الى الهاوية، الى جانب عزلها عن العالم الاسلامي، ما أصابها من نزيف داخلي، ولم تكن اليقظة المرة الا بعد السقوط وخسارة الاندلس.

وقد تعرفنا الى النظم التي تمشت عليها مؤسسات الدولة، فلم تكن، بخطوطها الكبرى، مختلفة كل الاختلاف عما كانت عليه في عهد سيادة قرطبة. فالسلطان كان المرجع الاخير وصاحب الكلمة الفصل، وغالباً ما كان يختار الحجاب والوزراء والكتاب والقضاة من بين الفقهاء والادباء، ويوجه بنفسه السياسة الخارجية.

ثم إن ملوك بني الاحمر وجهوا عناية خاصة ناحية الجيش الذي كان دعامة الدولة الاولى، كما استقدموا المتطوعين المغاربة للجهاد ضد الافرنج، لكن تدخل المغاربة في شؤون الحكم جعل وجودهم خطراً على الدولة في بعض الاحيان.

أما المجتمع النصري فكان اسلامياً بالدرجة الاولى، كما احتضن عدداً قليلاً من النصارى واليهود. وكان مجتمعاً طبقياً فيه الاحرار والعبيد وفيه الخاصة والعامة. وقد حافظت الاسرة على العادات والتقاليد الموروثة، وتمتعت المرأة بحرية نسبية، كما اهتم المسؤولون بالنظافة وبالصحة العامة.

ولم تكن مملكة غرناطة لتستطيع الوقوف لو لم يكن لها اقتصاد قوي أساسه الزراعة والصناعة والتجارة. فبرع الناس في فلاحة الارض وتربية المواشي وغرس الحدائق، وحافظوا على مستوى عال للصناعة بفضل الثروات الطبيعية كالحديد والنحاس والذهب والرخام وغيرها. أمّا التجارة فقد نشطت مع الممالك الاوروبية ومع المغرب وسائر العالم الاسلامي.

ولم تكن الاوضاع السياسية المقلقة والحروب شبه المستمرة الا لتزيد أبناء المملكة تعلقا بأهداب الدين، وشهد المجتمع حركة زهد وتصوّف شملت الخاصة والعامة. واشتد الاقبال على طلب العلم فلمع نجم الاطباء والرياضيين واللغويين والكتاب والشعراء، وفي طليعتهم لسان الدين بن الخطيب وابن زمرك.

ولا ننسى ميل الناس الى حياة الرخاء وشغفهم بالعمران، ومدينة غرناطة اليوم تشهد على ما قام به امراء المملكة من انجازات ضخمة. ويكفي أن نقوم بجولة في عالم الحمراء لنتعرف الى الفن النصري داخل أجمل بناء تركه العرب في الاندلس، مما يعكس حضارة قل نظيرها في العالم الاسلامي.

هذا مختصر ما حوى الكتاب من أبحاث، فعسى أن ينال رضى القارىء، وعلى الله الاتكال.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

– ابن جبير، أبو الحسن: رحلة ابن جبير، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨.

– ابن الخطيب، لسان الدين:

١ – الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان. القاهرة، طبعة ثانية، ١٩٧٣.

٢ – اعمال الاعلام، تحقيق بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٥٦.

٣ – اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الافاق، بيروت، ١٩٧٨.

– ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون)، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧١.

– ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب، تطوان، ١٩٥٤.

– ابن منظور، أبو الفضل: لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

– الجر، خليل: تاريخ العلوم عند العرب، المطبعة البولسية، جونية . لبنان، ١٩٧٣.

– حتي، فيليب: تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، طبعة خامسة، ١٩٧٤.

– مرزوق، محمد: الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس. دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

– المقَّري، التلمساني: نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨.

– النباهي، أبو الحسن: تاريخ قضاة الاندلس، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

– دائرة المعارف، ادارة ف.أ. البستاني، بيروت، ١٩٦٠.

– مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، ابريل مايو يونيو، ١٩٧٧.

المراجع الفرنسية:

Dufourcq, Ch. E.:

- L'Espagne Catalane et le Maghreb au XIIIe et XIVe Siecle Paris, 1966.

- La Vie quotidienne dans l'Europe Medievale sous domination arabe, Paris, 1978

Heers, J: L'Occident au XIVe et XVe Siecle, Paris, 1963.

- Le Royaume de Grenade et la Politique Marchande de Genes au XVe Siecle, Bruxelles, 1957.

Levis Provencal, E.:

- Grenade Musulmane et l'Alhambra, Conferences sur l'Espagne Musulmane en 1947. Le Caire, 1951.

- Civilisation arabe en Espagne, Buenos Aires, 1958.

- Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, Paris, 1961.

Marcais, G.:

- L'Architecture Musulmane d'Occident, Paris, 1954.

- Manuel d'Art Musulman, Edit. Auguste Picard, Paris, 1922.

- Encyclopedie de L'Islam, Leyde, Paris, 1960 Nouv. Edit., 1971.

- La Grande Encyclopedie LAROUSSE, Librairie Larousse, Paris, 1979.

المراجع الاسبانية:

- Compmany y Monpalau, Memorias Historicas Sobre La Marina, Bercelona, 1963.

- Caro Baroja, J., Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 1957.

- De la Torre, A., Los Reyes Catolicos y Granada, Madrid, 1949.

- Garcia Gomez, E: Cinco Poetas Musulmanes, Madrid, 1944.

- Gimenez, Soler, A., La Corona de Aragon y Granada, Barcelona, 1908, Reed. 1978.

- La Fuente y Alcantara, Inscripciones Arabes de Granada, Madrid, 1957.

- Loscertales Ramos, ElCautiverio En la Corona de Aragon Durante los Siglos XIII, XIV, y XV, Saragoza, 1915 Reed, 1962.

- Marmol Carvajal, L. Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos, Biblioteca de Autores Espanoles, XXI,?

- Miranda, A.H, Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid, 1956.

- Olivera, Antonio R. Historia de Espana, La Antiguedad, Edicion Oasis, Mexico, 1974.

- Rubio, German, Historia de Nuestra Senora de Guadalupe, Barcelona, 1962.

- Seco de Lucena Paredes, L., Documentos Arabigo-Granadinos, Madrid, 1961.

Sordo, Enrique, Al-Andalus Puerta del Paraiso, Edicion Argos, Espana, 1964.

- Suarez Fernandez, L., Juan II y la Frontera de Granada, Valladolid, 1954.

- Valdeon Baruque, J., Los Judios de Castilla y la Revolucion Trastamara, Valladolid, 1968.

- Revista «Al-Andalus», Revista de les Estudios Arabes de Madrid y Granada, Madrid - Granada.

أسماء أهم المدن والاماكن الاندلسية الواردة في البحث

وما يقابلها بالاسبانية

أبّده	Ubeda	بطليوس	Badajoz
أشتجة	Ecijia	بلش	Velez Malaga
أرخونة	Arjona	بياسة	Baeza
اشبيليه	Sevilla	جبل الثلج	Sierra Nevada
انتيكرا	Antequera	جبل الفتح طارق	Gibraltar
البشرّات	Alpujarras	جنة العريف	Generalife
الحامه	Alahama	جِليانة	Juliana
الحمراء	Alhambra	جيان	Jaen
الجبل الاسمر	Sierra Morena	حدرّه	Darro
الجزيرة	Algecira	رنده	Ronda
الوادي الكبير	Guadalquivir	ريُّه	Reyo
المريّه	Almeria	شاطىء الشمس	Costa del Sol
المنكّب	Almunecar	شنيل	Genil
باغُه	Priego	شريش	Jerez
برجه	Berja	شلوبينيه	Salobrena
برشلونه	Barcelona	سموره	Zamora
بسطه	Baza	طريف	Tarifa

طلبيره	Talavera	مارده	Merida
غرناطة	Granada	مالقة	Malaga
قبره	Cabra	مرتوس	Martos
قرطاجنه	Cartagena	مرسية	Murcia
قمارش	Comares	منورقة	Menorca
قلعة يحصب	Alcala la Real	ميروقة	Mallorca
قمة مولاي حسن	Mulacen	مكلين (مقلين)	Maclin
لوسينا (اللّسانة)	Lucena	وادي آش	Guadix
لوشه	Loja	يابسه	Ibiza

الفهرس